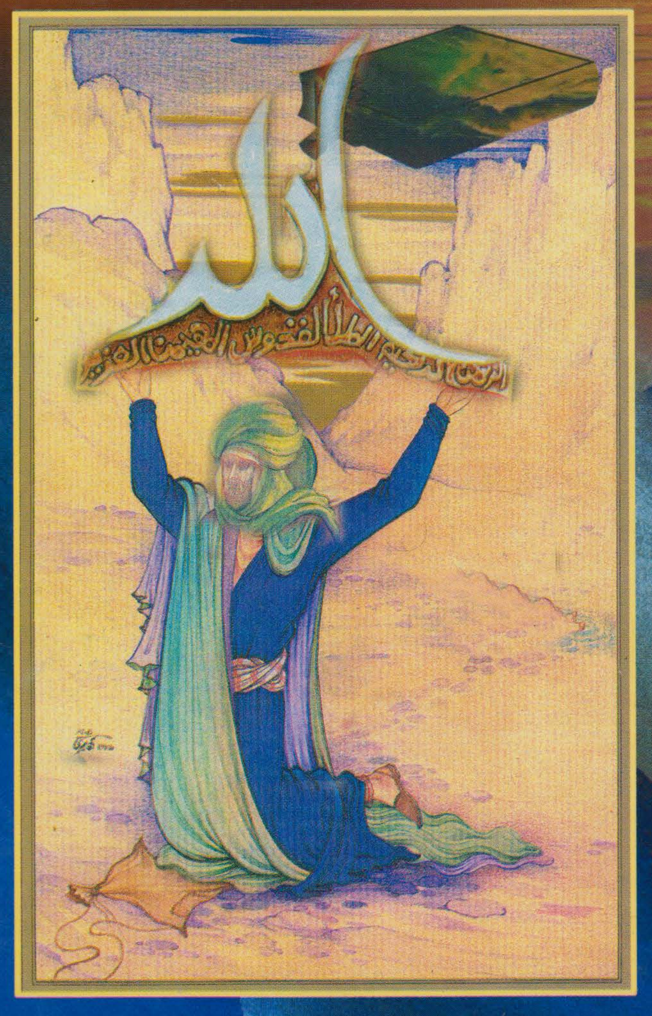
هكذا عرفت نفسي



محمد جمال الهاشمي

ضبط وتعليق

السيد حسين نجيب محمد

دار المحجة البيضاء


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الاخرى لرجح إيمانه
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

هكذا عرفت نفسي



محمد جمال الهاشمي

ضبط وتعليق

السيد حسين نجيب محمد

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb

تقديم

بقلم: السيد حسين نجيب محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

من المفارقات العجيبة في حياة أكثر الناس أنهم يعلمون بما يدور حولهم من الأُمور المادية، فيعلمون الكثير عن عالم الحيوانات والنباتات والجمادات والصناعات وغير ذلك.

إلاَّ أنهم مع ذلك يجهلون أعزَّ الأشياء عليهم أعني بذلك أنفسهم، فلو سألت بعض الناس عن نفسه، ما هي؟ ومنْ أوجدها؟ ولماذا وُجدت؟ وما يُراد منها؟ وإلى أين تصير بعد الموت؟ إلى غير ذلك، لرأيته يقف حائراً، حتى أن الحيرة في معرفة النفس صارت سمة الإنسان العصري، وفي هذا الواقع مفارقة خطيرة لا تخفى على أحد، فإن منْ جهل نفسه وضيّعها فقد جهل كل شيء.

ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «منْ جهل نفسه كان بغيره أجهل»[1]، و«منْ شغل نفسه بغير نفسه تحيَّر في الظلمات وارتبك في الهلكات، ولم يعرف نفسه»[2].

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «المعرفة».

(٢) المصدر نفسه.

و«عجبت لمنْ ينشد ضالته وقد أضلَّ نفسه فلا يطلبها»[١].

لذلك كان من الضروري لكل إنسان أن يسعى لمعرفة نفسه فإن «معرفة النفس أنفع المعارف».

و«غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه» و«أفضل العقل معرفة المرء بنفسه، فمنْ عرف نفسه عقل ومنْ جهلها ضلَّ» كما في الحديث عن الإمام علي[٢].

وعنه عليه السلام أنه قال: «رحم الله منْ عَرفَ من أين، وفي أين، وإلى أين؟»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «وجدت علم الناس كلهم في أربع:

١ ـ أن تعرف ربّك.

٢ ـ أن تعرف ما صنع بك

٣ ـ أن تعرف ما أراد منك.

٤ ـ أن تعرف ما يخرجك من دينك[٤].

* ومعنى معرفة النفس أن يعرف دائها ودوائها، ومراتبها، وما يوجب اعتدالها وصلاحها، وما يُسبّب طغيانها وخمودها، وما يوصلها إلى مرحلة «النفس المطمئنة والراضية المرضية».

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «المعرفة».
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الخصال للصدوق.

لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «إن للجسم ست أحوال: الصحة والمرض، والموت والحياة، والنوم واليقظة، وكذلك الروح فحياتها علمها، وموتها جهلها، ومرضها شكها، وصحتها يقينها، ونومها غفلتها، ويقظتها حفظها»[1].

* ولمعرفة النفس طرقاً عديدة مُستمدة من التعاليم الإسلامية أهمها:

تخلية النفس من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، ومراقبتها ومحاسبتها، وترويضها، ومجاهدتها، والتفكّر، والتذكر، وملازمة العبادات والأوراد والأذكار، وفيما يلي بعض النصوص:

عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «خالف نفسك تستقم» وعنه عليه السلام: «من الخلاف تكون النبوة» وعنه عليه السلام: «وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى».

وعنه عليه السلام: «خدمة النفس صيانتها عن اللذات والمُقتنيات ورياضتها بالعلوم والحِكم، واجتهادها بالعبادات والطاعات، وفي ذلك نجاة للنفس».

وعنه عليه السلام: «إذا رغبت في صلاح نفسك فعليك بالاقتصاد والقنُوع والتقلل»[2].

* فإذا عرف الإنسان نفسه فقد كمُلت معرفته في كل شيء وذلك لأن النفس الإنسانية محلاً للعالم العلوي الذي حوى كل شيء وعلى حدّ تعبير الإمام علي عليه السلام:

---

(١) مائة كلمة: الآملي، ص٦٣.

(٢) لاحظ «غرر الحكم».

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوىٰ العالم الأكبر

فإذا عرف الإنسان نفسه فإنه يعرف كل شيء على حقيقته ولذلك قيل: معرفة النفس مفتاح خزائن الملكوت، وعن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «منْ عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم»[1].

ومن أهم الأُمور التي يعرفها:

١ ـ معرفة الله تعالىٰ:

عن الإمام علي عليه السلام: «منْ عَرفَ نفسه فقد عَرفَ ربّه».

وعن الإمام علي الرضا عليه السلام: «لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عزَّ وجل ما مدّوا أعينهم إلى ما متّع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطأونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفة الله جلَّ وعز وتلذّذوا بها تلذّذ منْ لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله.

إنَّ معرفة الله عزَّ وجل أنس من كل وحشة وصاحب كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف، وشفاء من كل سقم»[2].

وعن الإمام علي عليه السلام: «منْ عرف الله توحَّد»[3].

وعنه عليه السلام: منْ سكن قلبه العلم بالله سكنه الغنىٰ عن خلق الله»[4].

---

(١) ميزان الحكمة.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه
(٤) المصدر نفسه.

٢ ـ معرفة الأشياء كما هي:

العارف بنفسه لا يكتفي بالظاهر فقط، وإنما يرى حقائق الأشياء وذلك لأنَّ نفسه صارت على درجة عالية من الصفاء والكشف، فهو يرى حقيقة الدنيا، والناس، والشهوات، والأعمال، والأولياء، والقرآن الكريم، والمساجد إلى غير ذلك.

وعن الإمام علي عليه السلام: «عجبت لمنْ عرف نفسه كيف يأنس بدار الفناء»[1]. وذلك لأنه إذا عرف حقيقة نفسه عرف حقيقة الدنيا فلا يأنس بها.

٣ ـ القدرة على التصرف بالماديات:

وذلك لأن النفس تستمد قوتها وطاقتها من الله تعالىٰ فمن اتصلت نفسه بالله القوي فإنه يقوى على كل شيء لذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال»[2].

* هذا، وقد كتبت هذه المقدمة لتكون بمثابة الخلاصة والتوضيح لما كُتب في كتاب «هكذا عرفت نفسي».

كتاب «هكذا عرفت نفسي»

هو عبارة عن بحث يتناول «معرفة النفس البشرية» بأسلوب أدبي وجداني قصصي يتناسب مع كافة الطبقات العلمية.

وقد اعتمد الكاتب رحمه الله في بحثه في النفس على القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد وأهل البيت عليهم السلام.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

والواقع فإن هذا الكتاب من أروع الكتب التي تدخل قلب الإنسان وتحرك فيه الوجدان ليتجه نحو معرفة نفسه فالجدير بكل إنسان أن يقرأه مراراً وتكراراً بتمعّن وتدبّر.

عملنا في الكتاب

ولما كان الكاتب خالياً من المصادر ومن أي تعليق من المؤلف رحمه الله فقد قمنا بتخريج مصادر الآيات والروايات، مع إضافة بعض التعليقات التي توضّح مقصود المؤلّف كما أضفنا إلى الكتاب عناوين الموضوعات لتكون محلّاً للاستفادة في حال الرجوع إليها.

نبذة مختصرة عن حياة المُؤلّف

هو آية الله السيد محمد جمال الهاشمي الگلپايگاني

وُلد قُدِّس سرّه في مدينة النجف الأشرف سنة ١٣٣٢هـ وتُوفي فيها ـ بالسكتة القلبية ـ سنة ١٣٩٧ هجرية، ودُفن في وادي السَّلام قُرب والده السيِّد جمال الدين الهاشمي الذي كان يُعدّ أحد كبار مراجع الدِّين في عصره.

درس في حوزة النجف الأشرف عند كبار العلماء كوالده رحمه الله، والشيخ العراقي قُدِّس سرُّه والسيِّد أبو الحسن الأصفهاني رحمه الله وغيرهم من أساطين علم الفقه والأصول.

ثمَّ وصل إلى مرحلة الاجتهاد، فصار يُدرِّس البحث الخارج في الفقه والأصول. ويُلقي المحاضرات العلمية في العقيدة، والتفسير، والتاريخ، وغير ذلك من المواضيع الفكرية، ونتيجة لذلك فقد ألَّف كُتباً عديدة في مختلف الحقول أهمها:

١ ـ أصول الدِّين الإسلامي.

٢ ـ مع القرآن الكريم.

٣ ـ الزَّهراء عليها السلام.

٤ ـ الإسلام في صلاته وزكاته.

٥ ـ مشكلة الإمام الغائب.

٦ ـ الأدب الجديد.

٧ ـ هكذا عرفت نفسي.

٨ ـ مع النبي وآله عليهم السلام.

تميّز رحمه الله بالاهتمام بالجانب الأدبي منذ بداية شبابه، فصار ينظم الشعر، ويلقيه في المحافل والمناسبات الدِّينيَّة، أو ينشره في المجلات والصحف الإسلامية والأدبية حتى ذاع صيته فصار من كبار الشعراء الذين يُشار إليهم بالبنان، وإن مطالعة ديوان شعره كافية لمعرفة ذوقه الأدبي، وأحاسيسه المرهفة، وذهنه الخلاَّق، وولائه للنبي محمد وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام صلوات الله عليهم أجمعين نسأل الله تعالى أن يحشره مع مواليه الطاهرين في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

بقلم
حسين نجيب محمد الموسوي
العاملي

رجاء

أرجو من القارىء الكريم أن يتحرر من القيود العلمية الرسمية قبل قراءة هذا الكتاب، لأنه لم يعبأ بحدود الاصطلاحات، ولا بأصول العلم المرسوم، وإنما هو وحي الوجدان للوجدان، ولذلك ربما يرى القارىء فيه اصطلاحات جديدة، أو نظريات تخالف نظريات المدارس الرسمية في الفلسفة والعرفان، **فإني أردت أن أسير بالمعرفة على ضوء الدين، وبالدين على أصول المعرفة** فكتبت هذا الكتاب.

الهاشمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل معرفة النفس وسيلة لمعرفته، وأقام من الفقر والضعف دليلاً على غناه وقوته، أحمده حمد منْ فكّر فدبَّر، وسار فوصل، وصمم فعمل، وانفرد فوحّد.

والصلاة والسلام على منْ دنا منه فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، سيد المرسلين وخاتم الأنبياء محمد ﷺ وعلى الصفوة من آله والنخبة من أصحابه.

أما بعد فهذه مذكرات كنت أسجل فيها خواطري وأنا أسير إلى الحقيقة المجهولة، أسجلها لنفسي لكيلا أنسى نفسي، ثم عرضتها على الصفوة من إخواني فارتأوا نشرها، وها أنا ذا نزولاً عند رغبتهم أنشرها كرسالة إنسانية للناس، وأقدمها كهدية متواضعة من إنسان جاهد في سبيل الإنسانية، أقدمها للإنسانية نفسها لتكون هدية عامة لأبناء الإنسانية سائلاً من الله أن يجعلها ذخيرتي يوم لا تنفع فيه الذخائر.

النجف الأشرف

محمد جمال الهاشمي

المقدمة
هكذا عرفت نفسي

كنت أعيش معها وكأني أعيش مع غيرها، تدعوني إلى نفسها فأزور عنها وكأنها لا تقصدني بهذه الدعوة، وتقرب إلي بعواطفها وألطافها فأتباعد عنها وكأنها تعني سواي بهما.

ما هذا الجفاء القاسي؟ سؤال ألقته النفس عليَّ في ساعة حالمة كنت فارغاً فيها عن غيرها، وإذا بي التفت إليها وإلى معاملتي معها فأخجل منها، وكان الخجل بدء التعارف بيني وبين نفسي.

إنني أدّعي الإنسانية، وهل من الإنسانية هذه القساوة القاتلة؟ كيف أتلافى عواطفها وكيف أتلافى ازوراري؛ سؤالان ألقيتهما على نفسي، ورحت أتعب في الجواب عنهما.

مما هي نفسي؟ ومن أين جاءت؟ وإلى أين تسير؟ إنني إنسان قذفتني القوة المجهولة في هذا العالم فرحت أتعب أيامي فيه، فمن أين جئت؟ وإلى أين أسير؟ وما هي تلك القوة التي رمتني إلى هذا العالم؟ وما هو هذا العالم الذي نعيش فيه؟ إنها أسئلة متعبة كنت ألقيها على نفسي حينما اتجهت إلى نفسي.

كنت أفكر في كل شيء إلا في نفسي، وكنت أحل كل مشكلة

تحيط بي إلا مشكلة سيري في هذه الحياة المجهولة الأطراف، فلما التفت، تركت كل شيء واتجهت إلى نفسي وإلى العالم الذي أعيش فيه، فمن أين جئت؟ وإلى أين أسير؟

إن المبدأ الذي سرت منه إلى الحياة لا بد وأن يكون شاطىء للحياة (والحياة بحر تلعب فيه الحوادث كالأمواج) والمقصد الذي سأنتهي إليه هو الشاطىء الثاني للحياة، فهل جئت من العدم كما أني أسير إلى العدم؟ وهل يقنعني ما أقنع الشاعر الجبار؟

أنا لست أدري.

جوابٌ يتمكن منه حتى الطفل الصغير، فهل أقنع بجواب طفل لا يفهم من الحياة شيئاً أبداً، إنني لا أرضى بهذه المنزلة لنفسي، ولذلك يلزمني أن أجتاز هذا الطفل في مداركه.

فكيف أجتاز؟ وما هو الجواب على هذه الأسئلة، فمن أين جئت؟ وكيف جئت؟ وإلى أين أسير؟ وإذا كنت عدماً محضاً كيف تكللتُ بتاج الوجود؟ فالاعدام لا تتناهى وقد كنت منها، كيف تبيت هي كما هي ووجدت وحدي أنا؟ فلا بد أن يكون لي امتياز في عالم الإعدام، به استحققت الوجود، فما بعد ذلك الامتياز؟

إنني ابتدأت من نقطة معلومة مجهولة وسأسير إلى نقطة معلومة مجهولة الطي، فهل يكون مبدأ سيري هو الغاية له، فأكون قد سرت في طريق دائري مبدؤه عين منتهاه، وان غاية سيري غير مبدئي فأنا أسير في خط مستقيم، وبما أن طرفي حياتي أو وجودي يتحدان في الخفاء والظهور، في الخفاء عن عقلي لعدم إدراكي لحدودهما، وفي الظهور لعقلي، لإدراكي بأني من مبدأ وإلى غاية، إن هذه الوحدة

جعلتني أفرض نفسي بأني أسير في طريق دائري مبدؤه عين منتهاه، فما هو هنا المبدأ الذي هو النهاية؟

لا شك بأن الإنسان وُجد بعد العدم، فالوجود أمر طارىء على الإنسانية، فأين كان هذا الوجود قبل طروئه على هذا العدم، وكيف يطرأ الوجود على اللاشيء المعدوم حتى يجعله شيئاً موجوداً؟ وهب إنَّا نجيب عن هذا السؤال بأن التفاعلات الجسمية والاستجابات الجنسية هي التي توجد هذا الكائن المفكر، لكنا نرتفع في سؤالنا إلى الإنسان الأول وكيفية وجوده في هذا العالم، حيث لم تكن هناك أجسام إنسانية تتفاعل أو شهوات حيوانية تدعو وتجيب، فكيف وُجد ذلك الكائن المفكر؟

إننا نرى العلم يخبط في هذا المنطق في ظلمات الوهم والتخمين فيحاول أن يوجد في الكون تفاعلات فرضية، وانقلابات عنصرية، فيوجد منهما الإنسان، ولكنا حينما ننظر إلى تلك الفرضيات بفكر متحرر من الألقاب الضخمة التي تسبغها جامعات الغرب على مخترعيها يغلب علينا الضحك والبكاء على الطاقات الفكرية التي اضمحلت في تشييد قواعد علمية عامة على هذه الأسس الواهية.

إنني حينما أفكر في تكويني الخاص وفي عالمي المخصوص، وكيف تمكنت أن أجتاز تلك العوائق والعقبات بسلامة بينما اخترت مئات الآلاف من أمثالي، فكيف سلمت منها وأنا مثل تلك مئات الآلاف في الكمية والكيفية.

إنني كلما أفكر في هذه الناحية من حياتي أؤمن بأن هناك قوة تحرسني من الحوادث، إن بذرتي الأولى كانت مُعرَّضة للفساد وإن

كل مرتبة من مراتب تدرجي في الحياة كان قابلاً للفناء، إن ساعة ميلادي ساعة محفوفة بالحوادث العصبية، ومع ذلك اجتزتها بسلامة وسلام، ولم أعتقد بأني تجاوزتها إلا برعاية تلك القوة الحارسة، إنني أسير إلى مستقبل مجهول الحوادث، أسير في عالم يموج بالحوادث، أسير ومن حولي ألوف من صرعى الحوادث ومع ذلك سرت وسرت حتى بلغت المنطقة المتوسطة من العمر وسأسير حتى أبلغ النهاية، واني مصون بعناية تلك القوة الخفية.

فما هي تلك القوة؟ وهل هي المبدأ الذي تنبثق منه الحياة؟ أو هل هي الخاتمة التي تتلاشى فيها الحياة؟ تلك أسئلة تدور بفكري ويدور بها فكري وسأقف على حلها في طي سيري في هذا المؤلف، إن كتابي يطوف حول قوسيّ الدائرة ليعرّف الإنسان بالحقائق المجهولة فيها، إنه يمر بالإنسان على المناطق النفسية التي تجاهلها ابن العصر في حياته، ولا شك بأن القارىء سيتسغرب مني هذا البحث الشائك في عصر الذرة، ولكن لو أدرك القارىء ما أدركته أنا من جنايات العصر على الأفكار والعواطف لألزم نفسه كما ألزمت نفسي على السير في هذا العالم العجيب.

الحياة المادية

إن المادية قضت على الروحانيات في كل مكان، وحتى الآفاق الدينية أصبحت الوسائل المادية تتصرف فيها، وإن برامج العلم الحديث ترجع بالإنسان إلى عصوره الأولى، حيث كان لا يمتاز عن الحيوان الأعجم في عقله وعاطفته، فهو لا يقصد من الحياة إلا حياته الشخصية فقط، وهو لا يعمل إلا في مجالات بهيمية، إذ يفكر في اقتطاف اللقمة من أخيه ليزيد بها لقمات طعامه، وإذ يفكر في كيفية استيلائه على مسكن رفيقه ليوسع به مجال حياته، وإذ ينصب الإشراك لاصطياد الأنثى ليروي بها ظمأ شهواته.

إن ذلك الإنسان بعدما تدرج إلى الكمال في طي آلاف السنين أصبح يرجع إلى منازله الأولى، يرجع إليها بوسائل أضمن للنجاح، فهو يخترع ويكتشف ليروي ظمأه إلى الغزو والاستلاب، وهو يوصل الفكر بالفكر، والحيلة بالحيلة لتتسع دوائر استعماره وتكبر مناطق استثماره، فهو ما زال هو ذلك الإنسان المتحيون، أو الحيوان المتأنس، لا يفكر ولا يعمل إلا في مجالات رغباته الحيوانية فقط وإن حاول أن يعرض أعماله وأقواله بأزياء سامية في الإنسانية.

لكن الفكر الواعي لو فرق ذلك الجلباب المزيف لانكشفت له الحقيقة المستورة، ولشاهد بأن هذا الملاك الكريم ليس إلا ذلك

الوحش الضاري أو الشيطان الأثيم، وإني لألقي تبعة هذا التقهقر على مناهج الفكر وبرامج التعليم في جيلنا الراقي، هذا الجيل الذي لا يرى في الإنسان إلا صورته الحيوانية فقط.

الإنسانية

أما الحقيقة الإنسانية فقد أنكرها عقله، فهي في نظره ليست إلا عدماً محضاً يتراءى في عنوان الوجود والعدم لا يستحق أن يفكر فيه الإنسان أبداً، وهي نظرة مجرمة ينبغي أن تحاكمها الإنسانية في ساحة المنطق والوجدان، فالإنسان يمتاز عن الحيوان بأصول ذاتية وعوامل أساسية لا ينكرها العقل البشري وإنه بتلك الأصول والعوامل راح يُسخِّر الأكوان ويكتشف العوالم ويحل المشاكل ويستخدم الطبيعة، ولو كان الإنسان هو ناحيته الحيوانية فقط لما تمكن أن يستولي على النوع الذي يفوقه قوة وشدة وضخامة، كما لتمكن أن يستولي الحيوان الضعيف على الذي هو أقوى منه في دنيا الحيوانات، فهو بتلك الأصول يفكر فقط، ولذلك لزمه أن يراعي موازين تلك الأصول بينما نرى إنسان عصر الذرة لا يرى في هذه الأصول إلا أطلالاً بالية وآثاراً عافية لا تستحق العناية والاهتمام فهو يسير وراء رغباته الحيوانية وغرائزه البهيمية، حتى أصبح وحشاً فاتكاً ضارباً لا ترويه دماء الملايين ولا تشبعه حياة الشعوب.

إنني أردت أن أسير إلى الإنسانية الحقة، ولذلك تركت كل ما يحيط بدنياي من ملابسات فكرية وعاطفية، فإن للإنسانية حدوداً لا

يمكن اجتيازها إلا بشروط خاصة، أهمها التجرد عن الملكات التي تحاربها الإنسانية.

إنني أيها القارىء أردت أن أسير إلى حرم الإنسانية فسرت إليه، فإذا أردت أن تجاريني في السير فعليك أن تقوم بما قمت به، وأن تعمل ما عملته، وأني ضامن لك الوصول إلى ما وصلت إليه، من المنازل الإنسانية.

إن برنامجي ودليلي على مدرسة القرآن وعلى ما خرجته من الآثار والروائع، نظمت برنامج سيري إلى الحقيقة، لأنني وجدتها تضمن للفكر الوصول إليها من طريق لاحب وصراط مستقيم، فهي تسير بالفكر من دنيا الحس إلى عالم الغيب، كما تشرف على المناطق المجهولة للحياة من كوة المناطق المحسوسة فيها، فتدرب الغرائز على الإيمان بالغيب، وتقرب الأذهان رويداً رويداً إلى الحقائق النائية عنها، وهي طريقة نجحت في اجتذاب العقول أو القلوب إلى مبادئها وغاياتها.

وإنني سرت عليها في مؤلفي هذا حسب ما تمكنت عليه، سرت عليها ولا أعني بالسير عليها انني اتبعت النصوص القرآنية أو النبوية في سفرتي الوجدانية لا. لا أعني ذلك، بل انني جعلت من أسلوب القرآن وأحاديث النبي وسيرة الأئمة عليهم السلام إطاراً لهذه الصور الوجدانية التي أعرضها على القارىء الكريم، فالكتاب من منتجات مدرسة القرآن وإن كان عرضه يبعد عن مناطق معارض القرآن بتاريخ طويل فإنني ولدت بعد أربعة عشر قرناً من عهد القرآن، ولكل عصر أساليبه الخاصة في الفكر والعمل ولقد جاريت التاريخ الحديث في العرض، وإن لم أحد عن عهد القرآن في المبادىء والغايات.

إنني مسلم قبل كل شيء، وللمسلم دنياه الخاصة التي لا يتمكن من توسعتها أو تضييقها في البناء والتعميم، وكل ما هنالك أنه أردت أن أقيم دنياي المسلمة في القرن العشرين وكانت هذا المؤلف، فإذا رأى الشباب فيه نبواً عن دنيا العصر، أو رأى الشيوخ فيه نبواً عن أساليب عهد النبي، فما ذلك إلا انني مسلم من أبناء القرن العشرين احتفظ بديني وعصري، ولا شك بانني سأصطدم بهما عند من يتمسك بأحدهما فقط ولا يهمني ذلك لأنني في صدد تبليغ رسالة تنزلت عليَّ في ساعة حالمة هزتني فوعيت فنظرت فاضطربت، وكانت ميلادي الجديد تلك الساعة، فمنها دخلت الحياة بقلب جديد وعقل جديد وعمل جديد، وأن ما تقرؤه ليس إلا عرضا لتاريخي الجديد.

ولما كان المصير إلى الحقيقة تدريجاً لا يمكننا الوصول إليها إلا بالمرور على كل منطقة منها لذلك كان سيري إليها طبيعياً، وستسير معي إليها أيضاً كما سرت، فتقف على كل مرحلة من هذه المراحل لتستعرض فيها ما استعرضته من الآثار والأسرار فإلى الأمام معي أيها القارىء الكريم.

محمد جمال الهاشمي

من أنت؟

وكأنها صاروخ انفجر في وجودي وأحسست بكياني تتطاير شظاياه حتى تغمر عوالمي ومرَّت عليَّ مدة حسبتها آلاف السنين حينما فتحت عيني لأرى العالم مرة ثانية، وعجبت من نفسي كيف أحيى بعدما لمست الموت بكل مناحي وجودي، وهناك تذكرت البعث ويومه الرهيب، فهل أنا في يوم البعث؟ وهل هذه هي حياتي الثانية؟

ورحت اتطلع إلى إخواني وأحدق بصري في السماء وفي الأرض مستعرضاً مشاهدها، فرأيتها هي هي لم تتغير، وإن كنت أحس في نفسي التغير فأنا اليوم غيري بالأمس، قطعاً انني أحس بأنفاس الحياة تلفح كل عضو من هيكلي، إن هذا الإحساس جديد جداً، إنني لم أشعر به قبل يومي هذا أبداً، فما هو هذا الإحساس إن لم يكن إحساس الحياة الثانية؟ حياتي بعد موتي؟

وكانت رجَّة اهتزت لها أجزائي كلها، وتطلعت مرة ثانية إلى الآفاق استعرضها من جديد، فرأيتها هي هي وإن كانت ألوانها جديدة في نظري، إنها ألوان تؤثر في النظر بل تؤثر في أبعد من النظر تؤثر في الروح، ما هذه الحالة؟

وكان سؤال يصعب عليَّ جوابه، لأنها حالة لم أعهدها في حياتي قبل يومي الجديد، وهنا أجابني صدى علاء آفاقي: بأنك وُلدت من جديد.

وكان الجواب أصعب من السؤال، فما معنى قوله: بأني وُلدت من جديد؟

فهل هو البعث المُنتظر؟ وانبثاقي فيه هو الولادة الجديدة.

وأجابني الصدى: بأن وعيك الجديد هو ميلادك الجديد، إن الغافل عن نفسه معدوم في نظر النفس وعالمها المسحور.

وتحيرت في هذا الوعي الذي دخلت بفضله عالم الوجود، فما هو؟ وما لونه وطعمه؟؟

وهنا دوَّىٰ في ضميري الصوت الأول:

من أنت؟؟

واعترتني الحالة الأولى لكنها كانت أخف أثراً وأرفق بوجودي من المرة السابقة.

وبفضل هذا الرفق رحت كالصدى أردد الصوت في ضميري: من أنت؟

من أنا؟؟

وطبعاً لا يطلب من هذا الصدى الردَّاد عنواني الشخصي لأن طلبه لا يوجب الاهتمام به مني أبداً، فلي من محيطي أكثر من معرّف يعرض عليه شخصيتي، ولكنه يطلب مني شيئاً أجهله تماماً، فمنْ أنا؟

فهل هذه (الأنا) هي لي؟ فمن أين تلقيتها؟ ومتى؟ وكيف تلقيتها؟

أنا.... إنها كلمة تلمسني استقلالي بذاتي عن غيري.

فهل أنا مستقل بذاتي؟

وكيف حصلت على هذا الاستقلال؟

إنني لا أهضم مصطلحات علم النفس الجديد، ولا استسيغ نظريات (فرويد) في دراسته للنفس الإنسانية إنها دراسات يحتاج تركيزها إلى ألف برهان وبرهان، وألف تجربة وتجربة، فلذلك عدل نظري عن اتباع مذهبه النفسي.

فكيف أعرف نفسي، وأصل إلى حقيقة هذه (الأنا)؟

إن التفكير في هذا الموضوع يبعث في روحي نشاطاً ويقذف

في قلبي نوراً، وفي وجودي طاقة جديدة من الحياة، إن هذا التفكير عجيب في مفعوله، انه ينسيني آلام حياتي التي كانت تغمر آفاق حياتي كلها، فلأكثر منه. لأن علاجي الوحيد الذي فيه ألطف أجواء حياتي قوى أجزاء وجودي، إن التفكير نفسه يحل نفسه بنفسه، انه يدعونی لأن أصفي نفسي من هذه الأعاصير الهائجة، فأسمع ضميري يرسل هذه الأنغام الحية ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

إن أمواج هذه الأنغام تكتسح خواطري كلها فتذوب فيها مشاعري كلها، وإذا بنفسي تقرأ لنفسي: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

فلأسر في الأرض، في معارض الأرض من السهول والجبال والأودية والبحار وما تحتويها من الآثار والأخبار، وهكذا راح وجودي يسير في الأرض بفكري، بينما كان هيكلي مستقراً في مكانه يسير في الأرض فيشاهد فيها ما لا تشاهده العين، ويسمع منها ما لا تسمعه الأذن، ويلمس بها ما لا تلمسه اليد، ويذوق منها ما لم يذقه الفم.

إنني أحس بكل عناصر الإحساس في وجودي أحس معانياً لم أكن أحسها قبل رحلتي الجديدة، إنني أحس بها سّر الحياة، وبإحساسي سر الحياة أحسست بسرّ نفسي، ورحت أقترب رويداً رويداً من كنز (من أنا؟).

إنني أكاد أن أفهم (منْ أنا؟) أنا. فلتسقط (أنا)... فإن هذه الأنا حجبتني عن (أنا) وهناك صاح ضميري تسقط (أنا)... (تا)... فردَّدت عناصر وجودي...؛ تسقط، وحينما أسقطت (أنا).

من وجودي غزتني أشعة غريبة لم أتذوقها في أشعة الكواكب من شمسها وقمرها ونجومها إنها أشعة عطرة فاحت على قلبي، فصحا بمسكره فيها، وعقلي فسكر من صحوه بها، وعلى علمي فحلق إلى ما لم تصل إليه مبادؤه ومقاصده.

اليقظة

فاحت على قلبي. فإذا به كتلة نورية تخرق الحجب بأضوائها السحرية، فيحس القلب بأنه منْ الحب وإلى الحب، أنه منبثق منْ الحب ومندفع إلى الحب، إن الحب أوجده لنفنى في الحب، والفناء في الحب عين الوجود.

وفاحت على عقلي، فإذا به طاقة جبارة من الإدراك، طاقة تكتشف أن العقل لم ينبثق إلا من الحياة، ولم تبعثه الحياة إلا لكي يحارب الفناء العابث في عوالمها، ولا يمكن التغلب على الفناء إلا بمعرفة سر الحياة، ومعرفة السر لا تستحصل إلا بوعي العجز عن المعرفة..

فاحت على علمي، فإذا به يشعر بأنه أعمى يسير في متاهات الجهل المطلق، يسير إلى اللاغاية، يسير في محيط دائري منه يتبدىء وإليه ينتهي.

وهكذا أحسست بعد سقوط (الأنا) بأني عاجز عن كل شيء عاجز عن وظيفة القلب، لأني قد شحنته بالحزازات والعداوات، وعاجز عن وظيفة العقل لأنه مغرور بطاقته الموهومة، وعاجز عن وظيفة العلم لأنه يؤمن بعجزه وقصوره، فماذا أفعل؟

وهناك سمعت ضميري يهتف بي، إن من الشعور بالنقص يبتدىء الكمال، فما دمت تشعر بنقصك فإنك تسير في مسالك الكمال.

وهكذا راحت خطواتي الفكرية تتابع في هذه الطريق المجهولة، تتابع إلى مقصد مجهول معلوم، وكانت أول امارة ظهرت لي من المقصد هي شعوري بالعجز، وبأن العاجز لا يدعي لنفسه الاستقلال، فإذا لم أكن مستقلاً في ذاتي فمنْ الذي يسعف ذاتي بعناصر الحياة؟ وما هو موقفي من هذا المنقذ المسعف؟

وهنا اعترتني هزة لذيذة، شعرت بأني أنتقل من ذاتي إلى ذاتي، فأنا غير مستقل في إدارة هذه الذات، إن لي مدبراً يجهز لي وسائل الذات، ولا شك بأن هذا المدبر يسيطر على ذاتي لأنه يسيطر على وسائل تجهيزها بالذاتية، فهو يسيطر عليَّ لأني مندك في ذاتي، فإذا كان يسيطر على هذه الذات فهو يسيطر عليَّ قطعاً، فأنا الآن في قبضته لأن ذاتي في قبضته، وزادت رعشات كياني بهذه الخطوة الجديدة وكأني أسير في طريق مكهرب، وهنا سمعت ضميري يردد هذه الأنشودة:

وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة.

ورحت أعد مواهب هذا المسعف، فإذا بها قد تتناهى في نظر طاقتي المحدودة، إن هيكلي وحده يحتوي على تجهيزات وجودية لا تتناهى في حساب وجودي المحدود، فكيف يكون موقفي من هذا المنعم العظيم؟ ورحت أوازن بين موقفه وموقفي، فإذا بي أكاد أن أشق الأرض لأحجب وجودي عنه، لأنه يتوالى عليَّ بنعمه، ويتوالى عليه عقوقي، فما حيلتي معه، إنَّ كل شعرة في بدني تقف وهي

خجلى من موقفها مع هذا المنعم العظيم، فهل يمكن تدارك هذا العقوق؟!

وأحسست بخطواتي تتقدم إلى الأمام كما ظهرت لي أمارة ثانية تدل على اني أسير في الطريق الموصل إلى المقصد المنشود، ورحت أدقق الميزان، ميزان موقفه مني وموقفي منه، وميزان حياتي التي ذهبت في الغفلة، وحياتي التي بقيت لتواجه اليقظة، إن الميزان يخوفني جداً، فهو يبعث اليأس المرير في وجودي، وأكاد أنتحر من هذه النتيجة القاتلة.

إن ما مضى مني أكثر مما بقي مني، فكيف أتدارك الماضي بالمستقبل، إنني كتلة من اليأس من المستقبل، كما أني كتلة من الألم من الماضي، ومع ذلك فلأقم بحسب الدستور المشهور (لا يُترك الميسور بالمعسور) فلأتدارك ما يمكنني تداركه، وهنا وعيت بأن هذا التدارك أيضاً يحتاج إلى طاقة استمدها منه، فما أتقدم به إليه ليس إلا ما اجتديه منه فماذا أفعل؟ وكانت صدمة أليمة لم يرتفع أثرها إلا بهمس من الضمير ينبهني فيه بأن أجرة هذه الإسعافات ليس إلا الاعتراف بالعجز عن تأدية أجرتها.

لقد وُلدت من جديد... وتغلغل هذا الاعتقاد في كياني حتى غمر وجودي كله، وأحسست بأني أشاهد الحياة لأول مرة، فكيف أعيش بها؟ وما هو البرنامج الذي قررته الحياة للعيش فيها؟ انني أجهل كل شيء فماذا أفعل؟ وممن أتلقى دروسي الأولى في مدرستي الجديدة؟ وهنا رن جرس الضمير ينبهني بأن الوجدان أبرع أستاذ لمدرسة الحياة، فلأستوحي منه الدستور، ولأستعلم منه المجهول، ولاتخذ من توجيهه دليلاً إلى الغاية المنشودة.

التخلية من الرذائل

وكانت أول آية أنزلها عليَّ وحي والوجدان هو تنزيه حياتي من أوضار الماضي القذرة، إذن فأنا اليوم لا زلت متصلاً بأمسي الذاهب ومعناه انني ما زلت محتفظاً بصورتي السابقة، وكل ما تغير مني هو الإطار فقط، فأنا لا زلت «محمد جمال الهاشمي» بينما كنت أعتقد بأن هذا الهيكل قد تلاشى وحل محله هيكل آخر، ولكن وحي الوجدان أفهمني بأني أنا هو ذلك الإنسان المتعنون باسم «محمد جمال الهاشمي» وما دمت أنا هو...، فلي تكاليف أخر يجب عليَّ القيام بها قبل أن أعرض صورتي في الإطار الجديد... إنني ما زلت أنوء بأثقال شخصيتي القديمة، تلك الشخصية التي أخجل من عرضها أمام الوجدان. فماذا أصنع لكي تنمحي تلك الشخصية فتحل محلها شخصية أخرى أحوج ما تكون إليها حياتي الجديدة.

ومحو تلك الشخصية إنما يكون بمحو مشخصاتها، فالشخصية إنما تظهر بالمشخصات، فما دامت المشخصات موجودة، فأنا ما زلت أعيش في قوقعة تلك الشخصية، وأن أهم مشخصاتها هي هذه الملكات الفاسدة التي تغلغلت في كياني، والتي كان من جرائها أن سجلت الحياة لي هذا التاريخ المؤسف.

إن الجشع جشع الظهور والبروز، وجشع الإكثار من زخارف هذه الحياة الزائفة، تلك الزخارف التي لا يتمكن على تحصيلها منْ كان مثلي إلا من طريق الكذب والخيانة، الكذب على الحقيقة، والخيانة بالواقع. إن دعاواي الفارغة التي كنت أسندها إلى ألف دليل فارغ والتي كانت ولا زالت تظهر في مناحي تشخصي، إن تلك الدعاوى لم تكن إلا لطخات سوداء عفنة في ملامح حياتي، فماذا أفعل لكي تزول هذه البقع النابية من صورتي وحقيقتي؟

إن زوالها من الصورة لا يتحقق إلا بإعادة الصورة مع ما هي عليه من الخطوط والألوان، وإن من ألوانها الزمان، فهل يمكنني إعادة الزمان لأغسل منه هذه الأقذار؟ إن الماضي لا يعود، فكيف يمكنني أن أزيلها ما دام الظرف الملازم لها لا تناله أسبابي ووسائلي..

الندم على ما مضى

إنني أعتقد بأن صحة المستقبل لا تتحقق إلا بتعقيم الماضي، والماضي لا تمتد إليه وسائل التعقيم، فكيف أحافظ على صحة المستقبل، فهل يمكنني أن أعيش بلا ماضي، أو أعيش مع المستقبل فقط؟

إنني خجل جداً من الماضي، ان كل جارحة في هيكلي تتألم من ذكريات الماضي، فكيف أدفع عن وجودي هذا الألم القاتل؟

إن قلبي كتلة هائلة من الندم والألم، وأن لساني كتلة هائلة من الاعتذار والاستغفار، وأن كل عضو في بدني يضج مما تركه فيه هذا الماضي الرهيب، إن حالة واحدة من حالات الماضي تكفي لأن تحرمني من امتاع المستقبل فكيف بي وكل حالاته تتساوى في القذارة؟

إنني أشك في حالتي الجديدة فهل هي حالة جديدة لا تمت أسبابها إلى حالاتي السابقة؟ أو أنها حالة من تلك الحالات ظهرت في هذه الصورة؟ انني اتهم نفسي اتهم حياتي الجديدة فماذا أفعل؟

إنني أخاف أن يكون هذا التذمر أيضاً من أقسام الدجل الذي كنت أغوص في قذارته، أن الدجل تجارة تكثر أرباحها في أسواقنا الاجتماعية، فهل هذا التذمر من أقسام تلك السلعة الرائجة؟

إنني اتهم ندمي وألمي وتذمري، إنني لا أتمكن على تمييز الألم الصحيح من التألم الزائف، إن ملامح الصورتين واحدة، فكيف أميز بين الصورة الواقعية والصورة المزيفة، انني أريد أن أزيل قذارة الماضي بالتذمر من القذارة، فهل يكفي التذمر في إزالتها؟ وهل يكون تذمري منها تذمراً صحيحاً أو تذمراً زائفاً؟

إنني أعتقد بأن التذمر الصحيح هو الوسيلة الوحيدة لتعقيم الماضي ما دام أن الماضي قد سار إلى ما لا تصل إليه وسائل السير السريعة، ولو كانت تلك الوسائل هي الصواريخ العابرة للأفلاك.

والندم الصحيح هو الاعتذار الصحيح عن الجريمة، وأن القوانين الإنسانية لتخفف أو لتعفو عن النادم الصحيح عن جريمته ولو كانت كبيرة، وهنا همس الضمير في وعيي بأن الإمام زين العابدين قد أشار إلى هذه الحالة وصحتها، كما أشار إلى هذه الحقيقة، وأعني بها حقيقة تعقيم الماضي بالتذمر منه، في صحيفته السجادية بقوله عليه السلام:

(فإذا انفتح له باب الهدى، وتقشعت عنه سحائب العمى، أحصى ما ظلم به نفسه، وفكّر فيما خالف به ربه، فرأى كبير عصيانه كبيراً، وجليل مخالفته جليلاً، فأقبل نحوك مؤملاً، مستحيياً منك،.. إلى أن يقول عليه السلام: وبثّك من سره ما أنت أعلم به منه خضوعاً وعدَّد من ذنوبه ما أنت أحصى لها خشوعاً)[1].

ولا شك بأن خطابه لذلك المسعف العظيم.. للذي أوجده، وبالوجود نال كل شيء، كما أن كل شيء صار بالوجود شيئاً، إن

---

(١) الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام ـ مناجاة التائبين ـ.

الوجود رشح من فيضه المقدس، إنه بالوعي فتح باب الهدى، أو انفتح عليه، ومن باب الهدى أشرف على ماضيه المظلم، فرأى جليل جرائمه، ولمس عظيم جناياته، ووعى حقيقة أعظم من كل ذلك، وعى أن ذاتيته منه، فهو الذي ينفق فيه الذاتية، فذاته في قبضته فهو مطلع على كل غامض من سره وحقيقته، وهنا تنزل عليه الطامة الكبرى، فإن (شريط) ماضيه مستودع في مسجل هذا المنعم، فماذا يصنع؟ وهل هناك حيلة إلا الاعتراف والاعتذار؟ الاعتراف الصادر عن تذمر واقعي، والاعتذار الصادر عن تألم حقيقي.

تطهير النفس من الرذائل

ولا شك بأن الجريمة لها عقابها الخاص، وبأن العفو لا يتحقق إلا في موارد خاصة في القانون وإلا فإن اعتذار السارق عن السرقة مع احتفاظه بالمال المسروق نوع من الكذب الشائن، فإن معنى العذر هو التألم عن الجريمة، فكيف يتحقق التألم مع احتفاظه بأسباب الألم، إن الألم لا يزول إلا بإزالة أسبابه، ولا شك أن التألم غير محبوب لكل إنسان، فكل إنسان يريد الخلاص من ألمه، ولا يتحقق الخلاص مع الاحتفاظ بأسباب الألم، فاحتفاظه به دليل على كذب تألمه، ولذا كان على السارق التائب أن يرجع مسروقاته إلى أصحابها، لتصح توبته من السرقة، وهكذا لو كان لجريمته عقاب خاص في القانون فإن معنى اعتذاره عنها استعداده لاحتمال العقاب، لأنه يعرف أن جريمته لا تتدارك إلا بالعقاب الخاص، ولا فرق في العقاب بين أن يكون مالياً كدفع غرامة خاصة، وبين أن يكون بدنياً، كقبول التأديب القانوني مهما كان نوع ذلك التأديب، لأن ألمه النفسي لا يرتفع إلا بهذا التأديب، والمريض الذي يعرف أن صحته باجتراع هذا الدواء المر، يجرعه وهو مأنوس باجتراعه، لأنه يرى فيه صحته وشفاءه، وهكذا المجرم التائب من جريمته يتحمل العقاب القانوني بلذة

وارتياح، لأنه يرى فيه راحة ضميره واطمئنان وجدانه وهي كل ما يطلبه المجرم التائب.

وهكذا ابتدأ عملية تطهير الماضي بتطبيق مواد القانون على نفسه، تطبيقها عن رغبة وطواعية، بل عن لذة وانتشاء، لأنه يحقق فيها إدراك المستحيل، إدراك تطهير الماضي الذي يستحيل تطبيقه عملياً، ولكن براعة الإنسان وسماحة القانون حققا له هذا المستحيل.

وكما تجري عملية التطهير على جناياته المشهودة، يلزمه أن يجري عملية التطهير على جرائمه المستورة، تلك الجرائم التي غزت آفاق نفسه حتى لوثتها.، وجهمت أجواءها المشرقة.

الصراع بين العقل والجهل

إن النفس الإنسانية ـ ولا نعني بالنفس جانبها الطائش ـ وإنما نقصد منه جانبها المطمئن، والذي تنبعث منه الغرائز الصالحة، إن هذا الجانب من النفس هو مبعث الإنسانية، فالخير والحب والصفاء والرحمة وغيرهما من الملكات الجميلة، تنبثق من هذا الجانب، إن هذا الجانب يعيش أبداً في صراع مع الجانب الثاني، جانب الطيش والبطش الذي تنبثق منه العداوات وينبعث الحسد والخبث والأنانية وغيرها من الملكات الفاسدة، إن النفس الإنسانية مستوطن الحزبين المتصارعين، وبما أن بواعث الجانب الأول تنبثق من لذاذات الحياة المنتشرة في كل مكان، لذلك صار هذا الجانب أقدر على استعمال النفس واستعبادها طوع شهوته ورغبته، أما الجانب الثاني جانب الخير في النفس فإنه يستلهم بواعثه من العالم المستور عالم الروح والحقيقة، ذاك العالم الذي لا يمكن مشاهدته بمنظارات هذا العالم، إنه يحتاج إلى منظار يصدره إليه ذاك العالم، وإلا فإن العيون التي ألفت الظلام تعمى إذا فاجأها النور.

إن عالمنا الذي نعيش فيه والذي تنتشر في أرضه وسماه بواعث الشر وإن من بواعث الشر اتباع الرغبة المكبوتة من ملذات الحياة، فهذا المال وذاك الجاه وتلك الرغبة وهذه اللذة كلها حبائل تنشرها هذه الحياة لتصطاد بها الإنسان من طريق غرائزه السوداء.

إن العداوات لم تنبعث في النفوس إلا من التزاحم على تحقيق الرغبات، وان الحسد لا يتلظى موقده إلا على التنافس في نيل الأوطار والشهوات، وهكذا نرى أن هذه الحياة لا تحتوي إلا على بواعث الشر والفساد، إن الحياة لا ترضى بأن تترك شهوة لمساعدة مسكين، ولا تقبل أن تعاف لذة لإعانة بائس.

ولهذه العلة الظاهرة قلت بأن الجانب المظلم في النفس يتغلب دائماً على جانبها المشرق، لأنه يستمد قواه من هذا العالم، يستمده بوسيلة أعضاء الإنسان البارزة أي حواسه الظاهرة، فالعين تريد أن تشبع من لذة النظر، والسمع لا يملّ من شهوة السماع، واليد لا تتعب من لذة اللمس، والفم لا يرتوي من لذة المذاق وهكذا صارت وسائل هذا الجانب مضمونة في الإنسان نفسه.

أما وسائل ذلك الجانب فإنها لا تتحرك إلا إذا تعطلت هذه الوسائل، لأنها تستمد قواها من عالم لا يستخدم أمثال هذه الوسائل، فاليد التي تمتد لمساعدة الضعيف ليست هي يدك التي تلطم بها رأس ذلك الضعيف، إن اليد المساعدة إنما تستمد قواها من الله بلا واسطة، أما يدك فإنها قد استمدت بقدر الكفاية قواها من الشيطان.

وإن معركة الله والشيطان معركة أزلية ابتدأت مع وجود الإنسان، ولا تنتهي إلا بنهاية الإنسان، والشيطان غمر بوجوده هذا العالم، ففي كل زاوية شيطان مريد، وفي كل مجتمع إبليس عنيد، أما الله فإنه استوى على عرشه المسحور، ومن عرشه ترتد أمواج الأنوار إلى الإنسان لتغمر وجوده ولتوجه غرائزه، ولا شك بأن عالم الله كالله، مستور عن الأبصار، لا تدركه الحواس بوسائلها وإنما

تستنزل رحمة الأرواح بتوجهها إليه وتقربها منه: «**إذا تقرب العبد إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً**»[1] وهذا التوجه يحتاج إلى طاقة جبارة تتغلب على قوى الشر قوى هذا العالم المشهود.

ولا تحصل الطاقة إلا في وعي الحقيقة، حقيقة عالمنا المنظور، فالذي يحس النار لا يدخلها، والذي يرى الهوة لا يرمي نفسه بها، ومتى وعى الإنسان الحقيقة كافح عناصر الشر بالابتعاد عن المغريات، والاجتناب عن الشهوات، ويسوء الظن بكل ما تشير به النفس أو تدعوه إليه الحياة، لأن الجانب المشرق قد جهمه الجانب المظلم حينما تغلبت غرائزه على غرائز ذاك الجانب.

فلذلك نرى الإنسان الواعي يسيء الظن بنفسه، فهو في صراع مع مطالبها ورغائبها، ولا شك بأن الصراع سينتهي بغلبة جانب الخير على جانب الشر، وحينذاك يندفع النور طوفاناً ويثور الحب بركاناً، فيستحيل الإنسان طاقة من النور، وقوة للخير، لا يصدر منه إلا الجميل، ولا يتطلب إلا الجمال.

والوصول إلى هذه المرتبة تحتاج إلى تفهم ناتج النفس، وتفهم الناتج يتوقف على عملية المحاسبة بين الأعمال الخيرة، والأعمال الشريرة، وبين الصفات الحسنة والصفات السيئة، وتمييز الخير والشر والحسنة والسيئة أمر وجداني لا يحتاج إلى توجيه، ولكن الله الرحيم قد سهل الأمر لإنسانه الغافل فبين له بوسيلة رسله وشرائعه مواطن الخير ومواطن الشر، ولم يكتف بالتوجيه فقط بل عزز توجيهه بمشجعات من وعده ووعيده.

---

(١) حديث قدسي.

فلفاعل الخير الجنة، ولفاعل الشر النار، ولا شك بأن نار الشر الدنيوية ستحرق فاعل الشر، قبل نار جهنم، فعذاب الضمير، وتقريع الوجدان أشد على الإنسان من عذاب السعير، وأهوال القيامة.

إن فاعل الشر يعيش في جهنم وهو في دار الدنيا، ويعيش في جهنم وهو في دار الآخرة، كما ان فاعل الخير يعيش في جنة من استقرار ضميره واطمئنان وجدانه وهو في هذا العالم، كما يعيش في روح الله ورضوانه في ذلك العالم، إن كل إنسان يعيش أبداً إما في الجنة وإما في السعير..، ان الوصول إلى هذه الحقيقة يحتاج إلى الوعي من سكرة الغفلة، ومتى صحا الإنسان راح يحاسب أعماله ونياته، فإن رجحت كفة حسناته على سيئاته، سهل عليه الخير إلى المقصد المنشود، وإن رجحت كفة سيئاته على حسناته تعسر عليه الحساب.

ولزمه تصفية حسابه أولاً مع الله والإنسانية، ثم التوجه إلى المقصد، لأن السير إلى الخير لا يتحقق إلا بالتخلص من تبعات الشر تماماً، وان من التبعات «الرضا عن نفسه وعن حاله».

فإن هذا الرضا: نوع من الغرور، والغرور، غريزة آثمة لا يمكنها البقاء مع غرائز الخير والإيمان، ومن الغرور «الاطمئنان بالنفس والإيمان بطهارتها».

إن النفس كما قال الله أبداً: ﴿لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1] فيجب على الإنسانية أن تحذرها دائماً.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾(سورة يوسف: الآية: ٥٣).

لقد كانت نفسي تتماوج فيها هذه المعاني حينما سمعت الضمير يهمس في وعيي: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾[1] والإنابة ليست إلا الرجوع إلى الصواب، إلى الخير والإيمان، فأنا بمفهوم هذه الهمسة المباركة كنت أسير على غير الصراط، ولولا عناية هذا الوعي لبقيت سائراً إلى ما لا يحمد عقباه، ولكن الوعي المبارك هو الذي ردني إلى الطريق حينما ردني إلى الصواب.

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (سورة الزمر: الآية: ٥٤).

أحلام اليقظة

أيها الأرغن الهائم ردد أنغامك الذهبية لترقص عليها العواطف والأحاسيس.

أيها الشاعر الساحر أعد علينا أناشيد السماء لتثير بها أبناء الأرض.

أيها الفجر الفضي أفرش أضواءك على الأجواء، فمن أشعتها تتولد الحياة.

أيها الحادي الهيمان سر بالقافلة، قافلة القلوب إلى عالم الحب المسحور.

أيها الربان الماهر دع السفينة تشق أمواج الحوادث إلى شاطىء الأحلام.

أيها الإنسان الواعي، أيها العاشق العشوق. أيها العائد إلى الحق.

إليك بعثت هذه الأنشودة الحائرة، لتحرقك أمواجها النارية، ولتشكوك ألحانها المخمورة، لتبعث فيك نشاطاً سماوياً يحلق بوجدانك إلى الأفق البعيد.

التفكُّر[1]

فكّر، لتتذكر، فإن الفكر تبعث الذكرى، فكر فالفكر رسول الإنسانية إلى أبناء آدم وحواء.

فكّر. فالفكر روح الله الذي نفخ الطين فكان بشراً سوياً.

فكر. وفيم تفكّر؟

نعم فكّر في الفكر، فإن الفكر المرتجل لا يصل إلى النتيجة المطلوبة.

فكر. في برنامج الفكر، فإن التفكير في البرنامج يوجه البرنامج إلى الفكر، وإذا سمحت لي بأن أوجه فكرك فقد طوقتني بفضل لا يُنسى، وبجميل يُذكر فيشكر، فإني أريد أن أعيد درسي في الحياة على الحياة، فقد أصبحت أنموذج حياتي، فدعني أعيد درسي عليك.

فكّر في الحياة. في هذه الدنيا الساحرة بمظاهرها ومناظرها الساحرة بمعانيها وأسرارها.

---

(١) التفكُّر من أهم الأمور التي تساهم في معرفة النفس وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تفكُّر ساعة خير من عبادة سبعين سنة» وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «الفكر جلاء العقل» وقال عليه السلام: «منْ طالت فكرته حسُنت بصيرته».

فكِّر في الأرض وما تحويه من الكنوز والخزائن، فهي مستقر الحياة، منها تنبت هذه الرياض النضرة، وبها تزهر هذه الورود المعطرة، وهي مستقر الموت، إليها ترجع هذه الأجسام والهياكل على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبها تتساوى المظاهر والعناوين، فلا يتمكن الباحث أن يميز بين هيكل الفيل وهيكل الثور بعدما يضمحلان، أو يميز بين جمجمة العبد وجمجمة السلطان بعدما يطويهما الرمس ويطويهما البلى، فهي هي الأرض. تُميت وتحيي وتُحيي وتُميت، هي الأرض أم العناصر المتناقضة، تلك العناصر التي لا يزال العلم يفتش عنها بوسائله وآلاته، وهيهات أن يستطيع إحصاءها، لأن الإحصاء فرع الوعي، والوعي فرع الاكتشاف، وها هو العلم يتعثر ويتحير في كهوفه، فاليوم يثبت فيها شيئاً يمحوه عنها غداً، إن العلم يعترف بنقصه وقصوره.

فكّر في العلم نفسه وفي حقيقته ومادته، وكيف اختصَّ به الإنسان دون سائر الحيوانات، اختصَّ به مع اشتراكه معها في مخصصات الحيوان، فهو مثلها يجوع ويظمأ، ويتيقظ وينام، وتثور شهوته إلى الأنثى، إنه يسايرها في كيفية الولادة والوفاة، ومع ذلك يمتاز عن الحيوان بالعلم. فما هو هذا العلم؟ وما هو السر الذي اختصَّ به الإنسان. لماذا ابعد بنفسك عن نفسك.

فكّر في نفسك وأطوارها وحالاتها، فقد كنت وأنت نطفة، في صلب أبيك، نطفة لا لون لك ولا طعم، ثم كنت طفلاً يحبو، له ميوله الخاصة، تدعوه فيستجيب لها، وكنت وأنت شاب لك شهواتك الخاصة وهي تباين ميول الطفولة تماماً، ثم صرت كهلاً تتقاذفك ميوله التي تختلف عن ميول الشباب دعوة وإجابة، وستكون

شيخاً يعيش في جو من الميول لا يمتُّ إلى عوالمك السابقة بصلة ما أبداً.

فكّر في هذه الميول المتخالفة، في بواعث تلك الميول، ولو عرفت بأن مادة الميول في كل هذه الأدوار المتخالفة واحدة، وأن الغريزة التي تبعثها هي هي لم تتغير في جميع هاتيك الأدوار، وإنما تتغير الميول نفسها، نعم لو عرفت ذلك لفكرت.

فما هو السر في هذا التغير؟ هل الميول تنطبع في النفس من العالم الخارجي؟ أو هي التي تبني العوالم الخارجية وتنشئها لها؟ أنا لا أدري.

إنني كلما أعلم به هو أن هذه الميول تتبدل في أدوار الحياة تماماً كما يتبدل هيكلك في أدوار حياتك، فإن شكلك في طفولتك غيره في شبابك، وهو في كهولتك غيره في شيخوختك فما سر هذا التغير؟ أعتقد بأنك لو فكرت في يوم واحد من حياتك وما فيه من العوارض والطوارىء، من طلوع الفجر إلى الطلوع الثاني لشاهدت عجباً مستغرباً، فكيف إذا فكّرت في أعوام هذا العمر الطويل، وما حوته من الحوادث والصور، أعتقد بأنك ستجمع منها دائرة مجاهيل يحتاج فهمها إلى دوائر معارف عامة لا تجدها في مكتبات العالم.

وإذا تعب فكرك من التفكير في الحياة فاسترح قليلاً، ثم انتقل بفكرك إلى مدبر هذه المصانع المتناقضة، وفي مدبر هذه العوالم المتباينة وفي سير هذه الحركات المتخالفة.

نعم فكّر في المدبر، فإن المادة الأولى من قانون الفكر «أن تفكّر في المدبر» وإذا اضطربت في نظرك الصور والمرائي فتوجه إلى

القرآن الكريم وانظر من نافذته إلى هذا المدبر، فإنه يشرفك عليه بقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ (سورة يونس: الآية: ٦).

إنه لم يتنزل بالآيات من معارج الوحي إلا للفكر، وبذلك قد صرح بقوله تعالى:

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل: الآية: ٤٤).

إنه يصف المفكرين بالحياة ومعارضها بأولي الألباب، وبمقتضى هذا الحصر ليس من أولي الألباب من لم يفكر فيتذكر، اسمعه كيف يقول تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١﴾ (سورة آل عمران: الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١).

إنه يريد من ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أن لا يتركوا طاقتهم الفكرية عاطلة في آنٍ من آناتِ حياتهم، انه يريد أن يتفكروا في كل حالة لهم، يتفكرون في القيام في القعود في الانطراح، لئلا يمر عليهم العمر عبثاً.

فإن الذاهب من العمر لا يرجع، ومن الظلم أن نترك قطار العمر يتحرك فارغاً من البضائع، بينما لدينا هذا المعمل الجبار معمل الفكر، وهو قادر على أن يشحنه في كل آن بكل ما علا وغلا من المنتوجات الإنسانية.

وإذا ما تعبت من الوقوف أمام نافذة القرآن العالية، فانزل منها إلى كوة النبوة واسترق الحديث من النبي ﷺ فإنك سوف تسمع منه: «**إن تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»[(١)] وإذا التبس عليك فهمه فاقصد وصية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه يحتل طرفاً لامعاً من بيت النبوة، وإنك تتمكن أن تشرف عليه من كونك لتسمعه كيف يحلل هذا الحديث الملتوي ويفسره بقوله عليه السلام: «**لأن التفكر يدعو إلى البر والعمل به**»[(٢)] ثم تراه يحثك على التفكر بقوله عليه السلام: «**نبه قلبك بالتفكر**»[(٣)].

وربما ترتبك في مغزى دعوتي إلى التفكر في مدبر الأكوان والعوالم، وماذا أريد بهذه الدعوة! هل أدعوك إلى التفكر في حقيقة الخالق؟ أو أدعوك في التفكر والتأمل في خصائصه وصفاته.

واني أعطيك الحق في هذا التردد فإني قد أجملت القول في الدعوة إلى التفكر في الخالق. فإن الدعوة إلى التفكر في الذات وحقيقتها دعوة منكرة باطلة، لأنها تريد أن تقود الفكر إلى عالم لا تتناهى أماده، ولا تحد أبعاده، تريد أن تقوده إلى بحر لا ساحل له ولا قرار، بحر متلاطم الأمواج متدافع الأثباج، كاسح التيار، تندكُّ أمامه القوى، وتبيد في أعاصيره الطاقات.

إن الوصول إلى حقيقة الذات مستحيل بالذات كما يشير إليه إمام الموحدين أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله: «**كلما تصورتموه في أوهامكم فهو مخلوق لكم مردود إليكم**»[(٤)] إن هذه الجملة تحل مشكلة

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «فكر».
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) نهج البلاغة.

التفكر في الذات، فإن الذهن الخالق للصور هو مخلوق الخالق الأزلي، وإذا أردنا منه الوصول إلى حقيقة خالقه، فقد أردناه أن يخلقه في صورة من صوره، وعند ذاك يكون المخلوق للخالق خالقاً للخالق. ولكي أجلو لك هذه الصورة لا بأس بأن أنشرها مصقولة مكبرة فأقول:

لا شك بأن الإنسان محدود في عوالمه ففكره وسمعه وبصره وسائر حواسه وأحاسيسه محدودة آثارها وأعمالها، ومن المحقق في محله: إن الله غير محدود في عوالمه، فكيف نريد من المحدود أن يضبط غير المحدود؟ ولقد أشار العرفاء إلى هذه الحقيقة بقولهم: «**إن التفكر في التوحيد جحود للتوحيد**» فإن منْ عرض حقيقته فقد حده وهو الذي لا حد له، ومنْ حدّه فقد جحد أنه لا حد له، فالتوحيد الصحيح هو «**ترك التفكر في التوحيد**»، فالفكر لا يراد منه أن يجول في مناطق الذات المحرمة، وإنما يطلب منه أن يسافر إلى معارض صفاته وأسمائه المنتشرة في كل مكان، إن ما نشاهده في الأنفس والآفاق ليس إلا مجالي للحق في مرائي صفاته.

إنني في استعراضي هذا قد انتقلت إلى عوالم لا أزال أتذكرها، عوالم مررت عليها وأنا في طريقي إلى هذا العالم مررت عليها بفطرتي وحقيقتي لا بهيكلي وشخصيتي، انها ذكريات نفسي المقدسة حينما كانت تعيش في آفاق النور ومعارج القدس، انها ذكريات العالم الإلٰهي، ذلك العالم الذي تنزل منه الإنسان باختياره إلى هذه الدنيا السخيفة، وأعتقد بأن منْ عاش في الجنة العالية، لا تحد في مقاييس الزمان، يستخف العيش في هذه الحياة الدنيا، إن حديثي عن الذات والصفات قد مزق الحجب عني، وأعني بها

حجب الطقوس والتقاليد التي فرضها عليَّ المجتمع العام والخاص، إن الحُجب تنجاب عني فتنبعث من ذلك العالم أشعة جبارة تخرق أغشية الطبيعة، لتعرض على روحي مشاهد وطنها الأول[1]، فتثور وهي تغني:

ما الحب إلا للحبيب الأول

ذلك الوطن الذي غمرته صفات الله وأنواره الحسنى، ورفرفت عليه أظلَّة جماله وجلاله، فأنا فيه بلذة لا تنفد، وأنا فيه بعالم لا تصل إليه وسائل الحوادث، أنا في الجنة، ولا مصادفات فيها، ان الجنة وطن النعم الكاملة، ولذلك ترى فطرتي تستعرض لذائذها حينما تتخلى وتعتزل عن دنياها وحوادثها، تستعرض السماء وهي في الأرض بلذة وانتعاش، وكأنها تنتقل فجأة من الأرض الواطئة إلى السماء النائية في البعد، وحقيقة أنها تنتقل من الجحيم إلى الجنة، إن العزلة جنة الأولياء، فها هي الروح المعتزلة تلمس الأطياف اللذيذة لحواسها وأحاسيسها، فيأخذها العجب فهل ترى الأرض صعدت إلى السماء؟ أو أن السماء نزلت إلى الأرض؟ ان ما كانت تسمعه وتراه وتلمسه في آفاق السماء ها هي تراه وتسمعه وتلمسه في آماد الأرض، ان مظاهر صفات الله تتجلى في معارض الأرض، فهذا النظام الطبيعي الدقيق يعرض لها جلال حكمته، وهذه الألطاف

---

(١) يقول الشيخ البهائي رحمه الله في الكشكول ج١، ص٣٠٥: «التجريد سرعة العود إلى الوطن الأصلي والاتصال بالعلم الفعلي، وهو المراد بقوله ﷺ: «حب الوطن من الإيمان» وإليه يشير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الفجر: الآيات: ٢٧ ـ ٣٠).
وإياك أن تفهم من الوطن دمشق وبغداد وما ضاهاهما فإنهما من الدنيا وقد قال سيد الكل في الكل ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

والأنعام تعرض لها جمال رحمته، وهذه القوى الهائلة التي تدور حسبما يوجهها معمل الأزل تعرض حقيقة قدرته، انها تستعرض في مشاهد الأرض مناظر السماء، انها ترى الله متجلياً في صفاته وهي على الأرض كما كانت تراه وهي في السماء.

سكرت الفطرة بخمرة الشهود، وراحت تترنم بأناشيد السماء، وأناشيد السماء ليست إلاَّ أسماءه وصفاته:

مبدىء الكون لك الكون وما فيه يعود
أنت ما أنت وجود منه قد فاض الوجود
تنطوي في نشر معناك رسوم وحدود
ولآلائك في العالم ألطاف وجود
حيث لولاها لما أخضر من التكوين عود
ولما قام لهذا الفلك السامي عمود

أختم نشيدك أيها الأرغن النشوان فإن الحفل لا يتسع صدره لأكثر مما رددته.

في قفص الاتهام

(١)

جرس يرنّ باتصال، وصوت يتردد في الفضاء ويقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ (سورة الصافات: الآية: ٢٤) هنا محكمة الحقائق، هنا محكمة الحقائق.

تتألف هذه المحكمة من القاضي، والمتهم. والشاكي، والشهود.

القاضي: الوجدان.

الشاكي: الضمير.

المتهم: أنا.

الشهود: جوارح وجوانح.

يسألني القاضي ـ وقد وقفت أمامه بذلّ وانكسار، بينما يقف خصمي بجلال ووقار ـ ما اسمك؟

أنا. «سيد محمد بن سيد جمال الهاشمي النجفي» أحد طلاب الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

القاضي: أعرض شخصك بصراحة دون لبس والتواء.

أنا: عرضت ذلك بحقيقته، إذ لا داعي لي في الاختفاء.

القاضي: إذن أنت لا تفهم ذاتك، إن اسمك الذي أطلقته على نفسك ليس عنوانك الصحيح إن عنوانك الصحيح هو الذي يلازمك في كل زمان ومكان، بينما عنوانك الذي تُسمي به من مخترعات والدك، استحبه في ساعة من ساعات أيامه فأطلقه عليك، كما أن والدك لم يكن إلا آلة صماء في خلقك، لا تتمكن من التقديم أو التأخير في تاريخ وجودك، بينما الأب هو الخالق الذي يتصرف في تاريخ الإيجاد كما يشاء، أما موطنك فإنه مثل أبيك وعنوانك مزيف أيضاً، فإن وجودك ساعة الميلاد في «النجف» كان بنحو من المصادفة، ولو فرض أن أمك كانت ساعة ميلادك في الجزائر لكنت جزائرياً لا نجفياً، بينما الوطن هو الذي لا يتمكن ساكنه من الانتقال عنه.

أما ادّعاؤك طلب العلم فهي دعوى مضحكة، فإن الدعوى لا بد وأن تظهر بملابسات تعتمد عليها، بينما دعواك فارغة من كل الملابسات، إن طالب العلم له مميزات ومشخصات تفقدها كلها، ولذلك كانت دعواك هذه أفرغ من دعوى العنوان والوطن.

أنا: فمنْ أنا يا سيادة القاضي؟ عرفني نفسي، فإن رهبة المحكمة أنستني حتى نفسي.

القاضي: أنا أيضاً متحير في حقيقتك الملتوية، إن كلّما تحمله مستعار زائف، إن قسمات وجهك وخصائص وجودك، وعناوينك الشخصية والاجتماعية كلها طلاء يزول بمرور العمر كما يزول طلاء الجدار بمرور الزمان، فأنت والجدار في زيف الصورة سواء، وربما كان يمكنني أن أنسبك إلى الزمان لو كان الزمان باقياً، لكنه يزول كما تزول مشخصاتك، فأنت من أنت؟ وما أنت؟

دعني أتذكرك، فإن التذكُّر يرشد التفكُّر، أنت عبد الشهوة، والشهوة مملوكة الغريزة، والغريزة تديرها الحياة، والحياة تبعثها الروح الخالدة، والروح تختص بالله، فأنت أنت عبد الله بموجب هذا التسلسل.

وربما كنتُ مخطئاً في عرضي لك، فإن من ينتمي إلى الله بالعبودية لا بد وأن تكون فيه سمات العبد، وأنت تتبنى الحرية في كل شيء، ولذلك تراني متردداً في نسبتك إلى الله بالعبودية، ولكن لا مناص من تعريفك بهذه النسبة.

وربما أمكنني أن أعرض صورتك على نفسك بإطار آخر، أنت تمتاز عن غيرك من العناصر بالإرادة والاختيار، فكل ما في الكون يجري إلى مستقره ومستودعه بلا أن يكون له في جريانه قصد ولا إرادة أبداً، بينما تجري إلى ما تريد وكما تريد، فأنت تمتاز على غيرك بخصوصية الاختيار، والذي يميزه الاختيار عن غيره يُسمى بالإنسان، فأنت إنسان لا غير، إن الإطارين يعرضان صورتك الحقيقية للناظر، فهما يلازمانك في كل أدوار حياتك، يلازمانك ساعة ميلادك ويلازمانك ساعة موتك، يلازمانك مهما اختلفت بك الأزمنة والأمكنة، ومهما تباينت فيك الأزياء والصور، فأنت عبد الله في كل فصول حياتك، وأنت إنسان في كل أدوار عمرك، فإذا عرفت ذاتك فهلم معي وأجب على دعوى خصمك بوضوح وبيان:

يدعي هذا الواقف أمامك بأنك خنته ولا زلت تخونه في كل حكم وموضوع، فهو كما يقول: شريكك في رأس المال الذي تتاجر به في حياتك، وقد انفردت بالتصرف فيه تعمل به ما تشاء كأنه لك وحدك لا شريك لك، بينما هو يشاركك في كل بضاعة تعرضها حياتك.

أنا: مولاي القاضي اني لا أعرف هذا الخصم الشاكي، ولم أره في طيلة أيام حياتي، حتى أحسبه شريكي في مكاسبي.

محكمة الضمير[1]

الضمير: ـ وهو يتوجه إليَّ ـ أنت لا تعرفني؟ أنت لم ترني؟ سجلي اعترافه أيتها المحكمة العادلة لكيلا ينكره كما أنكرني.

القاضي. للضمير: هل لك بينة تثبت شركتك مع هذا الخصم المنكر؟

الضمير: اسمح لي يا سيادة القاضي لأعرِّفه بنفسي أولاً، ثم أقيم لك البينات المشرقة.

يتوجه الضمير إليَّ وقد توترت عروق وجهه واحمرت، وكأنها تريد أن تقذفني بدمائها الثائرة، إني أعرفك بنفسي في أيام لا تنساها أتذكر يوم تسابقت فيه والأستاذ... في موضوع شعري اقترحته لجنة من أصدقائك، وقد سبقك في الإجادة والإبداع، بيد أن اللجنة راعت صداقتك معها فأرادت أن تعطي حكمها في جانبك وأنت تعلم أن اللجنة تخون الفن والحق في حكمها لك، وأرادت نفسك منك أن تترك اللجنة وعملها الخائن لولا أن رأيتني أعرض عليك

---

(١) في أعماق الإنسان قوة أودعها الله تعالى لتنبه الإنسان وتؤنّبه على عمل السيئات وقد أطلق عليها الفلاسفة اسم «العقل العملي» ويسميها القرآن الكريم بـ«النفس اللوَّامة» ويصطلح عليها المعاصرون بـ«الضمير» و«الوجدان».

نتيجة الحق وأنك ستهدم كياناً إنسانياً عاماً لمصلحتك الشخصية، فأطعتني وطلبت من صديقك أن لا يخالف الحق والفن في حكمه، وكان لعملك صداه الرداد في المجتمعات الأدبية والإنسانية؟

وأتذكر أيضاً يوم حاولت أن تخون الأمانة التي استودعها عندك صديقك... تخونها وتدعي ضياعها أو سرقتها، وكنت تعلم أن تلك الأمانة كل ما يملكه الصديق المعهود، فإذا هضمتها فقد هدمت حياته وحياة عائلته الكبيرة، وهناك صوَّرت لك النتيجة المترقبة منك ومن صديقك، فرأيت نفسك لصاً حقيراً يسرق مال صديقه العزيز، ورأيت أعز أصدقائك في حالة بائسة يائسة، أنت كنت السبب فيها، فخجلت مني، واستحقرت نفسك، وتركت ما كنت مقدماً عليه؟

هاتان صورتان من مئات الصور أقدمهما لك كشاهدي تعريف لعلاقتنا، فإذا اكتفيت بهما، وإلا فسأقيمه لك معرضاً يعج بالصور المثيرة لحياتك المشرفة.

أنا: عفواً يا أخي اني تذكرتك، فأنت ذلك الأخ المساعد لأخيه في عشرات المواقف الفاشلة، واني حين أنكرتك كنت مسحوراً بهذه المحكمة الرهيبة، وبقاضيها الجبار.

الشهود: العين تقول بلا كره سجلي ما أرسله إليك من حوادث هذا اليوم الرهيب.

الضمير: ـ إلى القاضي ـ أسمعت كيف أصبحت أخاه المساعد بعدما كنت غريباً عنه لم يرني طيلة أيامه وأعوامه، ألمست الإقرار بعد الإنكار، لكني أستميح المحكمة أن تتناسى هذه الجريمة فلا تسجلها عليه لأن الارتباك يبدو لنا من كل حركاته وسكناته.

القاضي: ـ وهو يلتفت إلى الضمير بغضب ـ ليس لك أن تنفي أو تثبت شيئاً من الأحكام، إن ذلك من شؤون المحكمة. إن الإقرار بعد الإنكار جريمة قانونية لها غرامتها وجزاؤها.

الشهود: القلب يهمس للدماغ هذا ما كنت أحذره في الحياة، إنك بقياساتك الباطلة حطمت أحاسيسي وعواطفي وأوقفت صاحبنا هذا الموقف المخزي.

أنا: ما أنا أيُّها القاضي إلا بشر كالناس أتأثر بالمناظر، وإن مشاهد هذه المحكمة التي تكشف السرائر وتهتك الأسرار، إنها أروع محكمة تقيمها الإنسانية على هذه الأرض، ان ما تتركه شخصية القاضي في نفس المتهم يكفي لأن تزلزل كيانه وتهد قواه ولذلك تراني ذاهلاً حتى عن شخصي المعلوم المجهول، إن ما لمسته ذاتي من ذاتي في هذا اليوم يكفي لأن يغير نظرتي إلى ذاتي ثم إلى العالم، انني ولدت من جديد، وهل يعاقب ابن يومه على هفوة أوزلة أو إثم؟ انني معذور في أقوالي وأعمالي لأنها تصدر مني دون أن تكون لي فيها إرادة ولا اختيار.

القاضي: هب إنا عفونا عن هذه الجريمة وتناسينا إقرارك بعد إنكارك، فماذا نقول في دعوى هذا الواقف أمامك؟

أنا: لم أعرف دعواه بعد، وكل ما استفدته من موقفي هذا اليوم أنه يدعي مشاركته لي في شؤون الحياة، ولا أدري عن أي شؤون حياتي يتحدث؟ أيقصد بها شؤوني الاجتماعية التي جاهدت وحدي في تحقيقها وغامرت بأيامي وأعوامي حتى وصلت إلى ما وصلت إليه؟ أم يقصد بها شؤوني المالية؟ انني يا سيادة القاضي أشكر الله على أني لا أملك من حطام الدنيا أكثر من القوت اللازم،

وحتى قوتي اللازم لا يتأتى لي إلا بالديْن والاستعارة، أم يقصد بها شؤوني المنزلية؟ هل سمعت بإنسان يتخذ شريكاً له في زوجته وأولاده؟ انني متحير في دعواه، ولذلك أرجو من المحكمة أن تطلب منه بأن يوضح لي هذه الشركة وجهاتها فعسى أن أتذكرها.

القاضي: ـ للضمير ـ لا مانع لدى المحكمة من توضيح غموض دعواك للمتهم.

الضمير: إني أشكر المحكمة على موقفها المشرف من هذه الدعوى الملتوية، ومن هذا الخصم الذاهل، إنني أعرض شركتي وحدودها لهذا الخصم، فعسى أن يفيء إلى الحق، ويذعن للعدالة الإنسانية، ويرجع لي الحقوق المهضومة.

وهنا يلتفت الضمير إليَّ ويخاطبني بلهجة ساحرة: قل ليَّ يا صاحبي من أين تكوّن وجودك الإنساني، وبماذا تتميز عن غيرك من الناس؟ وأعتقد بأنك ستجيبني بأن لك سمات خاصة تميزك عن غيرك بعينيك وأنفك ووجهك، وطولك وعرضك، وسائر الآثار البارزة في بدنك، وفكرك وقلبك وشعورك وإحساسك وسائر الآثار الخفية في وجودك هي التي تميزك عن غيرك وتجعلك تعيش في دنيا خاصة بك.

وهنا أسألك: هل لقلبك كما لعينك ولفكرك كما لسمعك دعوات واستجابات، وهل للقلب آفاق خاصة يعيش فيها، أعتقد بأنك لا تستطيع تجاهل تلك الآفاق والحدود، فإنه كما تتألم الحواس الظاهرة فيك من مشاهد ومناظر خارجية تحس بها وبما فيها من الصور المشجعة، كذلك القلب يرتاح ويتألم من المشاهد والمناظر التي تعرضها عليه دنياه في حدودها وآفاقها.

وهنا استفسر منك بأنك هل تدري بماذا يرتاح القلب ويتألم؟ ومن الذي يريحه ويؤلمه؟ فيريح الخواطر والذكريات ويؤلمها؟ أعتقد بأنك لو راجعت مذكرات حياتك لتعرفت به، ان منْ يزعج القلب ويؤنس الخواطر هو أنا أيها الأخ العاق، انك إن استجبت لإيحائي وسرت في الطرق التي أوجهك إليها تعيش وأنت مرتاح القلب والخواطر، وإن عاكستني في توجيهي تعيش منزعج القلب والخواطر وكأنك مجرم ينتظر السجن والعقاب، فهل عرفتني وعرفت حدود شركتي أيها الأخ العاق والشريك الخائن، وهل آمنت بأني أشاطرك حياتك في كل مكان وزمان.

وهنا يلتفت الضمير إلى القاضي ويقول: كفاني تعريفاً لنفسي ولأتوجه إليكم بدعواي وأطلب منكم تحقيق العدالة الإنسانية، أطلبها وأنا أعتقد بأن المحكمة قادرة على تحقيقها.

سيدي القاضي: إن هذا الواقف أمامك قد خانني، وغصب حقوقي، وأنكر وجودي، فهو (وأنا شريكه في رأس مال حياته) يعيش وكأنني غير موجود معه فهو ينكرني في البيت فيأمر وينهى ويعتدي ويستسلم ويغضب ويرضى بلا أن يلتفت إليَّ وإلى تحذيري، وهو في السوق يغش ويزيف ويطفف مكاييله وموازينه، وهو في المجتمعات يتظاهر بحب الإنسانية، وبصحبة الضمير (أي بصحبتي أنا)، ويهتف بسقوط الظلم وبحياة العدالة، بينما هو يعادي العدالة في أعماله وآرائه، ويتابع الظلم في تصرفاته وأحكامه، انه بعيد عني في كل شيء، ظالم لكل أحد حتى لأهله وأولاده.

وهنا يرتفع صوته حتى يصل إلى حد الصراخ، ويستمر في خطابه للقاضي بتلك اللهجة الصارخة وقد مزجها بالنشيج: أنصفني

يا سيادة القاضي، وخذ حقي من هذا الظالم القاسي، فقد لاقيت منه ما لا يصبر عليه حتى الجماد، أنصفني وارجع لي حقوقي المغصوبة.

الشهود: يلتفت كل عضو إلى آخر بأنه صادق في كل دعاواه.

القاضي: ما جوابك على هذه الدعاوى؟

أنا: سكوت. وانكسار. وخشوع ممزوج ببكاء.

القاضي: أجب على أسئلة المحكمة وإلا فسأنفذ فيك أحكام القانون حرفياً.

أنا: صمت نشيج يرتفع رويداً رويداً حتى يغمر المحكمة.

القاضي: وهو يلتفت إلى الأعضاء: إن جلستنا تنقلب سرية لنتشاور في الحكم على هذه الدعوى المستغربة وتختم الجلسة.

(٢)

بعد مرور ثلاث ساعات على المشاورة أعيدت جلسة المحاكمة كما كانت بأعضائها وشهودها.

وافتتح الجلسة سيادة القاضي بقوله: إنكَ أيها المُتهم مُصاب بداء وبيل صعب العلاج، وإن جريمتك ترجع أسبابها إلى الأدواء المتغلغلة في وجودك، ولذلك قبل أن نطبق عليك أحكام مادة هذه الجريمة قرَّرنا أن نعرضك على الطبيب الأخصائي بهذا اللون من المرض، فإن قرَّر ما قرَّرناه، وطبعاً يكون قراره بعد إجراء الفحوص والتجارب الطبية عليك، نعم أن توافق قرارنا وقراره نكتفي بعلاجك حسبما يراه الطبيب المعالج، وإن وجد أنَّ الباعث على الجريمة هو حب الإجرام الناشىء عن الشذوذ الطبيعي في أمثالك من نوادر البشر، فإن لك أحكاماً خاصة نجريها عليك، وإن كان الباعث هو سوء التربية الراجع إلى المحيط والبيئة، فإن لك أحكاماً خاصة أيضاً نطبقها عليك؟؟

وهكذا ساقتني المحكمة إلى عيادة طبيب نفساني راح يجري عليَّ تجاربه وفحوصه ثم قرر رأيه في مرضي، وأنه ناشىء من سوء التربية الناشىء من فساد المحيط والبيئة.

ولما عدت إلى المحكمة مشفوعاً بقرار الطبيب التفت إليَّ القاضي وقال لي: إنك مريض بالعدوى، إن الجو الذي كنت تعيش به كان متسمماً بالأهواء، ولما كنت قد تنفست فيه راحت سمومه الفتاكة تنفذ إلى طبيعتك السليمة فتسممها، ولذلك يلزمنا أن نخرج السم منها، وان عملية إخراج السم وإن كانت قبلئذٍ تجري بمشقة مزعجة، ولكن العلم قد سهل صعوبتها بوسائله الجديدة، وأول ما يجب عليك القيام به هو الحرب من نفسك المسمومة، لئلا يتأثر بها سائر أنحاء وجودك، إن النفس الإنسانية، تتأثر بالمحيط الذي تعيش فيه بسهولة وقد تأثرت نفسك بجو حياتك فنفذ السم إليها شيئاً فشيئاً حتى غمرها، فهي الآن كتلة من السم يتأثر بها كل من يدنو إليها فعليك أن تفر منها.

أنا: كيف أفر يا سيدي القاضي من نفسي؟ وإلى أين أفر؟ وهل لي مجال أعيش فيه وحدي من دون نفسي؟

الالتجاء إلى الله تعالى

القاضي: وقد ارتاح من سؤالي: نعم يمكنك أن تفر من نفسك وتعيش إنساناً لا نفس له، أما المهرب الذي نفر إليه هو الله، وقد دلّك إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، إن الله هو الملجأ الوحيد الذي يمكنك أن تعيش فيه بلا أن تزاحمك النفس بوساوسها وأهوائها.

أنا: كيف أفر إلى الله؟ أرشدني إلى وسيلة تمكنني الفرار من نفسي إلى الله.

القاضي: إن الفرار من النفس لا يتحقق إلا بموت النفس، وموتها بقطع وسائل الحياة عنها، ومواد حياتها تنفيذ أهوائها وإطاعة أوامرها، خالفها في أهوائها واستمر على المخالفة حتى تضعف طاقتها وتضعف إلى أن تفنى، ومخالفتها لا يمكن إلا بعد أن ترفع عن بصيرتك غشاوة الجهل بنور العلم، فإن العلم يرشدك إلى طرق الفرار بأضوائه الهادية المنبعثة من مؤلفات العلماء وأحاديثهم، إن العلم أقوى من الهوى، لأنه يسير في النهار المشرق، والهوى يتخبط في الليل الحالك، والنور يبدد الظلمة، فالعلم أقوى من الهوى، فإذا تمكنت من هوى النفس فكبحته فقد تمكنت من نفسك لأنها لا تعيش إلا به، فإذا قطعت مادة حياتها عنها فقد أفنيتها، ومتى أفنيتها

فررت إلى الله الذي سيعصمك بظله عن الحوادث، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١٠١).

أنا: يا سيادة القاضي هيىء لي وسائل الفرار إلى الله والاعتصام به لكي أتخلص مما أنا فيه، وسوف أبقى أذكرك بالشكر ما بقيت حياً.

القاضي: إن محكمتنا قد هيأت لك تلك الوسيلة، فقد صدر قرارها بإحالتك إلى مدرسة الأحداث، لتربيك بوسائلها الصالحة الصحيحة.

أنا: كيف أنتمي إلى مدرسة الأحداث وأنا قد تجاوزت الأربعين، من عمري.

القاضي: إنك لم تزل طفلاً حدثاً بالرغم من مرور هذه الأربعين انك طفل في ملكاتك وغرائزك، ورب طفل وهو شيخ كبير في آرائه وأفكاره، انك طفل حدث جداً، ولذلك نحيلك إلى مدرسة الأحداث نختم جلستنا.

الشهود: ـ بعض لبعض ـ كنا ننتظر عقاباً أقسى من هذا الحكم، ولكن المحكمة أبصر بأعمالها من غيرها.

في مدرسة الأحداث

خرج بي دليلي من البلد حتى وصلنا إلى ناحيته الشمالية، وإذا ببناية واسعة الأطراف كثيرة المباني والمشتملات تشرف جوانبها الأربعة على حدائق بل رياض غناء، تتخللها أربع شوارع فارهة تصل بالسالك إلى باب من أبواب المدرسة، وفي وسط كل حديقة قد أحدثوا بركة صناعية تتلاءم هندستها ووضع الحديقة، وقد رصفت الكراسي الفارهة حولها، كما انتثرت الكراسي في سوح الحدائق الأربع بأسلوب جذاب.

استقبلنا هدوء مسكر ممزوج بجو عاطر وبهجة ساحرة قبل أن يستقبلنا دليل المدرسة، ودليل المدرسة كهل مشرق الأسارير جميل الطلعة باسم الثغر، راح يوجهنا إلى ديوان المدرسة الذي يشغله المدير، والمدير شاب يشارف الأربعين تفيض من ملامحه الحيوية والنشاط كما تفيض منها المهابة والروعة، انه رجل يفرض شخصيته الحبيبة على مصاحبه مهما كانت شخصية المصاحب.

قال لنا: (وهو يمد يده فيصافح كل واحد منَّا والابتسامة الساحرة لا تفارق شفتيه) قال لنا: إن هذه المؤسسة منكم وإليكم، أنها ثمرة جهود رجالاتكم الذين ثابروا على مصارعة الأحداث القاسية حتى تمكنوا أن ينشئوا هذه البناية بوضع فني يتلاءم وذوق

الجيل، ان مدرستنا نتاج أفكار نيرة أرسلت أشعتها على القرون والأجيال فاخترقت حجبها الكثيفة تفتش فيها عن مناطق الضعف والقوة في الإنسان وهو يعبر التاريخ حتى استوعبت كل نواحيه، وهناك راحت تضع تصاميم مدرسة تربي الإنسان على الإنسانية الحقة، وذلك من طريق تربية غرائزه وملكاته، إن مدرستنا هذه مدرسة عملية قائمة على التجارب، وربما كانت تجاربنا في أول وهلة يلاقيها التلميذ قاسية مؤلمة، ولكنه لو استمر على دراسته لاستمرأ قساوتها ولاستعذب ألمها.

قال له دليلي: إنه مرسل من محكمة الحقائق لتقبلوه تلميذاً فرض عليه التهذيب.

فابتسم المدير وقال: إن التهذيب الإجباري لا يعطيك النتيجة المطلوبة، ان التهذيب إنما ينتج إذا كان وليد شوق من التلميذ للتهذيب، إن الحب أهم مقدمات العمل فمنه تنبعث الإرادة، ولولاه لما أنتج عمل ولما تحقق أمل.

وهنا توجه إليَّ وقال: هل تحس بكراهية مقيتة لهذا الحكم الذي جرَّك إلى دخول هذه البناية ومصاحبة أمثالي من الناس؟

قلت له: اني وإن أجهدتني المحكمة في أسلوب محاكمتها ولكنها قد سرتني بالنتيجة، هذه النتيجة التي كنت أتطلبها منذ وعيت لنفسي، وأدركت بأني إنسان يمتاز عن الحيوان في حقيقة ذاتية هي التي تفصل بينه وبين دنيا الحيوانات.

قال لي: ـ وقد اتسعت ابتسامته ـ إذن تدخل المدرسة وأنت في يقظة إنسانية، اني أرحب بك باسم الهيئة التدريسية واستقبلك كأستاذ يستقبل تلميذاً ينتظر له مستقبلاً باهراً في التربية الإنسانية.

ثم قال لي: إذن سجّل عنوانك الكامل وارخه بيوم انتسابك إلى المدرسة، وسأعرضه على الهيئة المشرفة التي إليها يرجع فضل إدارة هذه المؤسسة الجبارة، وسيأتيك البريد بالجواب المبشر قريباً إن شاء الله تعالى.

وخرجت من المدرسة وقلبي لا يود مفارقتها، وقصدت أهلي وأنا أترقب البريد في كل ساعة من ساعات الأسبوع حتى وصل إليَّ كتاب القبول، وهو يعين تاريخ الدوام، وشروط المدرسة على التلميذ في وضعه وهيئته، وهكذا ذهبت إلى المدرسة وأنا مجهز بكل ما طلبه مني كتاب القبول.

استقبلني المدير ـ كما استقبلني يوم جاءت بي إليه المحكمة ـ استقبلني بابتسامته الساحرة، وأشار عليَّ بالجلوس على كرسي جانبي في ديوانه، وطلب مني الانتظار حتى يفرغ من وظائفه المدرسية، وبعدما أتمها كما يريده الواجب، قال لي: اتبعني وسار بي إلى غرفة داخلية لا تحتوي إلا على كرسي واحد ومنضدة، واحتل المدير الكرسي وأبقاني واقفاً أمام منضدته، وبعد فترة قصيرة.

ذكريات الطفولة

قال لي: حدثني عن أمضّ حادثة مرت عليك في حياتك، وحدثني عن ألذّ مصادفة لك في تاريخك، واشرح لي عن أحاسيسك في القضية الأولى، وعن شعورك في القضية الثانية.

قلت له: إن امضّ قضية مرَّت عليَّ أو مررت عليها، والتي كلما تذكرتها خجلت من نفسي، واشمأززت من شقاوتها، هي أني كنت صبياً ناشئاً تجمعني وصبيان الشارع ألاعيب كنا نقضي أوقات الفراغ فيها (وطبعاً أقصد بالفراغ الفراغ من المدرسة وأتعابها) وكان فينا صبي فقير أبله، أو الفقر جعله يتباله أمام الصبيان ليكسب رحمتهم، ولكنها الطفولة وعالمها الجاهل، فلقد كان الصبيان يزدادون ضراوة كلما ازدادت بلاهة الصبي وذلته، وفي يوم من أيام الصبا رأيت الصبيان يجتمعون على ذلك الطفل الفقير يصرفون معه الوقت بلعبة مجرمة، انهم كانوا يشتركون في ضربه وتتسابق الأيدي في صفعه، والطفل المسكين صابر بينهم يتحمل ضربهم الموجع، حتى برموا بصبره فضربه شقي منهم بحديدة كانت في يده فشج رأسه وسالت دماؤه ودموعه معاً، وكأنما كان بكاؤه رمزاً لانتصار الصبيان، إذ راحوا يكثرون ضربه وهو منطرح على الأرض يبكي ويضطرب من الألم وهم يحيطون به يضربون ويضحكون، ورأيت

نفسي تدعوها هذه اللعبة اللعينة للاشتراك فتستجيب لها فترتفع يدي لتهوي على رأس الصبي المجروح المطروح، وكأني أقوم بلعبة عادية، إلا أن نظرات الصبي إلى يدي وتحسسه رأسه وكأنه يريني موضع الضربة، ارجعني إلى نفسي فأوجع ضميري، فوجمت من حاله وعملي، وجمت وأنا أتجرع من التقريع ما لا تهضمه قواي، ورجعت إلى البيت وأنا في ذلة وجدانية وفي تألم من تلك الجريمة القاسية، وإني لا أزال كلما أستعرض هذه الحادثة أخجل منها، ويعود ضميري إلى الألم وشكايته من تاريخي المظلم.

وأمَّا ألذَّ قضية مرَّت عليَّ في حياتي، فهي أيضاً ترجع إلى عهد الطفولة، ومن المستغرب أنها مع الصبي نفسه فقد اشترى لي أبي حذاءً جديداً، طرت به فرحاً ورحت إلى الشارع أتبختر به أمام الصبيان، وكأني أريهم منزلتي الجديدة في حذائي الجديد، وقد كان الصبي المعهود معهم، وبالطبع أصبحت محط أنظار الصبيان ونظراتهم، فمن قائل وهو ينظر إلى حذائي: إنه من النوع الرخيص، ومن قائل: إنه لا يناسب هذه البدلة التي تلبسها، ومن قائل: كفاك تبختراً، وهل هو إلا حذاء حقير، كلهم كان يعلق على حذائي بما يحب ويكره إلا ذلك الصبي، فقد رأيته يجتنب الصبيان ليوقف نظراته الجائعة على حذائي، وكنت أعتقد أن كل نظرة له تعقبها حسرة، فتألمت لحاله جداً ورجعت إلى البيت لاطلع أمي على حالة الصبي الفقير، وعلى شيء آخر لا يتناسب وسن الطفولة: أخبرتها بأني أرغب من كل قلبي أن أتنازل عن حذائي وعن لذاتي لهذا الفقير، واني سوف تكون لذاتي أكبر وأكثر حينما أراه يخطو أمامي بحذائي التي آثرته به على نفسي، ولقد قبلتني أمي وأرسلتني إلى

الطفل لألبسه حذائي ولأراه يتبختر به أمام الصبيان لتتساقط عليه نكاتهم المستملحة، إن هذه الحادثة ما ذكرتها إلاَّ وشكرت الله على ذلك الإيحاء المبارك، وعلى ذلك العمل الكريم.

المدير: أجدت في العرض والإخراج، فقد ألمستني من نفسك ما كنت أروم لمسها بوسيلة آلاف الوسائط النفسية وتلك براعة أدبية تساعدك على النجاح في حياتك الجديدة، ولكننا لما كنا في موقف الاختبار والامتحان، علينا أن نبحث عن بعض النقاط القابلة للبحث في هاتين الصورتين، ولذلك ألقي عليك بعض الأسئلة من طريق الاستفهام على أن تجيبني عليها بوضوح وبيان.

هل كان اندفاعك إلى اللطمة عن باعث نفسي أو خارجي؟؟ بمعنى أنك هل شاركت الأطفال في لعبتهم اللعينة بتحريض من الأطفال؟ أو بدافع من نفسك؟؟ هل أحسست بلذة نفسية حينما كنت تلطم الطفل؟ أو كانت حالتك آنذاك خالية من الإحساس والشعور؟ هل كان تألمك بعد الحادثة عن تعنيف خارجي منشؤه انتقاد الأطفال، أو عن تعنيف داخلي نفسي؟؟

أنا: لم يبعثني على لطمه تحريض خارجي، كما لا أقدر على وصف الباعث النفسي على ذلك، وكلما يمكنني القول به في هذه الحادثة المؤلمة هو أني شاركت أندادي في لطمه وربما كنت ساعتئذٍ بلا حس خاص، أو كان حب اللعب هو الذي دفعني إلى تلك الحادثة، أما التألم النفسي الذي اعتراني بعد الحادثة فلم يكن نتيجة تعنيف خارجي، أو خجل موضعي منشؤه الخوف من عتاب أبويه أو عقاب أبوي، وإنما كان تألماً نفسياً طغى على كياني فهزه، حتى برمت بنفسي ووددت لو فقدت الحياة قبل الحادثة.

المدير: أحسنت في تصوير أحاسيسك تصويراً شعرياً، ولا عجب فإنك أنت الشاعر الشهير، الذي رددت أناشيدك الشفاء والقلوب، ولأجلو لك غامض هذه الحاسة وأعني بها حاسة مشاطرة الصبيان تعذيب ذلك الصبي البائس، إن المشاطرة كانت استجابة اليد لدعوة النفس، فإنها شاهدت المعركة فاستنفرت غرائزها وودت لو تشاطر الأطفال لذة تعذيب المظلوم، فأشارت إلى اليد فارتفعت بلطمة تأثر بها وجه الصبي الفقير، واني أعذرك على عدم إدراك هذه الحساسة، فإنها من المواضيع المعقدة في علم النفس، وسوف تدرس هذا العلم الجليل وتصل إلى هذا الموضوع وهناك تنجلي لك مجملات كلامي هذا.

إن النفس الإنسانية عالم زاخر بالحقائق الغامضة، والتي حارت بها الأفهام، وجالت في ميادينها الأقلام، ولا تزال الأسس العلمية في هذا البحث الملتوي يهدم بعضها بعضاً، دعني أهنئك على نجاحك في الاختبار وسوف تنتقل مؤقتاً إلى الصف التمهيدي، حيث تتعلم فيه الاصطلاحات النفسية، وتتعرض لأساليب الاختبارات والدروس العملية، واني أرجو أن تنتقل إلى الصف الأول بأقرب فرصة سانحة، لأن لك شعوراً إنسانياً وأن لك وجداناً حساساً، وضميراً واعياً لم تتمكن الغرائز الحيوانية أن تمنعه من الفعالية، وذلك من خصائص الشعراء الواعين، فإن عاطفتهم الإنسانية تتغلب على غرائزهم الحيوانية.

اختبار الإنسان لنفسه

وهكذا دخلت الصف التمهيدي، وقد كانت الدروس الأولى فيه تجري على أسلوب امتحان المدير فهي أسئلة من الأساتذة وأجوبة من التلاميذ، ونتائج يقررها مجلس الأساتذة، حتى إذا ألقي عليَّ هذا السؤال.

قال الأستاذ ـ وهو يوجه حديثه إلى كل فرد من التلاميذ ـ: هل تتمكن من كبت شهوتك إذا ثارت عليك، وتهيأت لك وسائلها الخارجية، من دون أن تخشى منها ضرراً أو تفقد فيها منزلة؟ وبأسلوب أصرح تصور نفسك مع أجنبية في محل مأمون من المراقبة، وهي تدعوك إلى الحرام مجاناً، هل تتمكن من ضبط نفسك وأنت على مثل تلك الحالة؟

أنا: أمهلني لأتصور الحالة النفسية في مثل ذلك الموقف الحساس، ثم أعطيك الجواب الصحيح الصريح.

الأستاذ: أنا لا أطلب منك الجواب السريع، فإن هذه الأسئلة الدقيقة تحتاج إلى إجراء عمليات نفسية قبل البت بالجواب.

أنا: أشكرك على أسلوبك الرائع في توجيه الفكر إلى حل المواضيع المعضلة، وسوف يأتيك جوابي غداً إن شاء الله تعالى.

وفي البيت مثلت القضية على مسرح الخيال، وعرضتها على النفس، فإذا بها تعترف بأنها لا تنمكن من الثبات في مثل تلك المزالق الحساسة ومن الصبر عن مثل تلك الثمار الشهية، وهكذا أجبت الأستاذ فشكرني على الصراحة والجرأة، وألقى عليَّ السؤال الآتي:

هل إذا دعاك الواجب إلى ما فيه خسارة مادية، من دون أن تكسب منه ربحاً مادياً أو معنوياً أبداً فهو لا يزيدك مقاماً ولا يرفه عنك ضيقاً في البيت أو في خارجه أبداً، وكلما هناك أن الوجدان فرضه عليك، فهل تقوم به أو لا؟ أجب على سؤالي بدقة وروية. وكما استمهلته على السؤال الأول استمهلته على السؤال الثاني أيضاً، وكما مثلت الصورة الأولى على مسرح الخيال مثلت هذه الصورة أيضاً، وكما كان الجواب الأول سلبياً، كان الجواب الثاني سلبياً أيضاً، وكما شكرني الأستاذ أولاً شكرني ثانياً، وقال أجب على سؤالي الثالث بدقة أيضاً:

وهو: هل إذا لاقاك رجلان أحدهما له مكانته الاجتماعية، وعنوانه الضخم، وثانيهما رجل عار من كل مكانة وعنوان، بل ربما كان مبنوذاً من المجتمع، وموصوماً بلطخة عار سوداء، وصادف أنهما سألاك إعانة ما، وأنت في حال لا تتمكن فيها من الإجابة عن السؤالين معاً، قل لي: لأيهما تمنح تلك الإعانة؟ هل تمنحها للرجل المعنون الذي يتمكن من تحقيق غايته بسؤال الإعانة من غيرك حيث يتشرف بإجابته؟ أو تمنحها للموصوم الذي لا يحق له السؤال من أحد، فإذا تجرأ وسأل فلا يتنازل أحد للنظر إليه فضلاً عن جوابه؟ فكر في مواقف السؤال، وأجب عنه بصراحة ودقة.

وبعدما مثلته وسبرت نواحيه في البيت، أجبته بأني لا أمنحها إلا لصاحب العنوان، وإن كان الموصوم في فقدها حياته، وشكرني الأستاذ على هذه الصراحة.

وقال لي: بأنك مريض (بالرجة النفسية) وهو مرض يتفشى في سائر مجتمعاتنا، وهو الذي أودى بمجدنا الحي، ومزق صفوفنا المرصوصة، وجعلنا متبعثرين في القوى والأخلاق، فكل له طقس ومحيط، إن الأديان الإلٰهية لا تدعو إلا لتحرير الفطرة الصالحة من أغلال الطقوس والعادات، فإنها هي التي تميل بالإنسانية عن منهجها اللاحب بوساوسها وتلبيساتها وأوهامها، وسنعالج هذه الرجة الخطرة بمستحضرات اكتشفها الأخصائيون في العلاج النفسي.

مخالفة الهوى

إن أول درس، وأهم توجيه ألقيه عليك هو سوء الظن بإيحاءات نفسك، فإنها كما قيل في حقها: مجبولة على الشر، لا توجه صاحبها إلا إلى المفاسد والشرور، فإذا صادفتك مشكلة في حياتك وحاولت حلها فإما أن تراجع بها الشريعة الإسلامية التي تتكفل بحاجيات الإنسانية على مختلف أذواقها ومشاربها، أو تتحرر من حركتك الموهومة وتؤمن بأنك عبد مراقب يرعى الله أعمالك كما يدرك نياتك، وهل تخفى عليه خافية في الأرض أو في السماء؟؟؟

فأنت لا تتمكن أن تتخلص من رقابته، كما وأن له نظراً مستقلاً في مشاكلك وطرقاً خاصة في حلها، فأنت لا تتمكن على وعي المشكلة ولا على حلها إلا من طرقه المعينة، فإذا استوعبت هذه الحقيقة، وأنك لست حراً في فهم الحياة كما يشتهيه ذوقك، ولا أنت حر في حل مشاكلها على الأسلوب الذي ترتئيه، وإنما أنت فرد من أفراد هذا المجتمع الذي يديره نظام خاص ويسير به قائد عام.

فإذا أدركت هذه الحقيقة أمنت شر النفس ووساوسها، فإنها لا تتمكن أن تدنو من هذه المناطق المحرمة على أمثالها من المتهمين، وان قواها الأرضية لا تساعدها على العروج إلى هذه الآفاق

المقدسة، فإذا رأتك واعياً بنفسك رجعت عنك خائبة خاسرة تترقب منك فرصة أخرى تنتقم فيها منك ومن إيمانك الجبَّار.

الإيمان بالله تعالى

إن الإيمان بالله، والإيمان بأنه يراقبك في كل زمان ومكان لا يتحقق إلا إذا سلبت اعتمادك عن غيره، وجمعته فيه، فما دمت تعتمد في شؤونك على غير الله، فأنت بعيد عن منطقة الإيمان الخالص.

فإن معنى الإيمان الاطمئنان، والإيمان الخالص لا يحصل إلا بتوحيد الطمأنينة، وتوحيدها لا يكون إلا بسلبها عن غيره وتسليمها إليه خالصة من الشوائب.

وإذا اطمأن الإنسان بالله، وآمن برعايته ورقابته، أمن شر الناس، وأمن الناس شره، لأنه لا يرجو أحداً ليزاحم رجاءه رجاء آخر، انه يرجو الله فقط، وهو لا يخاف أحداً ليرتكب في سبيله ما يزاحم مصالح الناس، انه يخاف الله فقط.

إن الشرور لا تثور إلا من الخوف والرجاء، فإذا ابتعد عن هاتين المنطقتين أمن شر الناس وأمن الناس شره، لأنه لا يزاحمهم على أعمالهم ليعارضوه، ولا يقف في طريق آمالهم ليرجوه، إنه يعيش في دنيا مستقلة، ويجاري نظاماً آخر لا تزاحمه نظم المجتمعات الأرضية، إنه نظام السماء القائم على الاعتماد على الله والخوف منه فقط، انه في واد والناس في واد آخر.

ومتى حصلت له ملكة الإيمان، انحلت أغلب العقد النفسية،

وأبل من أكثر العلل الروحية، فإنها أكثر ما تنشأ من الخوف والرجاء، فإذا ارتفع الخوف والرجاء من الناس، فقد زال الحسد، وتلاشى الحقد، وانقرضت النميمة، وماتت الشهوة المحرمة وهكذا تتلاشى أغلب الملكات الفاسدة من وجوده ويبقى مكانها شاغراً للملكات الصالحة.

وسكت الأستاذ، وقد غاب في سكرة لا شعورية طواه عالمها المسحور، ثم انتفض وهو يعتذر ويقول: إن هذه الحالات تعتري أغلب المعاكسين لمشتهيات النفس، لأنها وإن صرعتها بسوء ظنك وخالفتها في أهوائها وقلصت ظلها عن قلبك وعقلك، لكنها لا تزال هي كما كانت هي هي نفسك، ولا تزال تخزك بأشواكها كلما سنحت لها فرصة بذلك، وفرصتها غفلتك عنها، ولما كنت مستغرقاً في عرضها وعرض حالاتها لكم، غفلت عنها فإذا بها تهاجمني بوساوسها وتحاول أن تجذبني إلى ناحيتها، وتبعدني عن النواحي التي ما وصلت إليها إلاّ بعد صراع طويل معها، نعم توسوس لي بأني مظلوم في هذا المجتمع الفاسد. مظلوم لأني علاّمة في علم النفس لي مركزي العلمي في هذا المجتمع، فلماذا يهضم المجتمع هذا المركز؟ ولماذا لا تقام لي الاحتفالات التكريمية، حيث تعرض فيها آثاري العلمية؟ إن المجتمع يظلمني وأنا أخدمه، لماذا لا أعقه كما عقني؟ ولماذا لا أنصرف عنه كما انصرف عني؟ وكانت هذه الأفكار الناشزة، والوساوس النفسية تموج في وجودي بينما أنا ألقي عليكم محاضرتي وحينما التفت إلى نفسي وإلى شراكها الجديدة كنت قد تدهورت عن منزلتي الروحية فتحاملت على نفسي حتى استقمت، ثم نفضت فكري عن تلك الوساوس وخرجت من شراك النفس وأنا

متعب مكدود، ولذلك سكت مدة كنت أستمد فيها القوة من عقلي وإيماني، وأسوق بوجودي حتى أوصلته إلى مركزي الأول.

وهنا التفت إليَّ وقال: اني أنذرك بأن تتأهب لرحلة يتوقف طولها وقصرها عليك، فإذا تكاسلت في سيرك فقد أخرت قافلتك، وإذا أثرت عزمك وأبرمت أمرك فقد تقدمت الزمان بسيرك.

في هدير العاصفة

قال لي المدير ـ وقد باكرته مع الفجر، وأنا مجهز بوسائل السفر، احمل العصا التي أوصاني بحملها ـ قال لي: عليك أن تسافر وحدك بلا رفيق يخفف عنك وعثاء السفر، فإن أهم شرط في هذه الرحلة هو خروجك وحدك من دون رفيق يصاحبك في الطريق.

ثم ناولني كراسة، وقال: إن فيها خريطة سفرك، وعليك أن لا تتجاوز الخطوط التي توضحها الكراسة، وإلا فإنك ستظل في صحارى لا ماء فيها ولا كلأ، واحتفظ بعصاك فإنها ستمدك بقوة تريح أعصابك المتعبة، لاسيما وطريقك لا يمكن اجتيازه بوسائل الركوب، فلا تعبره الدابة. ولا تسير فيه السيارة، بل وحتى الطيارة لا تتمكن من اجتياز فضائه، فإن الخرائط الجوية لم ترسم بعد خطوط السير في هذه الصحارى الموحشة، ولذلك أوصيك بالاحتفاظ بهذه العصا، فإنها المساعد الوحيد الذي يمدك بعونه في هذه الرحلة المدهشة.

خرجت إلى الصحراء وأنا أطالع الصفحة الأولى من الخريطة، وسرت على العلامات التي أشارت إليها الكراسة في الطريق، وقد كان سيري في اليوم الأول خالياً من العوائق والمتاعب، وفي الليل توسدت حجراً في ظل شجرة برية تمكنت أن تعيش وتنسي أغصانها

وحشة الصحراء، ولما بزغ الفجر، وكم كان رائعاً في عيني ـ والفجر في الصحراء له جلوة فاتنة، فإنه النور الوحيد الذي تراه العين في أفق السماء ـ نعم لما بزغ الفجر وقمت من نومي لأؤدي فرائضه وأدب في تلك النواحي على ضوء تعاليم الكراسة وكأني كرة من الصوف تدحرجها الريح في ذلك البر الأقفر، سرت وحيداً في تلك الصحراء، أتعثر بحصاها، وأغوص في رمالها، وقد أثرت بي الوحدة، فعاودتني أفكار قاتمة كانت تبدو أضواء الأمل الذهبي الذي أسير عليها إليه.

ولقد كان الجو مضطرباً في ذلك اليوم، ان الريح تشتد وتشتد، وإن الرمال تتحرك في الصحراء، وكأنها أمواج تدفعها العواصف في بحر لا ساحل له، وإن الأفق قد علته غشاوة أخذت تتكاثف فيه، ما بال الطبيعة في هذا اليوم؟! انها غضبى! وربما كانت غضبى عليَّ، لأني لم أخشع لجلالها الأزلي في معبد هذه الصحراء الرهيبة، إن الريح تتجاوز حدودها الطبيعية فتكاد أن تكون عاصفة هوجاء، وإن الرمال لتكاد أن تبني حولي نطاقاً من الذرات، وإن الجو ـ آه من الجو ـ إن الجو يكاد يحجب الشمس ويمنع نورها من الانسياب إلى آفاق الحياة بل إن النور قد انطفأ، وإن الشمس لا أثر لها ولضوئها في هذا الجو المعصوصب، ربَّاه ماذا أفعل؟

أأنتظر هدوء العاصفة وبزوغ الشمس؟ أم أثابر على سيري وسفري، وليكن ما يكون، واستمددت القوى من العصا ورحت أخرق سد الرمال وأتخبط في طريقي من دون أن أرعى وضع السماء أو أراعي حالة الأرض، وسرت قليلاً ـ وكأني سرت طويلاً ـ والرمال ترميني بقذائفها الذرية، والظلمة ـ آه من الظلمة ـ تهاجمني

بأشباحها المرهبة، وأنا وحيد في تلك الطرق الغريبة عن شعوري بل والغريبة عن لا شعوري أيضاً.

وأخيراً أقعدني الضعف والتفكير، فجمعت نفسي ودفنت رأسي في حجري لأبعد عن عيني أشباح الظلمة، ولأدرأ عن وجهي ذرات الرمال، وهناك هاجمتني الصور، فإذا بتاريخي القديم يعرض لي روايته المضحكة المبكية، وبتاريخي الجديد يمثل لي قصته الغامضة، وبمستقبلي يتراءى لي وكأنه صورة مطموسة، كنت أفكر في نفسي، فقد أقامت العاصفة بيني وبين الناس سداً لا يخرقه حتى الفكر، وغمرني حزن أليم، حزن على الماضي المضاع، ذلك الماضي الذي هد قواي، وبدد شبابي، وأفلسني من رأس مالي في الحياة، وما أنا ذا ـ وأنا في دور الكهولة ـ أفيق على حياة مضاعة، وقوى لا تقوى على حمل الأعباء، آه لو كانت يقظتي في عهد الشباب وقوته الخارقة، لتمكنت على حمل الأعباء ومكافحة أهوالها بلا تلكؤ ولا توقف، ولكنها الكهولة وعهدها الكسول، فهي التي جعلتني أتهالك وحدي في مثل هذه الصحراء، وفي مثل هذه الحالة المزعجة.

الحزن

وأخذ حزني يشتد ويشتد كلما اشتدت العاصفة، واشتدت العتمة، إن حزني يكتسح كياني ويهز نفسي، إنه يدور حول ذاتي فقط، فوضعي قد قطع العلائق بيني وبين غيري، فلا أفكر إلا في نفسي فقط، هذه النفس التي ضاعت وأضاعت أيامي، وفوّتت عليَّ فرصاً لا يمكنني تداركها أبداً، إن اللوم يقع على نفسي فقط، فهي المسؤولة عن هذه الخسارات، آه لو كنت أفقت في عهد الشباب، آه لو لم تفتني فرصة الحياة.

وهنا أحسست برغبة تحثني على التسلية بمراجعة الكراسة، وإذا بها تنقلني من عالمي المؤسف إلى عالم الأنس والمسرة، فهذا الإمام الصادق عليه السلام يحدث أصحابه: «**بأنَّ الحزن شعار العارفين**»[1].

ولا شك بأن معرفتي حالتي هي التي أثارت الحزن على حالتي، وهذا القرآن الكريم يوجهني إلى ما يسليني ويرفع بواعث الحزن عني، إلى دنيا تجد الحزن فخراً يتباهى به صاحبه، فهو يحدثني عن نبي الله يعقوب ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ

(١) ميزان الحكمة: مادة «الحزن».

إِلَى ٱللَّهِ﴾ (سورة يوسف: الآية: ٨٦)، فلأتوجه بحزني إلى من توجه إليه نبي الله يعقوب، لأتوجه بحزني إلى الله، فهو الذي يرفعه برفع بواعثه، وهو الذي يسايرني مع يعقوب في حزني، ويعقوب له مكانته المرموقة في دنيا الخالدين، وهو الذي يرفه عن حزني بالثناء على الحزن، وبأنه حالة كريمة تستحق المدح والثناء، أسمعه كيف يعرض حزن المجاهدين الذين لم يجدوا في المعسكر الإسلامي سلاحاً للجهاد، أسمعه كيف يعرضهم في أسلوب الثناء بقوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ (سورة التوبة: الآية: ٩٢).

ولكن مالي شططت بأحلامي عن الواقع، وصعدت بمقامي إلى رتبة الأولياء والأنبياء.

منْ أنا حتى أساير تلك الصفوة من البشر، وهل أنا إلا ذلك المجرم الذي يحاول أن يتدارك جرائمه بهذه الرياضات النفسية، ألست أنا الذي يهرب من المجتمع الصالح كما يهرب السليم من الأجرب، نعم أنا. أنا ذلك المجرم، فكيف أتعالى بنفسي إلى زمرة الصفوة.

الخوف

وهنا اعتراني خوف شديد، اعتراني خوف من الماضي وأشباحه السود، واعتراني خوف من المستقبل الغامض وصوره المضطربة، ذلك المستقبل الذي يجب علي أن أدفع فيه غرامات الماضي، رباه ماذا أفعل؟ إنني في صحراء موحشة كهذه الصحراء، وقد اكتسحتني عاصفة أقوى من هذه العاصفة، رباه ماذا أفعل؟

لأراجع الكراسة فعسى أن أجد فيها ما يدفع عني هذه الصور الموحشة، وإذا بها تسليني بالحديث الوارد عن النبي محمد ﷺ: «**إن المؤمن بين خوفين، خوف ما مضى، وخوف ما بقي**»(١).

وإذا بالإمام الصادق عليه السلام يحدث وكأنه يخاطبني: «**إن الخوف رقيب القلب، ومن كان بالله عارفاً، كان من الله خائفاً**»(٢).

فلأوجه خوفي إلى ما يرفع عني الخوف، لأوجه خوفي إلى الله لأحشر في زمرة من عرف الله، ألست أدعي الفرار إليه، فلماذا أفكر بالزمان الفاني، وبالمجتمعات المتلاشية، دعني أفكر في الوجود الخالد، وفي الحياة الأبدية، دعني أفكر في خوفي من الله، فعسى

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الخوف».

(٢) المصدر نفسه.

أن تشملني طمأنينة هذه الآية الكريمة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (سورة النحل: الآية: ٥٠).

ومرَّت عليَّ نسمة باردة لم تلبث أن لفتها عاصفة سوء الظن بالنفس، أيكون توجيهي الجديد من وسوسة النفس وأفكارها الشيطانية؟ منْ أنا حتى أطمع بهذه المنزلة؟ وبماذا أرجو البلوغ إلى هذه الدرجة؟ أبأعمالي المخزية؟ أم بمعاكستي المتوالية للحق؟ أأنا أطمع أن أكون من المؤمنين ليكون خوفي خوفهم؟؟؟

الإشفاق

وهنا حرت في نفسي وفي توجيهها، بل اعترتني حالة (الإشفاق) عليها، فإنها وهي المجبولة على الأهواء المجنونة والميول المجرمة، هي جزء من كياني، بل هي الجزء المتحرك من كياني، ومع ذلك فكل خوفي من حركتها هذه، فإنها لا تتحرك إلا إلى الشر، ولا تنزع إلا إلى الجريمة، فماذا أفعل بها؟ هل يمكنني اقتلاعها من وجودي ورميها بعيداً عني؟ أيمكنني أن أنساها؟ وهي التي تسكن بين جنبي ولا تفارقني ما دمت أنا أنا، رباه ارحمني، رباه ارحمها، فإن رحمتك تدفع عني وعنها هذه الأوباء والأهواء، وانشر ظلك البارد علينا، ليخفف عنَّا هذه اللواعج المحرقة.

وهنا تذكرت الكراسة فراجعتها وإذا بها تحشرني في زمرة أهل الجنة، حين يسألهم أهل النار عن سبب استحقاقهم للجنة، فيجيبونهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (سورة الطور: الآية: ٢٦).

وطبعاً مشفقين على أنفسهم لئلا تستمر عللها، مشفقين عليها لئلا تجرفهم أهواؤها.

الخشوع

وهنا اعتراني خشوع رهيب أنزله عليَّ التفكير الطويل، فإذا بي أتصبب عرقاً، برغم من هبوب العواصف، إن هذا الخشوع قد خلصني من سلسلة أفكاري المرهقة، وأطلقني من سجنها الرهيب، أطلقني في عالم يشغله الله ويغمره بصفاته وتجلياته، فكل ما فيه موسوم بطابع الله وكل ما به ومن به مشغول بحمد الله، وهناك رأيت نفسي تستحيل موجة تتهدهد في ذلك البحر الهادي فتطويني أثباجه القوية، وإذا بي أردد هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (سورة الحديد: الآية: ١٦).

وهناك رفعت رأسي من حجري فوجدت الأفق يبتسم لأشعة الشمس الضاحية، كما وجدت الطريق واضح المعالم، فأسرعت إليه وأنا في قوة جديدة تحملني إلى المقصد المنشود بسرعة ونشاط، حتى بلغت النهاية التي شخصتها المذكرة وقمت بالوظائف التي قررتها، وبقيت المدة التي حددتها، وقد كنت في جميع ذلك مرتاح الروح نشط الأعضاء.

في الصف الأول

رجعت إلى الوطن من طريق الرواح، رجعت إليه بسهولة، فلا الأهوال المفزعة، ولا الأنواء الجوية، ولا العواصف الكاسحة، ولا الصور المخيفة، كل تلك العقبات التي كانت تعوقني عن المسير اضمحلت وتلاشت عن طريقي، فكأنها لم تكن فيه أبداً، رجعت إلى الوطن بنشاط جبار وقوة قاهرة، وكانت المدرسة أول مكان زرته في عودتي، وكان المدير أول منْ استقبلني فيها، وكان ينتظرني بالباب، وسار بي إلى محل إدارته باحتفال وتكريم، وهناك رأيت الهيئة التدريسية تستقبلني بارتياح مشهود، فالبسمات تتناثر عليَّ، وكأنها النجوم تنتثر في طريقي، والعبارات الترحيبية تحيط بي وكأنها هالات من النور تستدير بي.

ولما استقر بي الجلوس، سألني المدير: أن أصف لهم رحلتي والأحاسيس التي بعثتها في روحي، وشرعت ألقي عليهم محاضرة عن رحلتي، فكانت العبارات تترى في بياني وكأنها قذائف صاروخية يرسلها مدفع جبار، الأمر الذي جعلني أشك في نفسي وهل أنا اليوم كما كنت أمس، ما هذه البلاغة الساحرة؟! إنها الوحي، إنها الإلهام، ولما فرغت من خطابي، وقف المدير فهنأني على السلامة وعلى النجاح الرائع الذي صادفته في رحلتي، والذي سيؤهلني

للدخول إلى الصف الأول بالرغم من قصر مدة الدراسة في الصف التمهيدي.

وقال: إني لأعزي هذا النجاح المبكر إلى التربية التي تلقاها من بيته وبيئته، فإنه قد نشأ في عائلة روحية تلتزم بالأحكام الشرعية والمواضيع الإنسانية وإن للتربية الأولى أهميتها الكبيرة في توجيه الغرائز فكما يكون للتربة أثرها الفعال في تربية البذرة ونموها، فكذلك للتربية البيئية أثرها المحسوس في تكوين الغرائز وتهيئة الحواس لقبول الملكات الصالحة، والتربية هي التي مكنت هذا التلميذ من أن يقوم بهذه الرحلة الخطرة، وأن يجتاز عقباتها الصعبة في هذه المدة القصيرة، وهي خطوة جد كبيرة في دنيا التربية، تبشرنا بنجاحه الرائع.

وتقدم إليَّ أحد الأساتذة بعدما أكمل المدير خطابه، وسألني أن أصحبه إلى الصف الأول، ليرشدني إلى مكاني الخاص بي، وهناك تعرفتُ على فئة من الناس فارقوا الناس في أوضاعهم، واتصلتُ بجماعة من المحيط انقطعوا عن المحيط بأخلاقهم العالية، فهم في صمت رهيب، فكأن المكان الخاص بهم خال من السكان، أو كأنك تدخل على مملكة البكم، فكل منْ فيها لا حس له ولا همس، وضاء الوجوه تطفح أساريرهم نوراً وسروراً، يستقبلونك وهم سكوت، وفي سكوتهم تقرأ صحفاً من الترحيب، وتسمع خطباً للتكريم، استغرقوا في التفكير حتى نسوا غيره، والتفكير عالم ممغنط إذا دنوت منه جذبك إلى دنيا بلا اختيار، تفيض على صفهم روحانية سماوية، وربما يحكيها بزوغ الفجر في الصحراء فهو روح هادىء، وهدوء مريح.

ولما أخذت مكاني بينهم، توجه إليَّ الأستاذ، وفي ملامحه قرأت فكره، ومن توجهه سمعت سؤاله، إنه يريد أن يسألني عن استقرار ضميري وهدوء روحي بعد تلك العواصف، نعم هناك نقاط غامضة في السؤال لا أفهمها، فعليه أن يظهرها ببيانه، وابتسم بوجهي، وقال: نعم هناك نقاط غامضة يلزمني شرحها، ليظهر مرادي من سؤالي. آه. إنه يقرؤني كما اقرؤه، إنه يطالع ضميري من وجهي كما طالعت ضميره من وجهه، إلٰهي ما هذه اللغة؟! إنها لغة أهل الجنة، حيث يسمعون الجواب بعد سؤال منهم، بل بمجرد التفكير في السؤال، هل وصلت هذه الفئة إلى ما يبشر به علما الإنسانية، وأن الإنسان يسير إلى دور يستغني فيه عن الكلام؟ ها هو أستاذي يجيب عن سؤالي قبل أن ألقيه عليه، كما اقرأ سؤاله قبل أن يلقيه عليَّ، وهب أنه بدراساته النفسية وعى الضمير وكشف خبايا الفكر الإنساني، ولكن ما بالي أنا أدرس ضميره واقرأ تفكيره؟! حقاً إنه من تأثير هذا الجو، إنه جو الجنة، كما تصفها الكتب السماوية، وها هم أهل الجنة إخوان على سرر متقابلين، قد غمرهم هذا الجو الساحر، فهم في سرور حقيقي، وهم في نعيم واقعي، انهم لا يتوقعون حادثاً ليخافوه، ولا يأملون أحداً ليرجوه، إنهم ارتفعوا عن دنيا الخوف والرجاء، كما وأني صرت أشعر بنفسي خالية من الخوف والرجاء حينما ساكنتهم هذا الصف، ما هذه السكينة الوادعة في هذا الجو الساحر! ما هذا الفرح الصاعق في هذه الدنيا الفانية! حقاً إنها الجنة.

وقطع علي الأستاذ تسلسل أفكاري ليسألني؛ بأنك هل تشعر في نفسك ببقية من عالمك الأول؟ هل تحس بخوف من أحد مهما

بلغت قوته؟ وهل ترجو أحداً مهما بلغت ثروته؟ أوضح الجواب، فإني أنتظره.

قلت له: لا يا أستاذ. لا. إني لا أشعر بخوف من أحد، حتى من نفسي التي كنت أخافها كل الخوف، إني لا أحس بأي خوف منها، بل إني أحسبها فعلاً أنها أحقر حاسة في كياني، انها أصغر جزء من وجودي، فلا ينبغي لي أن أخافها، أما غيرها من الموجودات الخارجية فإني لا أزاحمها الحياة لأخاف مصادمتها لي، كما وإني لا أجد حلماً يبعد عني في دنياي لأرجوه، انني لا أروم من حياتي إلا أن تكون كما هي الآن، أنا الآن أجد الدنيا في يدي، بل أرفع يدي إلى السماء فألمسها، فلا يبعد عني شيء لأرجوه، لا يا أستاذ اني لا أخشى شيئاً ولا أرجو شيئاً أبداً.

وهنا يبتسم الأستاذ ويقول لي: لا يا ولدي، إنك بعد لم تبلغ هذه المنزلة من الإنسانية، وإن كنت في طريقك إليها. إنك بعد لم تتهيأ للسير إلى ذلك العالم، لأن السير يحتاج إلى وسائل تفقدها كلها، إنك كلما عملت أو كلما توصلت إليه، هو تخلية وجودك من غيرك، وتطهير ذاتك من سواك، وكل هذه العربدات ليست إلا من أثر تلك النشوة، إن أجواء حياتك قد غمرت فطرتك بالأقذار والأوضار، فكنت لا ترى ولا تحس بنفسك، فلما تمكنا من صقلها في الصف التمهيدي، بتوجيهك إلى تلك الرحلة الروحية، زالت عن فطرتك بالعلل، وانكشفت عن ذاتك الحجب، فصرت ترى مشاهد ما كنت تراها قبل يومك، وتحس بمعان ما كنت تحس بها قبلاً، وتعيش بعالم جديد يتنافى وعالمك القديم في النظام، هذا كل ما هنالك وكل ما تحس به فعلاً، ولتعلم أنك لا تتمكن أن تعيش أبداً

في هذا الفراغ، بل لا بد لك من أن تملأ غرائزك وملكاتك بما تريده الحياة من البواعث والدوافع الصحيحة، وأن تغذي أحاسيسك وعواطفك بما تنمو به الإنسانية.

وأريد أن ألقي عليك في هذا الموضوع سؤالاً يتركز عليه الموضوع إن هذه الحياة تتركب من امتاع وألطاف، كما تتركب من آلام وأشجان، وإنك إنسان مركب من الأعصاب والأعضاء، وهما يحتاجان إلى التغذية، والتغذية موفورة في هذه الحياة، فإذا فرضنا أنك تمكنت من التزود بما تريده من هذه النعم والألطاف، فقل لي: أي قسم منها تختاره، وبأي كمية منها يشبع نهمك وطمعك، أجبني بدقة على هذا السؤال؟

قلت له: إننا نحن البشر كما وعيته في الصف التمهيدي نسير وفق نظام خاص فرضه علينا المنعم الأعظم في نواميس أنزلها على لسان الصفوة من خلقه، فنحن نسير في حياتنا على ذلك النظام، والنظام كما وعيته هو الحافظ لحياتنا، فهو قانون يضمن للإنسانية الأمان والسلام، ولذلك لا نأخذ منها إلا ما أعطاه لنا النظام الخاص، أما ما منعه هنا فإن حياتنا تهرب منه كما تهرب من مواقع الخوف والخطر.

الكفاف في المعيشة

فأنا لا آخذ من نعم الحياة إلا ما أباحه لي ذلك النظام، وأما المقدار الذي اقتني من لوازم الحياة، فإني لما كنت إنسان وُجدت لاتدرج في مراتب الإنساية حتى أصل إلى الكمال المنشود، كان عليَّ أن أبذل اهتمامي لهذه الناحية فقط، ولكنني لما كانت حياتي عناصر اشترك فيها مع الحيوان، وتلك العناصر هي مواطن الضعف في حياتي الإنسانية، لذلك لا أقتني من لوازمها إلا بمقدار ما تتوقف عليه حياتي فقط، أما الزائد عنها فإني أرى في اقتنائه نوعاً من الجنون يأباه عقلي، فإن ظروف حياتي لا تسع الناحيتين معاً، وكلما ازددت من ناحية نقصت من الناحية الأخرى، لأن الظرف محدود لا يحتمل الزيادة، وأنا إنسان قبل كل شيء ولذلك كان علي أن أرعى هذه الناحية، ولرعاية هذه الناحية آليت أن لا أقتني من المواد المغذية للناحية الحيوانية إلا بمقدار ما تدوم حياتها فقط، وربما كانت الآية الكريمة تشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ (سورة مريم: الآية: ٧٦) وليست الباقيات الصالحات إلا الثروة الإنسانية التي يكتسبها المرء في سيره إلى الكمال.

ولما انتهيت من كلامي، رأيت التلاميذ ينظرون إلي بإعجاب

وتقدير، ورأيت الأستاذ يشكر الله على ما وصلت إليه من تربيتي النفسانية، ويقول لي:

إن متاع الحياة الزائف، أو وسائل العيش قد تكون سبباً لتربية النفس وتهذيب الروح فإن العناوين الإنسانية قد لا تتحقق إلا بتلك الوسائل، فالمال قد يكون سبباً لنجاة أرواح تتوقف نجاتهم عليه، مثاله هذه المدرسة، فإن بناءها لم يتحقق إلا بالمال، وحياة الأمة في المجاعة تتوقف على الطعام والشراب، والمرأة قد تكون حياة شاب تتوقف هدايته على كبح شهوته ونزوته بالمرأة، فالمتاع الزائف وأعني به، المال، والطعام، والنساء، تصون في هذه الصور الثلاث وسيلة مقدسة لخدمة الإنسانية، فإذا صح أن يكون المتاع الزائف في الحياة وسيلة للكمال الإنساني صح لنا أن نكثر منه لتكثر فيه الوسائل الإنسانية، فالدعوة إلى الزهد عنه يساوي منع الإنسانية من تحقيق قسم مهم من أغراضها ومقاصدها.

قلت له: ليس هذا المتاع إلاّ غذاء الحيوانية المستودعة في وجودنا، ولذلك اتخذت النفس الجامحة منه شركا تصطاد فيه الحواس والأحاسيس ولكم قاسيت ما قاسيت في سبيل تهذيبها وتدريبها، وإني لا زلت أراقبها بدقة لكي لا يفلت العنان مني فتجمح وتعود إلى سيرتها الأولى، وإن ذلك المتاع مجالها الوحيد التي تتمكن به من التحرر عن هذه الرقابة والتقييد، ولذلك تراني أتورع في اقتناء أكثر من حاجاتي اللازمة منه، وأعتقد بأن النبي الأكرم يوجه الإنسان إلى هذا الصراط في كلمته الخالدة: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[1].

---

(١) البحار: ج٢ ص٢٥٩ باب ٣١.

وإن أعظم ما يريبني هو هذا المتاع الذي يعين نفسي على عقلي وإيماني، إن هذا المتاع هو حبالة النفس التي تصطاد فيها العقول والقلوب، وتستعبد بها الغرائز والملكات، ولذلك تراني أبتعد عنه حذراً من الوقوع في شراكه، إن هذا السرطان إذا تشبثت براثنه في الإنسان لا ينفك عنه حتى يلوّث كل قطرة من دمه ويسمم كل نسمة من حياته.

نعم قد يكون وسيلة لخدمة الإنسانية، وذلك فيما إذا كانت الروح هي المتصرفة في الإنسان، والمديرة لحياته، كما أظن أنني قصدت كذلك، حيث فوضت أمري إلى الروح وتوجيهها الصحيح، نعم لو تمكن الإنسان من تحرير عقله من النفس وأغلالها بوسيلة الروح، أمكنه أن يثق بعقله في التزود من المتاع بمقدار ما يتمكن من تصريفه القوى العاقلة، ولما كنت أنا بعد لم أثق بعقلي وإدارته، فأنا لا أدري بأنه هل لا يزال يخضع لحكومة النفس أو أنه قد أسقط حكومتها بوسيلة الروح وقواها الكاسحة، انني لا زلت أسيراً لهذا الجسم توجهني ميوله إلى حيث ما تريد، فأنا لا أثق بعقلي لأهاجم الرقطاء في وجارها، إن النفس رقطاء سامة، وان المال وجارها المخيف، وهل سمعت بعاقل يهاجم الثعبان في وجاره وهو أعزل من السلاح؟

لا يا أستاذ لا. إنني كما قلت لكم: لا أقتني من هذا المتاع الزائف إلا بمقدار ما تحتاجه حياتي الحيوانية فقط أما الفائض منه فإني لا أطمئن به لأني لا أطمئن لعقلي وقواه، فمتى حصل لي ذلك الاطمئنان، وأمنت بأن العقل يتلقى إيحاءاته من الروح، حيث غمرته أشعتها القوية، وطبعاً لا يكون ذلك إلا

بانطواء ظلمات النفس واختناق وساوسها الضالة، ولا يتحقق ذلك إلا بموتها[1].

ولا تموت النفس إلا بقطع مادة الحياة عنها (كما يعبر عنه علماء المعرفة) ومادة حياتها أهواؤها، فإذا لم تتحقق أهواؤها عاشت بلا غذاء، ولا تتمكن من الصبر على الجوع إلا مدة محدودة ضيقة، فإذا طالت المدة ماتت، ماتت لتولد من جديد في وجود جديد، تتولد في عالم العقل، حيث تخضع له، وتسير على ضوئه، وتستمد الحياة منه، وعند ذاك يمكنني أن أثق بنفسي فأتزود من متاع الحياة ما شئت، فإني على يقين من أن ذلك المتاع لا يُصرف إلا في المناحي الإنسانية فقط، وسكت.

فاستحسن الأستاذ جوابي، وشكرني على هضمي دروس المدرسة، ووعيي لمقاصد تلك الدروس، ثم قال لي:

إني لو سألتك عن كيفية قطع مادة الحياة عن النفس لتموت، وتتولد من جديد في وجود جديد فهل تستطيع الإجابة عنه.

قلت له: إن القرآن الكريم أشار إلى كيفية ذلك بقوله تعالى:

---

(١) في الحديث الشريف: «موتوا قبل أن تموتوا».
وعن الإمام علي عليه السلام: «إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم».
وفي الحديث القدسي: «يابن آدم لا يخلص عملك حتى تذوق أربع موتات، الموت الأحمر، والموت الأصفر، والموت الأسود، والموت الأبيض، الموت الأحمر: احتمال الجفاء وكفّ الأذىٰ، والموت الأصفر: الجوع والإعسار، والموت الأسود: مخالفة النفس والهوىٰ فلا تتبع الهوىٰ، فيضلك عن سبيل الله، والموت الأبيض: العُزلة». عن كتاب الروح: للسيد حسين محمد، ص٩١.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ (سورة الفجر: الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨) كما أشار بعد إلى ولادتها الجديدة بقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الفجر: الآيتان: ٢٩ ـ ٣٠).

نعم ان الرجوع إلى الرب يحتاج إلى رياضات متعبة لا يتمكن عليها إلا القليل، وهناك طريق عبدته علماء الأخلاق، وقد اجتزت الخطوة الأولى منه بقطع خوفي ورجائي من الناس.

الرضا

نعم هناك خطوة ثانية لا زلت أمارس وجودي عليها ليجتازها، تلك الخطوة هي الرضا بالحوادث مهما كان نوعها[1]، فإني أحب أن أستقبل الحادث المؤسف بمثل ما استقبل به الحادث المسر، وإن هذه الدرجة من الرضا لا تتحقق إلا بعد فهم الحوادث، وبأنها خارجة عن اختيار الإنسان وقدرته، فإن الإنسان مهما استعد لدفع الحوادث المزعجة، ومهما استكثر من وسائل الدفاع والوقاية، ومهما استعد بجلب النفع والفائدة، ومهما استكثر من وسائل النفع والفائدة، فإن الحادث المزعج قد يتجاوز الأعزل الغافل ويصيب هذا الواعي المسلح، والنفع قد يفوت المترقب المترصد ويصيب الغافل العاطل، وقد سمى المتكلم هذه الظاهرة بالقدر وسماها ابن الشارع بالحظ، وأن الحظ أو القدر أمر لا بد منه لا يمكنك التخلص منه أبداً.

---

(١) وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المرتبة بقوله: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة الحديد: الآية: ٢٣).

وعن الإمام علي عليه السلام في وصف المتقين أنّه قال: «نُزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نُزلت في الرخاء».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «اعلموا أنه لن يؤمن عبد من عبيده حتى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه وصنع به على ما أحبَّ وكره». راجع كتاب كيف تواجه الابتلاء: للسيد حسين محمد، ص١٠٠.

ولتعلم بأني لا أدعو الناس إلى الكسل والخمول، وتفويض الأمر إلى الأيام لتصنع به ما تشاء. لا. لا. إنني من أشد المهاجمين على هؤلاء المثبطين، بل إن دعوتي إلى الاستسلام للحوادث المفاجئة معناها أن لا يفقد المرء اتزانه ويترك جهاده بمجرد اصطدامه بحادث مسر أو مؤلم، فإن كوكبنا الأرضي يقع في سير أمثال هذه الحوادث فهي تمر عليه منذ وجدت الأرض وخلقت الحوادث، فلذلك يلزم للمرء الكيس أن يحتفظ بطاقته الإنسانية، حينما يصطدم بهذه المشاهد الغادرة كما يحفظ نفسه إذا هبت عليه عاصفة في الصحراء، نعم لا بد له من وسيلة يلوذ بها في أمثال هذه الحوادث.

إن التبتل إلى الله والانقطاع إليه من أضمن الوسائل النافعة في مثل هذه الحالات، فإنه القوة المسيطرة على العوالم أجمع، فالالتجاء إلى مثل هذه القوة الواقية من أنجح الوسائل في صد عادية الحوادث مُسرَّة كانت أو مؤلمة، وربما أشارت الآية الكريمة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (سورة الحديد: الآية ٢٣) فإن أمثال هذه الحوادث تمر وهي منطلقة إلى مستقرها الأزلي.

فالتفت إليَّ الأستاذ وقال: إنك في طريقك إلى الكمال فقد اتجهت إليه بسلوكك النفسي، وأنت تقاوم الحادثة بالالتجاء إلى الله، ولماذا تلجأ إلى الله؟

الرجاء

إنك تلتجىء إليه طمعاً بأن يمنحك القوة المكافحة لهذه الحوادث، وهذا الطمع هو الرجاء الذي ادعيت فراغ وجودك منه، فأنت تأمله، وأنت ترجوه، وأنت تطمع أن يمنحك ما تريده، فالرجاء لا زال يغمر وجودك، وإن تغير أفقه، فقد كان متوجهاً إلى الخلق، فأصبح يتوجه إلى الحق، وإن هذا التوجه خطوة جديدة إلى الكمال[1]، فقد صارت لك برسول الله ﷺ أسوة حسنة كما يحدثنا عنه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ﴾ (سورة الأحزاب: الآية: ٢١) فالرجاء من الله محمود ممدوح وسيرة على منهاج نبيه الكريم.

وهنا ينبغي أن أستوضح منك عن الشيء الذي ترجوه من الله، إنك توجه الرجاء إلى شخصية عظيمة، وينبغي أن يكون الرجاء يناسب في عظمته عظمة المرجو، وقبيح أن يرتجى الزهيد من

(١) وصف الله تعالى عباده الصالحين بأنهم يدعونه رجاءً وخوفاً فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (سورة الأنبياء: الآية: ٩٠).

العظيم، ولذلك فكّر في رجائك قبل أن ترجو، أطلب منه أبعد آمالك في الحياة، أطلب منه أن يكون الحق مقصدك في طلبك ويكون الحق موجهك إلى المقصد، ويكون الحق ملهمك في الحياة لكي لا تسعى إلى الفاسد فيكون سعيك وبالاً عليك ولكي لا تقصد الحق من غير طريقه فلا تصل إليه، ولكي لا تتعثر في أعمالك وأقوالك فلا يستقيم لك قصد ولا مقصد، ولا يستقر لك قول ولا عمل، نعم أقصد أن يكون الحق مقصدك، والحق موجهك والحق ملهمك حتى تنجح في شؤون حياتك، فالجهل أشرف من علم يهدم الحياة ويبيد البشرية، والكسل أفضل من جهاد لا ينتج إلا كبت الحريات ومعاكسة الإنسانية، والجنون خير من عقل يضلل الضمير ويغش الوجدان.

ذلك هو النموذج الذي ينبغي أن توجه إليه رجاءك، وتسير عليه في أحلامك حتى لا يخيب سعيك، ولا يضيع قصدك عند من لا تضيع عنده المساعي والمقاصد، ولا تخيب على بابه الأماني والآمال.

عروج الروح

قلت للأستاذ، وقد غمرتني روح خفيفة تكاد أن تصعد بجسمي إلى السماء رغم نزوح عنصره إلى عالم الأرض وانجذابه إلى مفاتنها الخالية.

قلت للأستاذ: إني أشعر بأني انقطعت عن الأرض وعوالمها فكأني لست من عناصرها أو كأن عناصرها لم تكون هيكلي، ما هذه الحالة اللطيفة التي غمرت وجودي؟!

أكانت الدروس النفسية التي تلقيتها منكم، والتي طبقتها عملياً في حياتي هي التي أذابت النواحي الثقيلة من وجودي، فلم يبق منه إلا ما خف حمله، بينما بقيت المادة اللطيفة التي تحفظ التوازن بين العناصر الأرضية والعناصر الأثيرية في وجودي، بقيت تلك المادة تلك المادة على حالها، فهي وإن خفّت من ناحية فعاليتها الأولى، لأنه لم يبق في وجودي عنصر أرضي يجذبني إليها، لكنها لم تزل تلك الفعالية موجودة، وإنما انتقلت من تلك الناحية إلى ناحية أخرى، انتقلت من عالم الأرض إلى عالم الأثير، فهي أضافت إلى العناصر الأثيرية قوة جديدة، فأصبحت العناصر الأثيرية تتصرف في وجودي بلا مزاحم قوي يعارض تصرفها.

أقول بلا مزاحم قوي لأنه لو يتعرى وجودي من العناصر الأرضية لحلّقت المادة الأثيرية لهيكلي إلى الفضاء، ولرجعت بي إلى مركزها الأول، رجعت بي إلى الأثير، إذ كل شيء ينجذب إلى مركزه، ولكن تلك البقايا هي التي تقعد بالجسم الأرضي عن التحليق إلى السماء، وأن هناك مقياساً يضبط التوازن بين القوتين فلا يدع إحداها وإن اشتد ساعدها أن تصرع الأخرى وإن ضعف عزمها.

حقيقة الإنسان

وخلاصة القول إني أحس بأن هيكلي معملاً يدور بثلاث محركات، الجسم وقواه العاملة، وهو الذي عبرت عنه بالجانب الأرضي، والروح وقواها الفعالة، وهي التي عبرت عنها بالجانب الأثيري، والعقل وهو الذي عبرت عنه بالمقياس الضابط، وسكت قليلاً لأرى تأثير كلامي في الأستاذ.

فإذا به يفاجئني بقوله: إذن فأنت تقول يتركب الإنسان من عناصر ثلاث؟؟ عنصر أرضي وهو الجسم، وعنصر أثيري وهو الروح، وضابط للقوتين وهو العقل.

وهنا ينبغي لي أن أسألك عن معرفتك للإنسان هذا الكائن الواضح الغامض، المعلوم المجهول، هل عرفته حقاً؟ هل وصلت إلى ذاتياته؟ وهل درست الجسم ووجوه نشاطه الفسيولوجي (كما يعبر عنه علماء معرفة الإنسان) ثم هل درست الغرائز وفعاليتها في الإنسان؟ وهل ميزت بين المتأصل الثابت منها، والدخيل الملتصق بها، بمعنى أنك هل درست الظواهر الطبيعية للإنسان؟ وهل وصلت إلى القوى المستورة في باطنه؟ وهل درست العقل ووجوه نشاطه وضعفه ومقامه في هذا المعمل الشاعر؟ إنك تعرض الإعلان بحروف كبيرة جداً، والذي يتصدى لهذه المواضيع لا بد وأن يكون مجهزاً

بكل ما تحتاجه دراسته لهذه المواضيع المعقدة، فلنتمش معك خطوة خطوة فنسألك عن الإنسان ومركزه في دنيا الحيوانات، لأنه كما تحده المناطقة. حيوان يمتاز عن فصائل الحيوانات بفصل يميزه عن غيره، ويعبر المناطقة عنه بالنطق أو القوة المميزة.

فمنْ هو الإنسان؟؟ وما هو مركزه في دنيا الحيوانات.

وإذا سمحت لي بأن أتوكل عنك في الجواب لأصرف رصيدي المختزن، ولأعيد درسي على نفسي لكي لا تنساه.

إن الإنسان عالم مجهول وكائن معقد، ضاعت في دراسته العقول، وتلاشت في تحديده القوى، إنه عالم يؤدي إلى عوالم، كل منها تسير بالفكر إلى عوالم جديدة لم تتعارف معها الأفكار بالرغم من سيرها في كل نقطة من هذا الحيوان المدرك، وبما أنه لا يمكنني عرض كل العوالم المستودعة في الإنسان، لأنها لم تكتشف كلها إلى الآن، ولأعرض العوالم المعلومة فيه أيضاً، لأن دراسته تحتاج إلى زمان غير وقتي الضيق، وإلى مكان غير هذه الأوراق القليلة، وهو يحتاج أيضاً إلى مختبرات واسعة، وتلسكوبات دقيقة، ووسائل كاملة لتشريح الأعضاء، ثم يحتاج فوق ذلك أيضاً إلى عدَّة مجهزة تصل بنا إلى عوالم النفس الإنسانية وغرائزها الأصلية والعارضة، وإلى الفوارق النفسية بينه وبين الحيوان، كل هذه المواضيع تحتاج إلى دراسات واسعة، ووسائل كاملة تصل بنا إلى ما وصل إليه العلماء من الإنسان، ثم تبقى النواحي المجهولة مجهولة حتى يتوفق العلم إلى اكتشافها.

نعم لا يمكنني ذلك، وإنما أنا ألم بالإنسان وأنا في طريقي إلى موضوعي الوجداني إلمامة بسيطة ربما ساعدتك على فهم الحالات التي تعتريك وأنت في دور التصفية.

إن الإنسان كما قيل له: «داخل وخارج». كما إن كُلاً من الداخل والخارج له داخل وخارج أيضاً، فالخارج هي الحواس الظاهرة والداخل هي التجهيزات الحية المستودعة وراء هذه الحواس.

جلد الإنسان

وأول ما يستقبلنا من الإنسان هو هذا الغطاء الذي يستوعب السطح الخارجي للجسم والذي يمنع الماء والغازات من اختراق الجسم والوصول إلى الداخل، كما أنه لا يسمح للجراثيم التي تعيش على سطحه بالدخول إلى الجسم، فضلاً عن أنه قادر على إبادة هذه الجراثيم بمساعدة المواد التي تفرزها غدده.

وسطح الجلد الخارجي معرض للضوء والريح، والرطوبة، والجفاف والحرارة، والبرودة أما سطحه الداخلي فعلى اتصال بعالم مائي ساخن محروم من الضوء، حيث تعيش الخلايا كما تعيش الحيوانات البحرية، وبالرغم من خفته، فإن الجلد يحمي السوائل العضوية بكفاية من الاختلافات التي لا تنتهي في الأحوال الكونية، فهو مندى، مرن، قابل للتمدد، قوي الاحتمال، وترجع قوة احتماله إلى طريقة تكوينه، وإلى طبقات مسامه المتعددة التي تتكاثر ببطء وبلا نهاية، وتموت هذه الخلايا بينما تظل إحداها متحدة مع الأخرى مثل أغطية السقف، فإن الريح لا تفتأ تقذف بها بعيداً لتحل محلها أغطية أخرى جديدة، ومع ذلك فالجلد يحتفظ ببلله ومرونته لأن غدداً صغيرة تفرز الماء والمواد الدهنية على سطحه، والجلد يتصل بالغشاء المخاطي، ذلك الغشاء الذي يغطي السطح الداخلي

للجسم، وذلك في فتحتي الأنف والفم والشرج ومجرى البول والمهبل، وجميع هذه الفتحات ما عدا فتحتا الأنف مغلقة بحلقات مطاطة قابلة للانكماش، تكون أشبه بحدود محصنة لعالم مغلق.

وعن طريق سطحه الخارجي يتصل بالعالم الكوني، وحقيقة الأمر أن الجلد هو مأوى كمية هائلة من أعضاء الاستقبال، ويسجل كل منها تبعاً لتكوينه الخاص التغييرات التي تحدث في البيئة فالخلايا القابلة للمس والمبعثرة على سطحه، تحس بالضغط والألم والحرارة والبرودة، وتلك الموجودات في الغشاء المخاطي للفم تتأثر بصفات خاصة في الطعام، كذا بالحرارة، أما ذبذبات الهواء فتؤثر في ذلك الجهاز الشديد التعقيد للأذن الداخلية بواسطة غشاء طبقة الأذن وعظام الأذن الوسطى، أما شبكة أعضاء الشم، فتتأثر بالروائح، والعصب البصري. وشبكية العين تطلق الإحساسات المختلفة نحو سطح الجسم كما يتعرض جزء الجلد الذي يغطي الشبكية الصغيرة لتعديلات مدهشة، إذ يصبح شفافاً فيكون القرنية والعدسات الشفافة، كما يتحد مع الأنسجة الأخرى، لإنشاء الجهاز البصري العظيم الذي نطلق عليه اسم (العين).

تبدأ حدودنا الداخلية بالفم والأنف، وتنتهي بالشرج، ومن خلال هذه الفتحات ينفذ العالم الخارجي إلى جهازي التنفس والهضم، ومع أن الجلد لا يسمح للماء والغازات باختراقه، فإن الأغشية المخاطية للرئتين والأمعاء تسمح لهذه المواد بالمرور، إنها المسؤولة عن استمرار التفاعل الكيميائي بين أجسامنا وما يحيط بها.

وسطحنا الداخلي أكثر اتساعاً من سطح الجلد، فالمنطقة التي تغطيها الخلايا المسطحة للشعب الهوائية بالرئتين هائلة، إنها تعادل

يقرب من خمسمائة متر مربع... ويمر الأوكسجين المستمد من الهواء وكبريت الكربون من الأوعية الدموية بالغشاء الرقيق الذي تكوّنه هذه الخلايا، وهو سهل التأثر بالغازات السامة والبكتريا والمكروبات الصدرية بصفة خاصة، وقبل أن يصل الهواء الجوي إلى الشعب الهوائية الرئوية فإنه يمر من الأنف، فالبلعوم، فالقصبة الهوائية، فالرئة، حيث يندى وينقى من التراب والجراثيم.

ومن الفم إلى الشرج يسير في الجسم مجرى من مواد التغذية، والأغشية الهضمية هي التي تقرر طبيعة العلاقات الكيميائية بين العالم الخارجي والعالم الداخلي لأنسجتنا وسوائلنا العضوية، بيد أن وظائفها أكثر تعقيداً من وظائف أعضاء التنفس، إذ أن عليها أن تُحدث تحويلاً كبيراً في المواد الغذائية التي تصل إلى سطوحها، ومن ثم فإنها ليست فقط مرشحاً، بل مصنعاً كيمياوياً أيضاً، فمواد التخمر التي تفرزها غددها تتعاون مع المواد التي يفرزها (البنكرياس) في تحليل الغذاء إلى مواد قابلة للامتصاص بواسطة خلايا الأمعاء، والسطح الهضمي واسع بشكل غير عادي، كما أن المواد المخاطية تفرز وتمتص كميات كبيرة من السوائل، كذلك تسمح خلاياها للمواد الغذائية بدخول الجسم عند هضمها، ولكنها تقاوم تغلغل (البكتريا) التي تسبح في الجهاز الهضمي، فهذه الأعداء الخطرة تُحدّ ضراوتها عادة بواسطة غشاء الأمعاء وكرات الدم البيضاء التي تدافع عنه، ولكنها تكون أبداً خطرة.

هكذا يتكون من جسمنا عالم مقفل، يحده الجلد من أحد جانبيه والغطاء المخاطي لسطوحنا الداخلية من الجانب الآخر، فلو ضعفت هذه الأغشية في إحدى النقاط لتعرض الإنسان للخطر، فقد

ينتهي مجرد الحرق السطحي بالوفاة، إذا امتد فوق منطقة كبيرة من الجلد، إن هذا الغطاء يفصل أعضاءنا وأمعاءنا عن البيئة الكونية، ومع ذلك فإنه يسمح باتصالات مادية كيمائية غزيرة بين هذين العالمين، إنه يحقق المعجزة، وهي إنه مغلق ومفتوح في آن واحد، إنه مفتوح أمام المؤثرات النفسية، فقد تصاب بجرح، بل قد يقتلنا أعداء يتصفون بالدهاء والخبث، ومع جهل هؤلاء الأعداء بجهاتنا التشريحية، فإنهم يهاجمون شعورنا مثلما يقذف الطيارون إحدى المدن بالقنابل دون أن يأبهوا باستحكاماتها مطلقاً.

إن الجلد البسيط الذي لا نرى فيه إلا شيئاً بسيطاً غاية البساطة، أصبح في هذه الدراسة جهازاً ملتوياً دقيقاً يحتاج إلى معدات ووسائل علمية، يصل بها الفكر الإنساني إلى أعماق هذه الظاهرة الغامضة. إن الجلد كما عبر عنه مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) حقق المعجزة انه مغلق مفتوح. وهذا الجامع للنقيضين، هذا الوجود المعجز هو أبسط شيء في وجودنا الإنساني.

ولننشر عن الإنسان بعض أعضائه الظاهرة، وبعض جهاته المستورة ليظهر لنا غموضه بوضوح لندرس حاسة البصر التي نرى بها العالم الخارجي، وتميز الألوان والأنواع من الطبيعة، هذه الحاسة التي يعدها الإنسان أعظم نعمة تفضل بها الله عليه.

عين الإنسان

إن البصر يتألف من قسمين:

١ ـ الأعضاء الأصلية.

٢ ـ الأعضاء الملحقة.

أما الأعضاء الأصلية فهي (الكرة العينية) ـ المقلة ـ.

وأما الأعضاء الملحقة فهي الجفون. الحاجبان. العضلات المحركة للكرة العينية والجهاز الدمعي.

وتُسمى تلك الأعضاء بالأجزاء الحافظة لأن الحْاجبين يحفظان العين من الأشعة القوية، كما يحفظانها من انحدار العرق إليها.

والجفون وهي أربعة لكل عين إثنان، وهي تتكون من أغشية جلدية وعضلية متحركة، وشكل الجفن كنصف دائرة له حافة محدبة ثابتة ومتصلة بجلد الوجه، وحافة سائبة متحركة فوق كرة العين، وعندما يفتح الجفنان تظهر ما بين حافتيهما السائبتين فرجة بشكل القطع الناقص، ومن ورائها تظهر الكرة العينية، والحافة السائبة للأجفان مزينة بشعر منظم يسمى بالأهداب، وظيفتها أن تحمي العين من الأنوار الشديدة والغبار، وأن تُحكِم سد الأجفان عند انطباقهما، وتوجد في النهاية (الانسيته) لحافتي الجفنين العلوي والسفلي فوهتان

صغيرتان تسميان بـ(النقطتين الدمعيتين)، وهي عبارة عن فتحتي المجاري الدمعية التي تنضب من الأسفل على كيس الدمع، ثم على القناة الدمعية الأنفية، وتفتح من الأعلى على حافة الأجفان السائبة، ثقوب صغيرة، تلك هي فوهات غدد (ميبوميوس) التي تكون داخل الأجفان، وفي الزاوية الانسية للعين توجد مسافة تسمى (بالبحيرة الدمعية) وتتكون الأجفان من خمس طبقات.

١ ـ الجلد.

٢ ـ معصرة الأجفان، وهي طبقة عضلية حمراء مخططة.

٣ ـ طبقة غضروفية ليفية.

٤ ـ العضلة الحجاجية الجفنية، وهي طبقة عضلية ملساء.

٥ ـ الطبقة المخاطية، وهي طبقة منظمة للعين.

أما الجهاز الدمعي فمكون من (الغدة الدمعية) ومحلها في الزاوية العليا، والوحشية من جوف الحجاج ومن النقاط والمجاري الدمعية، ومحلها على الحافة السائبة الجفنية من طرف الانسي، وعددها ثمانية، لكل عين أربعة، إثنان منها عليا، والأخريان سفلى، وهي تمر داخل القسم الانسي من الأجفان، حيث تصب على الكيس الدمعي، ومنه يتمشى إلى القناة الدمعية الأنفية، والكيس الدمعي مكون من نسيج ليفي منظم، طوله ١٢ ـ ١٤ مليمتراً، وعرضه ٥ ـ ٦ مليمترات، أما الغدة الدمعية فتكون في الجهة الوحشية من سقف الجوف الحجاجي، ولها ٥ ـ ٦ قنوات مفرغة، تنصب على القسم الوحشي لرتج الطبقة المنظمة التي تلتوي من الوجه الداخلي للجفن العلوي على كرة العين، . . وأما القناة الأنفية

فتمتد من أسفل الكيس الدمعي إلى الصماخ السفلي للحفرتين الأنفيتين، ويبلغ طولها ١٥ ـ ١٦ مليمتراً، وتقع داخل عظام الوجه، ويوجد داخلها ثلاث صمامات تساعد على مرور الدمع من العين إلى الأنف، وتمنع رجوعه من الأنف إلى العين، وهي:

١ ـ صمام به روط.

٢ ـ صمام تايليفر.

٣ ـ صمام كرودليه.

ويستر هذه القناة من الداخل الغشاء المخاطي للأنف، ويصعد هذا الغشاء حيث يستر داخل الكيس الدمعي والقنيوات الدمعية ثم يتمادى بالطبقة المنظمة العينية عند النقاط الدمعية.

أما العضلات المحركة للعين فهي ستة، أربعة منها مستقيمة. واثنتان منحرفتان أما المستقيمة فهي:

١ ـ العضلية العليا، ووظيفتها رفع الكرة العينية إلى فوق.

٢ ـ العضلة السفلى، ووظيفتها خفض الكرة العينية إلى أسفل.

٣ ـ العضلة الانسية، ووظيفتها إدارة الكرة العينية نحو الأنف.

٤ ـ العضلة الوحشية، ووظيفتها إدارة الكرة العينية.

أما المنحرفة فهي:

١ ـ العضلة الكبيرة، ووظيفتها سحب الكرة العينية نحو الأسفل والوحشي.

٢ ـ العضلة الصغيرة، ووظيفتها سحب الكرة العينية نحو الأعلى والوحشي.

ولهذه العضلات صفاقات تلفها، ويوجد في جوف الحجاج نسيج حجروي وشحمي، يملأ المسامات الفارغة حول الكرة العينية والعضلات، وهو يكثر في الأطفال، ويقل في الشيوخ، ومن قلته ترى عيون المشايخ غائرة داخل الأجواف الحجاجية.

أما كرة العين. فهي العضو الأصلي للبصر، وتكون داخل المجوف الحجاجي العظمي في الوجه، وتتكون من ثلاث طبقات.

١ ـ الطبقة القرنية.

٢ ـ الطبقة القزحية.

٣ ـ الجسم البلوري.

القرنية: وهي القطعة الدائرية الملونة وسط العين، وسبب رؤيتها ملونة هي شفافيتها التي لا تمنع من رؤية الطبقة القزحية الملونة الكائنة وراءها، وتتكون القرنية من حجيرات بشروية شفافة كالزجاج القزحية؛ وتتكون من ألياف عضلية ملساء، وأوعية دموية منتشرة بكثرة، وهي دائرية تشابه أختها القرنية، وتكون وراء القرنية، وتختلف عن القرنية بأنها غير شفافة، بينما القرنية شفافة، وهي ملونة، وهي التي تسبب تلون مركز العين، ويوجد داخلها فتحة تسمى (بالحدقة) لها خاصية التوسع في الظلام، لإدخال أعظم ما يمكن من الأشعة الضيائية داخل العين لتأمين الرؤية، كما لها خاصية التقلص في الشمس وفي الأماكن ذات النور القوي، لتمنع دخول الزائد من الأشعة إلى العين.

الجسم البلوري: ويشبه حبة العدس، ويكون وراء الحدقة والطبقة القزحية، وهو جسم شفاف كالزجاج، محدب الطرفين، وله

وجهان قدامي وخلفي، ووجوده في محفظة مربوطة من جميع أطرافها برباط دائري يسمى به ـ رباط زين ـ ووظيفته كسر الأشعة الضيائية التي تدخل العين، وجمعها فوق الطبقة الشبكية حسب قوانين الإنكسار في علم الفيزياء، وبهذه القوة المطاطة يتحدب وينبسط عند الرؤية، ومادته مائع هلامي كثافته تشبه الفالوذج أو المخاط، ويملأ جوف الكرة العينية ويجعلها متوترة وكروية. . .

وهناك طبقات أربعة أخرى توجد في العين.

١ ـ **الطبقة المنظمة**: وهي من الغشاء المخاطي تستر الوجوه الداخلية للأجفان، ثم تنعطف على الكرة العينية وتستر القدامي من الطبقة الصلبة.

٢ ـ **الطبقة الصلبة**: وتتكون من نسيج ليفي ذي صلابة كافية، وهي تستر جميع العين، ولونها أبيض ولها ثقبان. أمامي وخلفي، أما الأمامي، فينسد بالطبقة القرنية، وأما الخلفي فيمر منه العصب البصري وعلى مطها ترتكن العضلات العينية.

٣ ـ **الطبقة المشيمية**: وتتكون من نسيج منظم، وتحتوي على أوعية منتشرة سميت ـ بالمشيمية ـ وتتمادى أماماً بالعضلة الهدبية الملتصقة على محفظة الجسم البلوري وبالطبقة القزحية، وخلفاً مثقوبة كالطبقة الصلبة، ومن هذا الثقب يمر العصب البصري.

٤ ـ **الطبقة الشبكية**: وتتكون من نسيج عصبي خاص، وتكون بين الطبقة المشيمية والجسم الزجاجي.

هذه هي العين في فهرست مقتضب لأهم مواضيع البحث فيها، ولو أردت أن أشرحها لك حسب ما تتمشى عليه مدارس التشريح

الطبي، لأحتاج ذلك إلى وقت طويل وإلى مئات الصفحات، ومئات الخرائط، ومئات العمليات، وعند ذلك تخرج عن موضوعي لتدخل في موضوع الطب العيني، ولذلك اكتفيت بعرض الجهات المهمة في العين، كما اكتفيت بدراسة هذه الحاسة الظاهرة لانتقل منها إلى دراسة شيء من الأجزاء المختفية للجهاز البشري.

الدورة الدموية

لندرس الدورة الدموية التي تتعلق عليها حياة هذا البدن، وقبل دراستها يحسن بنا أن ندرس نفس الدم الدائر في البدن والحامل لرسالة الحياة إلى الأعضاء والجوارح.

إن الدم نسيج حي يتألف من حوالى ٣٥ أو ٣٠ ألف مليار كرية حمراء، و٥٠ ألف مليار كرية بيضاء، وهي خلايا منتشرة في سائل لزج يسمى (بالبلازما) والدم نسيج متحرك يحمل الغذاء المناسب لكل خلية في الجسم، ويؤدي في الوقت نفسه عمل البالوعة الرئيسية التي تنقل الفضلات التي تطلقها الأنسجة الحية، كما أنه يحتوي على مواد كيماوية وخلايا قادرة على إصلاح الأعضاء كلما دعت الضرورة، إن بلازما الدم محلول من القواعد والأملاح والأحماض والبروتينات، وتبعاً لهذا التركيب الخاص تحتفظ بقلويتها الايونية قريباً من نقطة الحياة، بالرغم من الأحماض التي تطلقها الأنسجة بلا توقف وبهذه الطريقة تمد بلازما الدم جميع خلايا الجسم بوسيط لا يختلف، فلا هو بالمفرط الحمضية، ولا هو متناه في القلوية، ولكنها تحتوي أيضاً على البروتينات والأحماض الامينية والسكريات والشحوم والانزيمات والمعادن بكميات ضئيلة جداً، وإن إفرازات جميع الغدد والأنسجة، وطبيعة السواد الأعظم

من هذه المواد ما زالت غير معروفة بالدقة العملية، إن كل نوع من أنواع الخلايا يجد في بلازما الدم المواد الغذائية اللازمة لبقائه، كما يجد المواد التي تزيد في نشاطه أو تعوق نشاطه، وهكذا فإن مركبات دهنية معينة ترتبط (به بروتينات) بمصل الدم قادرة على ضبط التكاثر الحيوي بل على منع هذا التكاثر منعاً باتاً، ويحتوي الدم أيضاً على مواد تقاوم البكتريا، وهي الجراثيم الوقائية، وبالإضافة إلى ذلك يوجد في بلازما الدم بروتين. هو (الفيبرونوجين) اللمفي، والدالفيبرون ـ (الخيط) الذي تثبت خيوطها من تلقاء ذاتها على جروح الأوعية الدموية لتوقف النزيف.

وتلعب كريات الدم الحمراء والبيض دوراً هاماً في تكوين الوسيط العضوي، إننا نعرف أن بلازما الدم تذيب فقط كمية صغيرة من الهواء الجوي، ولولا مساعدة الكرات الحمراء لما استطاعت بلازما الدم أن تمد هذا الحشد الهائل من الخلايا التي تسكن الجسم بالأوكسجين الذي تحتاج إليه، وهذه الكريات الحمراء ليست خلايا حية، إنها أكياس دقيقة مملوءة (بالهيموجلوبين) وأثناء مرورها بالرئتين تأخذ حمولة من الأوكسجين الذي تسلمه بعد لحظات قليلة إلى خلايا النسيج النهمة، وما أن تتسلم هذه الخلايا الأوكسجين حتى تتخلص في اللحظة ذاتها من اكسيد الكربون وغيره من الفضلات وذلك بتسليمها إلى الدم.

وأما كرات الدم البيضاء فعلى عكس ذلك، إنها أجسام حية تسبح في مجرى الدم، وتهرب أحياناً أخرى من الأوعية الشعرية بالتسرب من خلال جدرانها إلى الأنسجة، وتزحف فوق سطح خلايا الأغشية المخاطية للأمعاء والغدد وجميع الأعضاء، وبفضل هذه

العناصر الميكروسكوبية يعمل الدم كنسيج متحرك، وكعامل إصلاح، وكوسط صلب سائل قادر على الذهاب إلى حيثما تدعوه الضرورة، وقادر أيضاً على أن يحيط الميكروبات التي تهاجم إحدى مناطق الجسم بمجموعة هائلة من الكريات البيض التي تهاجم المرض، كما وأنه أيضاً يجلب إلى سطح الجرح الذي يحدث في الجلد أو في عضو الكريات البيض من نوع أكبر تعتبر مادة جوهرية لإعادة إنشاء الأنسجة، وأن هذه الكريات البيض تقدر على تحويل نفسها إلى خلايا ثابتة، وتلك الخلايا توجد ألیافاً واصلة تعمل على إصلاح الأنسجة التي أصيبت من الجروح.

هذه صورة مقتضبة من حياة الدم وأثره في بدن الإنسان، ولما كانت دراستنا للدورة الدموية، وكان لنا أن نستعرض جهازها، ويتألف ذلك من المركز وهو القلب، ومن المحيط وهي الأوعية.

القلب

أما القلب فهو عضو عضلي مخروطي الشكل مجوف الداخل، وتنقسم تجاويفه إلى أربع غرف وإن قاعدة هذا العضل المخروط إلى فوق وفي الجانب الأيمن، أما ذروته فهي في الجانب الأيسر قرب حلمة الثدي اليسرى، ومحل القلب هو بين الرئتين في التجويف الصدري في الجانب الأيسر للخط المتوسط، ومعلق عالياً بالأوعية الكبيرة التي تنشأ منه، إن تجاويفه الأربعة تختلف شكلاً وحجماً،وهي تحتل الجانب العلوي والجانب السفلي منه، فالعلوي وهما تجويفان يسميان (بالأذينين)، والسفلى هما إثنان يسميان (بالبطينين) ويفصل الأذينين عن بعضهما جدار رقيق بينهما ويفصل البطينين جدار سميك، ويوجد بين الأذين والبطين الأيمن جدار يؤمن اشتراك هذين الجوفين وعليهما بوابات من الأنسجة المنظمة والعضلية تسمى (بالصمام الثلاثي الشرافه) وهذا الصمام يساعد على مرور الدم من البطين إلى الأذين كما توجد فتحة أخرى وظيفتها نفس تلك الوظيفة، تسمى (بالصمام الإكليلي) ألا أنه يمتاز عن أخيه بعدم وجود فتحة بين طرفيه.

والأذين الأيمن هو الجوف العلوي الواقع في يمين القلب، وينصب عليه وريدان كبيران وهما الوريد الأجوف العلوي والوريد

الأجوف السلي ووريد صغير يسمى (بالوريد الإكليلي القلبي) وهو الذي يغذي القلب مباشرة، وإن هذه الأوردة الثلاثة هي التي تحمل الدم الوريدي الوسخ، والذي يحتاج إلى التصفية في مصفاة الرئتين ويسوق الأذين الأيمن دم هذه الأوردة الثلاثة إلى البطين الأيمن بواسطة الفتحة الموجودة بينه وبين البطين الأيمن، وفي أطراف هذه الفتحة توجد بوابات صغيرة تساعد مرور الدم من الأذين إلى البطين وتمنع عودته وبالعكس، وهي التي تسمى (بالصمام الثلاثي الشرافة).

والأذين الأيسر هو الجوف العلوي الواقع في يسار القلب، وتنصب عليه أربعة أوردة إثنان منهما تبعثهما الرئة اليسرى، وإثنان منهما تبعثهما الرئة اليمنى،وهي التي تحمل الدم الشرياني المصفى الحديث في الرئتين، ويسوق الأذين الأيسر دم هذه الأوردة الأربعة إلى البطين الأيسر بواسطة الفتحة الموجود بينه وبين البطين الأيسر، وتوجد حول تلك الفتحة بوابات صغيرة من النسيج العضلي والمنتظم تساعد على مرور الدم من الأذين إلى البطين، ولكنها تمنع عودته من البطين إلى الأذين بواسطة الصمام الإكليلي.

والبطين الأيمن هو الجوف السفلي الواقع في يمين القلب، وينصبّ عليه الدم من الأذين الأيمن، ومن بوابة (الصمام الثلاثي الشرافة) فيرسله إلى الرئتين لأجل التصفية بواسطة شريان كبير يسمّى بالشريان الرئوي، وفوق فتحة هذا الشريان من جهة البطين توجد بوابة تساعد على مرور الدم من البطين إلى الشريان، وتمنع عودته من الشريان إلى البطين صمامات نصف هلالية.

والبطين الأيسر هو الجوف السفلي الواقع في القلب، يتلقى دمه الجديد المصفى من الأذين الأيسر الكائن فوقه بواسطة فتحة الصمام

الإكليلي، ويرسله إلى الوجود بواسطة أعظم شريان فيه يسمى (بالشريان الأبهر) وحول فتحة الأبهر توجد بوابة تساعد على مرور الدم من البطين إلى الشريان، وتمنع عودته من الشريان صمامات نصف هلالية، وتوجد في البطينات أعمدة لحمية يختلف قطرها طولاً.

وللقلب ثلاث طبقات (الطبقة الخارجية) وهي المسماة بالشغاف الخارجي للقلب، وهي طبقة رقيقة تتألف من نسيج منظم وليفي فيحيط بالقلب كالكيس، وتفرز من الداخل إفرازاً من سائلٍ يجعل القلب يتحرك داخله بانزلاق وسهولة، من دون أن يحتك بالأعضاء المجاورة احتكاكاً يولد الألم والالتهابات، وهذا الكيس مستقل لا يلتصق بطبقة أخرى، بل إنما يسترها فقط، ووضع القلب في هذا الكيس كتفاحة يغطيها كيس رقيق، ويمتد هذا الشغاف مع الأوعية الكبيرة الخارجة من القلب والصابة فيه.

والطبقة الثانية هي (الطبقة العضلية) وهي تتكون من نسيج عضلي أحمر غير مخطط، وبها تمتاز عن سائر العضلات القلبية حيث أنها مخططة، وهذه الطبقة رقيقة في الأذينين، وسميكة في البطينين، وتحتوي على العقد العصبية التي وظيفتها تحريك القلب وتنظيم حركاته، وأما أليافها فتتصلب حين سيرها في حدود الأذينين والبطينين، ثم تتعانق مع بعضها كأنها حلقات من الخيوط تدور حول القلب.

والطبقة الثالثة وهي الشفاف الداخلي للقلب، وهي تتألف من نسيج وألياف منظمة أيضاً تستر الوجوه الداخلية للبطينين والأذينين، كما تستر الأعمدة اللحمية الموجودة في هذين البطينين والأعمدة اللحمية عبارة عن حزم عضلية معروفة.

الأوعية الدموية

أما الأوعية الدموية فهي نوعان ـ الشرايين ـ وهي التي تنشأ من القلب وتذهب بالدم الشرياني إلى جميع أنحاء الجسم، وـ الأوردة ـ وهي التي تنشأ من جميع النقاط البدنية وتأتي بالدم الوريدي إلى القلب.

وللأوعية ثلاث طبقات:

(الطبقة الأولى) الطبقة الداخلية، وهي التي تتألف من ألياف مصلية منظمة تفرز بعض العصارات التي تمنع الدم من التخثر، وتسهل جريانه إلى داخلها.

(الثانية) وهي طبقة داخلية أيضاً. تتكون من نسيج عضلي أملس، وهي في الشرايين أثخن منها في الأوردة، ولها استعداد للتقلص والانبساط.

(الثالثة) الطبقة الخارجية للأوعية، وهي تتكون من نسيج منظم وظيفتها المحافظة على الطبقتين الداخليتين، والشرايين إذا ابتعدت عن القلب تقسمت إلى شعب وأغصان وفروع لا تعد ولا تحصى، وهي ترق وتدق حتى تكون أرق من خيط العنكبوت فيقال لها حينذاك: (الأوعية الشعرية) وهي لا تنتمي إلى الأوردة ولا إلى

الشرايين، لأن الدم الذي فيها لا هو دم شرياني أحمر، ولا هو دم وريدي أسود، بل هو في حالة الانقلاب من الدم الشرياني إلى الدم الوريدي، لتماسه بحجيرات الوجود، ومنحه الأغذية والأوكسجين لها، وأخذه ثاني أوكسيد الكربون والمواد المنطرحة منها، والوجود هو عبارة عن شبكة عظيمة لتلك الأوعية الشعرية تجتمع أخيراً ويتناقص عددها حتى تصبح أوردة، فالأوعية الشعرية منتهى الشرايين ومبدأ الأوردة، فهي واسطة مشتركة بينهما، ومبدأ الشرايين هو الشريان الأبهر الذي يصدر من البطين الأيسر ويصعد عالياً نحو قاعدة العنق ثم ينعطف على نفسه إلى الجهة اليسرى، ثم ينحدر نازلاً باستقامة العمود الفقرى بعد أن يثقب الحجاب الحاجز مستنداً على العمود الفقري حتى ينتهي إلى الفقرة القطنية الأخيرة، وهناك ينقسم إلى شريانين كبيرين يقال لهما: الشريان الحرقفيان، ويسير الشريانان فوق الوجه الداخلي حتى يخرجان من قناة خاصة من الحوصلة إلى الوجه القدامي الانسي للفخذ، وهناك يستحيلان إلى شرايين فخذية، وتمتد تلك الشرايين باستقامة الوجه الخلفي والانسي للفخذ، ثم تعبر (الحفرة المأبضية) الكائنة خلف مفصل الركبة تسمى (بالشرايين المأبضية) ثم تنزل إلى الساق لتكون (الشرايين الساقية) ثم تدخل عظام القدم، وهناك تتشعب لتنتهي بأخمص القدم وظهرها والأصابع القدمية.

ومن الشريان الأبهر يسير فرع إلى الأعلى ليدخل العنق، ويملأ الشعبات التي تغذي العنق وما يحتوي عليه من الأعضاء كالغدد الدرقية، واللعابية، والعضلات، والحنجرة، ومحتويات الفم، ثم يدخل الجمجمة ويغذي جميع ما تحتوي عليه الجمجمة من دماغ وسائر الأعضاء، كما أن الخط الذي تظهر منه الشرايين تحت الترقوة

التي تمتد إلى الأطراف العليا، لتكون الشرايين العضدية، وفي الوجه القدامى لمفصل الزند تنقسم إلى شعبتين، هما الشريان الزندي، والشريان الكعبري، وتنتهي هذه الشرايين أخيراً إلى ظهر الكف وراحة اليد والأصابع، أما الأحشاء والأمعاء والكبد، والبنكرياس والطحال، والكليتان، فإنها تتصل بالأبهر بشرايين لها تأخذ منه الغذاء مباشرة، وإن مبدأ الشرايين هو القلب ومنتهاها الأعضاء البدنية.

تعاكسها الأوردة حيث تبدأ بالأعضاء وتنتهي بالقلب، فهما خطان متخالفان في السير تماماً، لذلك ترى خط الشرايين في مبدئه ضخماً وفي منتهاه رقيقاً، والأوردة في منشئها رقيقة وفي منتهاها ضخمة، فهما يتشابهان في القطر، وإن تخالفا في السير، والأوردة تجتمع في الرأس داخل الجمجمة وخارجها وتنزل إلى العنق، وهناك تجتمع سائر الأوردة لتصبح وريدين كبيرين تسميان بالأوردة الوداجية، يمشيان بجانب العنق بصورة موازية للشرايين السباتية ثم يتحدان مع الأوردة الآتية من الأطراف العلوية، ليكونان الأوردة تحت الترقوة، ثم تتحد هذه الأوردة لتكون الوريد الأجوف العلوي الذي ينصب على الأذين الأيمن من القلب، وأما أوردة الأطراف السفلى فهي تجتمع من أصابع القدم ثم الساق، ثم الفخذ، حيث تصير وريداً كبيراً يسمى بالوريد الفخذي، وهو يمشي موازياً مع الشريان الفخذي ويدخل الحوصلة من القناة الخاصة ليكون الوريد الحرقفي، ثم تتحد الأوردة الحرقفية لتكون الوريد الأجوف السفلي، وفيه تتصل الأوردة الآتية من سائر الأحشاء، وأهمها الأوردة الكائنة فوق الكبد التي تحتوي على أكثر دماء المعدة والأمعاء والبنكرياس الوريدية، وبعده يصعد موازياً للشريان الأبهر، حيث يثقب الحجاب الحاجز وينصب قرب رفيقه الأجوف العلوي على الأذين الأيمن من القلب.

فالدم يدور داخل الأوعية في البدن بلا انقطاع ولا توقف، ويتكون مبدؤه من خلق القلب والأوعية في الجنين، ويكون منتهاه الممات، يدور ليقدم إلى الوجود ما يحتاجه من الأوكسجين والأغذية، وليأخذ منها ما تطرحه من ثاني أوكسيد الكربون والمواد الفاسدة المنطرحة منها، ويقوم بالوظيفة الأولى وهي تغذية الشريان ويقوم بالوظيفة الثانية الوريد.

يقسم دوران الدم إلى قسمين:

(دورة كبيرة) وتبتدىء من البطين الأيسر، حيث يدور الدم في سائر أنحاء الجسم، ويتلوث باطراحات البدن، ثم يأتي إلى الأذين الأيمن لينهي فيه.

(ودورة صغيرة) وهي تبتدىء من البطين الأيمن، فيدور الدم الملوث بالرئتين ليتطهر ويرجع إلى الأذين الأيسر وينتهي فيه.

ومدة الدوران التام وهو خروج الدم من البطين الأيسر ورجوعه إليه، بعد أن يقوم بالدورتين، أن تلك المدة تستغرق ثلاثين ثانية تقريباً، ومنه نعرف سرعة حركة الدم وسطياً، إن القلب يشبه المضخة المتقلصة القابلة للانبساط والانقباض، حيث تجذب المادة السائلة وتدفعها منها ومن هذا التقلص تحدث الدقات والضربات القلبية، ويمكن جسها في أي شريان في البدن إذا كان دقيقاً قريباً من الجلد، وتسمى تلك الضربات بالنبض، إن النبض لا يوجد في الأوردة لعدم حدوث موجبات داخلها، فالنبض يميز الشريان عن الوريد.

ها هي إلمامة بسيطة بالدورة الدموية، وبتعبير أوصل بمادة

الحياة وكيفيتها في الإنسان، وكان علينا أن نتبسط فيها أكثر مما عرفت، لولا ضيق المجال وقلّة المصادر في الموضوع، ولولا أن البحث يخرج عن موضوع الكتاب لأضفت إليه فصلاً يتحدث عن الدماغ وعن آثاره وأعماله، وكيف صار الدماغ مائزاً بين الإنسان وسائر الحيوانات، ولكن لما رأيت الفصل قد تجاوز حده، والملل دبَّ إلى نفسي ولا بد أن يكون قد دبَّ إلى نفسك أيضاً لذلك تركت البحث عنه، نعم هناك تتمة لموضوع الإنسان، وذلك لأنَّا قد قسمنا الإنسان إلى خارج وداخل وتحدثنا عنهما، ثم قسمنا الداخل إلى قسمين أعضاء وآثار، وقد ألممنا بالأعضاء الداخلية، وأما الآثار وأعني بها التأثرات الداخلية التي يعبر عنها بالانفعالات النفسية، فهو موضوع معقد، قد أصبح مختبراً للمواهب والأقلام، قد سبره القدماء من الحكماء والمحدثين من الفلاسفة، وآخر مدرسة تأسست للنفس هي مؤسسة (فرويد) التي استوعبت النفس الإنسانية بدراساتها، فراحت تغور في أعماقه وتفتش عن أدق غرائزه وملكاته، وتوغلت في المشاعر والإحساسات النفسية وعن أسباب نقصها وكمالها واعتدالها وانحرافها، الأمر الذي جعل العصر يطلق عليه عنوان الأستاذ الأول لعلم النفس.

مدارس علم النفس

لقد قسموا علم النفس إلى مدارس، بعدما فصلوه عن مدارس الفلسفة، وإليك فهرست من مدارسه الجديدة:

١ ـ **علم النفس الاستنباطي**، وتبحث هذه المدرسة عما يجري للعقل الإنساني حين يخضع للمؤثرات الخارجية، وطريقة تعليم هذه المدرسة هي (الطريقة الانطباعية) ومعناها انطباعات الباطن بإحساسات الظاهر، ولهم تجارب واسعة دقيقية أجريت في إثبات علاقات الحواس الظاهرة بالإحساسات الباطنة، ومنها توصلوا إلى عُقدْ النفس ومشاكلها وقد هُجرت هذه المدرسة لقصورها عن استيعاب مشاكل النفس وعُقدِها الدقيقة.

٢ ـ **علم النفس السلوكي**، وتدرس هذه المدرسة سلوك الرجال والنساء والأطفال والحيوانات بإجراء تجارب عملية على هؤلاء الأفراد وخلاصة برنامج هذه المدرسة هي: إن السلوك الإنساني أو الحيواني ثمرة أعمال منعكسة مسجلة عند الأفراد، ومعنى الانعكاس والتسجيل هو وجود استجابات جسمانية خاصة لبعض المؤثرات، فمثلاً إن الإنسان يفرز مقداراً من اللعاب حالماً تقع عينه على غذاء أو شراب حامض أو سمع بغذاء فيه حموضة، وهي استجابة طبيعية مسجلة في نفس الإنسان، فهذا الشيء الخارجي هو الذي استثار في

نفوسنا أُموراً ثابتة فيها حركت الجسم إلى الإفراز المخصوص، وتشبه هذه الحالة بجرس التليفون الذي يندفع في الرنين لأن رقماً ما قد طلب بواسطة جهاز تليفون أوتوماتيكي، ونتيجة ذلك أن التفكير لا يعدو أن يكون مجرد حركات سريعة غير ملحوظة من الكلام.

٣ ـ **السيكولوجيا الغريزية**، وهي تذهب إلى أن ثمة عوامل عرضية لا صلة لها بالعالم الخارجي هي التي تحرك الدوافع الإنسانية، فهي تبحث عن أسباب سلوك الإنسان ومؤثرات أخلاقه، وهي نعتقد بأنها لا تمت إلى الخارج بصلة ما أبداً، وإنما هي دوافع داخلية في الإنسان تحركه وتقف به، فالغرائز خالقة مخلوقة، تخلق الإحساس ويخلقها الإحساس.

٤ ـ **الشكل**، ومذهب الشكل أو (جشتالت) أو ـ النموذج ـ هو الذي يذهب إلى أن الغرائز الإنسانية لها كلي تتميز به عن سواها، فالجمال، والقبح، والخير، والشر ـ والرغبة ـ والانصراف، كل هذه العناوين لها كلي تندرج به الأفراد أو المصاديق الموجودة في الأفراد التي تحته، فعلى الباحث أن يدرس الكلي ثم يطبق الشكل أو النموذج عليه.

وهناك مدارس آخر تنطوي تحت هذه المدارس الأربعة، كما أن لكل من هذه المدارس شعباً لها أساتذة خاصة، وللأساتذة عقائد مخصوصة لربما تتخالف في الشكليات، ولا يهمنا درسها واستيعابها، وإنما كل ما أردنا ذكره أن النفس الإنسانية أصبحت تزاحم جسم الإنسانية في التعقيد، فهي مجال البحث بين العلماء والفلاسفة منذ أن وجد الإنسان.

وهنا أقول لك: هل كنت عالماً بهذا الإنسان الذي ألمحت

على جزء من كيانه في بحثي هذا لتقسيمه إلى الأجزاء الثلاثة؟! أو أنك تلقي الكلام وكأنك تبني بيتاً من الخيال على الهواء فهو ينهار كما يبني في عالم الوهم والتخمين، إن ما عرضته عليك من الإنسان لم يكن إلا جانبه المفهوم، وهناك جانب له لا يزال مجهولاً تتولد عليه الفروض والتقادير، وهو الجانب الروحاني فيه.

الروح

الروح مادة مجهولة لم يتوصل إليها بآلاته، ولا كشف عنها الدين بقواه الخارقة، فقد سألوا النبي الأكرم محمد ﷺ عن الروح وذلك كما يحدثنا القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٨٥)، ـ وهو جواب مطاط لا يصل إليه الفكر البسيط، ولذلك ترى العلماء والمفسرين، يترددون في تفسير هذه الآية الكريمة، فيحاول بعضهم أن يلحقها بالمتشابهات من الآيات، ويحاول جماعة منهم أن يقسموا معارج الرب إلى عوالم منها عالم الأمر.

أما العلم فقد وقف متحيراً بين النفي والإثبات، وإن أكثرهم ينكرون وجودها، ولا يرون لغير المادة الجسمية وجوداً آخر في الإنسان نسميه بالروح، بل كل ما هنالك هو هذا الجسم الذي استعرضنا قسماً من أسراره، وإنما الروح الذي يحاول الدين أن يفرضها على العقول أثر الأعضاء والجوارح، فهي كالشعاع من الشمس، والحرارة من النار، والبرودة من الماء، فكما أن وجود الشعاع والحرارة والبرودة بالشمس والنار والماء، كذلك وجود الروح بوجود الجسم ومادته الحية، تعيش وتفنى بفنائه.

وقد حاول فريق من المتكلمين إثباتها بأدلة كثيرة يرد عليها من

النقض والإبرام، يجدها الباحث في مظانها، وربما مزجوا النفس بالروح أو دمجوا بهما العقل، أو درجوا بها القلب أيضاً فإنهم يعرّفون الثلاثة بتعريف جامع لها وهو أنها لطفية ربانية روحانية لها تعلق بهذا الوجود المجسم، وهي المدركة للمعارف، وهي سر الإنسانية وهي المطالبة بالتكليف والمخاطبة بالأحكام والمثابة والمعاقبة، وهي المرادة بالآية الكريمة: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٧٩)؛ والمرادة بالآية الكريمة: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٨٥)، والمرادة ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ (سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨)، والمرادة للحديث النبوي الشريف: «**أول ما خلق الله العقل**».

فالعقل والنفس والروح والقلب يندمج كل واحد من هذه العناوين الأربعة في معنى جامع لها وهو اللطيفة الربانية والروحانية.

أما ما هي تلك اللطيفة، وهل هي بسيطة أو مركبة؟

ذلك ما لا يشرحه العلم أو يتعقله المنطق لذلك نترك هذا المبحث جانباً، لأنه لا يهمنا عرضه، لأننا لا نسلك في دنيا الروح من هذه الطرق الملتوية، وإنما لنا رأينا الخاص في هذا الموضوع، فإن أحببتم أن أعرضه لكم فأنا استقبله منكم بكل ارتياح، وطبعاً وافقنا وأصررنا عليه.

فقال الأستاذ: إنه لا شك بأن حياة الأعضاء والحواس بالدم الدائر فيها، فهو مادة حياتها تبقى ما بقيت تدور فيها، وتفنى إن وقف دورانها، ولا شك بأن هذا الدوران نتيجة قوة دافعة للدم في الشرايين والأوردة، إذ لا يمكن أن يندفع الشيء بنفسه من دون أن يكون له قوة تدفعه، وأعتقد بأن تلك القوة التي تدفع الدم في

مساربها هي الروح، أو أنها من آثارها التي لا تنفك عنها في كل زمان ومكان، فما بقيت تلك القوة في البدن يبقى الدوران فتبقى الحياة في الأعضاء ومتى انفكت عنها وقفت الدورة عن سيرها فتعطلت حركة الأعضاء.

أما ما هي تلك القوة؟ وما حقيقتها؟ وهل النفس الناطقة التي يقول بها المناطقة؟ أو أنها تغاير النفس الناطقة في المادة والهيئة.

تلك أسئلة لم يجب عنها العلم إلى الآن، كما لم يتعرض لها الدين إلا بالرمز والإشارة؟

إننا نؤمن إيماناً بأن فينا قوة موحدة، تتمشى في العين فتوجد الأبصار، وتتمشى في الأعضاء فتوجد فيها الحركة، وتتمشى في الأذن والدماغ فتوجد فيهما السماع والتفكير، وتتمشى في الدم فتحدث فيه الدوران في مساربه الساحرة، وهكذا تبقى الحياة في الإنسان، ولازمته القوة الدافعة، فإذا فارقته فارقته الحياة.

وأقرب مثال له هو ـ الدينامو ـ الموجد لتيار الكهرباء الباعث للنور في السراج والقناديل، فما دام (الدينامو) متصلاً بالجهاز ينبعث التيار في الأسلاك فينبعث النور في السراج والقناديل المتصلة به ومتى انقطع عن الجهاز انقطع التيار انطفأت السراج والقناديل.

وهكذا الروح فإنها ما دامت تتصل بالجهاز الإنساني دارت الدورة وانعبثت الحياة في الأعضاء، وقامت كل حاسة بعمليتها الخاصة بها، فإذا فارقت الجهاز وقفت الدورة، فتلاشت الحياة عن الأعضاء وتعطلت عملية الحواس، فالروح سر الحياة. بل هي الحياة، والحياة والموت نقيضان لا يجتمعان، ولذلك يكون خلود الروح من الأُمور البديهية لكل عقل واع، لا يحتاج إلى عرض الأدلة والبراهين.

وقد أسكرت العارف الإلٰهي هذه الحقيقة المطلوبة، فعرج بالروح إلى عالم الله لتلازمه ملازمة الضوء للشمس، فهي تنبعث عنه انبعاث النور عن الشمس، وكما أن النور وجوده بوجود الشمس كذلك الروح وجودها بوجود الله، ولذلك صارت أبدية أزلية، لأن وجودها أبدي أزلي.

لكن البحث عن حقيقتها وعن مادتها وعن جنسها وفصلها بحث عن مناطق مجهولة حرمها العالم المستور على الفكر الإنساني إذا سار إليه من طريق العلم، لأن العلم لا يعتمد إلا على مقدمات زائلة، والزائل لا يصل إلى الخالد الباقي مهما عظم وتضخم، ولذلك راح العرفاء يسيرون إلى الحقيقة من طريق التجرد عن العوالم الفانية والأجهزة المتلاشية، وهم وإن عاشوا في تلك العوالم، وتركب وجودهم من تلك الأجهزة لكنهم لما كان فيهم أثر من الخلود، وظل من الأزل، وبذلك الأثر والظلال راحوا يشرفون على الحقيقة الأزلية وربما وصلوا إلى الجنة المسحورة.

هذا هو الإنسان في نموذج مصغر، عرضته عليك لتفهمه وتفهم ما تذكر عنه.

وعندما أتم الأستاذ محاضرته، أخذتني هزَّة فكرية شديدة راحت تصعد وتصوب بآرائي ونظرياتي في الحياة، ورجعت إلى ما كنت فيه من الحيرة والذهول والحزن والألم النفساني.

وقد التفت إلى حالتي الأستاذ فباركني عليها، وقال لي: إنك تجتاز الدور الذي لا بد لك من اجتيازه بنجاح بارع، ولذلك أنتقل بك إلى الصف الثاني لأعرض عليك فصولاً جديدة من عالم النفس، ولتستقبل وجوهاً جديدة من الحياة الروحية.

في الصف الثاني

كان صباح هذا اليوم يستقبلني بوجه جديد، فقد أحسست أني أنتقل من حياة إلى حياة، فإن الانتقال من صف إلى صف في مثل هذه المدرسة يعد انتقالاً من عهد إلى عهد، أو انتقالاً من جيل إلى آخر فأنا أستقبل حياة جديدة لم أتعارف معها قبل يومي أبداً، هكذا كان معتقدي عن هذا الانتقال.

وبمثل هذا المعتقد دخلت المدرسة واستقبلت المدير حينما واجهني بقوله: هل أنت على تأهب للانتقال إلى الصف الثاني؟ أو تكتفي في سيرك الوجداني بما وصلت إليه؟

فغمرت وجهي حمرة وردية منشؤها السرور والخجل، واجبته: بأني لم أدخل مدرستكم إلا لأسير فيها إلى الصف النهائي من دراستكم الروحية.

فقال لي: إن دراستنا تحتاج إلى عضلات قوية أكثر ما تحتاج إلى تفكير وتعقل، فالدراسات العلمية أكثر ما تعتمد على أعصاب التلميذ. أما التوجيه الفكري فهو من شؤون المدرسة، والتلميذ لا يحتاج إلى أكثر من مطاوعة أستاذه في السير.

قلت له: وقد تمشت في أعصابي قوة جديدة، وجرت في

عروقي دماء حارة، وغمرت روحي مشاعر سماوية: إني واجهت مدرستكم كما يواجه الجندي ميدان القتال، وكما أن الجندي لا يرجع إلا بالنصر أو يموت دونه، كذلك أنا لا أرجع إن شاء الله تعالى عن دراساتكم إلا بالغاية النهائية أو أتلاشى في سبيلها، فبارك المدير حماستي، وقال لي: تأهب لرحلة جديدة فيها الكثير من المشاق كما فيها كثير من الأرباح، والربح كما يُقال منتوج المشقة والتعب: وإن لك في سفرك الجديد صديقاً يلازمك، وربما رأيت في صحبته بعض الإرهاق والعنت، ولكنك ستبلغ بها غايتك المنشودة.

وهنا أشار إلى رجل جاوز الستين من عمره، ذي ملامح غامضة هي إلى الدمامة أقرب منها الوسامة، فتقدم إلى المدير وهو ينقل خطواته بتؤدة وتأمل وكان ينقل فيهما حملاً ثقيلاً، ومرت عليَّ مدة طويلة وصل إلينا وهو يفيض غضباً وغيظاً.

فقال له المدير: عليك أن ترافق هذا التلميذ في سفره النفسي.

وهنا تجهمت سحنته وأجاب المدير بخشونة نابية: هل قدر لي بأن أصاحب أمثال هذا الصعلوك القميء ـ ويشهد الله بأني لم أكن قميئاً في هيكلي، ولا صعلوكاً في أخلاقي ـ.

وأردت أن أجيبه لولا أن سبقتني بسمة المدير ورده عليه بلطف وعذوبة: بأنك عاهدتنا على تحمل هذه المكاره، فتوكل على الله، واستمد منه الحول والطاعة على هذه المصاحبات المزعجة.

وهنا توجه رفيقي الشيخ إلى ناحيتي وغمزني بكوعه غمزة ألمتني، وقال لي: اتبعني إلى الخارج فقد حكمت عليَّ هذه المدرسة

القاسية بهذه الأعمال الشاقة وبمرافقة أمثالك من الحيوانات المتوحشة، ولو خير لي بين مصاحبة الحيوان الأعجم، ومصاحبة أمثالك، لاخترت مصاحبة الحيوان الأعجم، لأنه يفكر في مزاحمة صاحبه أما أنتم أيها البشر فلا تفكرون إلا في مزاحمة أصحابكم في الحياة.

ولما لم يسمع مني جواباً على اعتراضه، سألني: لماذا لا تقابلني بالمثل فتجابه أسلوبي بأسلوب مثله؟

قلت له: لا داعي لي على إثارة الحرب بيني وبينك، ونحن في طريقنا إلى سفر لا أعلم مداه، ولأتجرع منك هذه الصدمة، كما يتجرع المسافر صدمات الطريق.

أين الإنسانية؟

قال لي: إذن أنت تحسب أقوالي هذه صدمة لجنابكم الكريم، أي جملة منها آلمتك حتى حسبتها صدمة لك؟ إذ الصدمة ما تصدم الإنسان بما يتألم، أكان لغتي إياك بالحيوان أم إضافة التوحش إليه هي الصدمة المزعومة؟ بينما كل إنسان حيوان، والحيوان متوحش بالطبع، أما تأهله فهو تطبع عارض عليه، وإذا كان امتياز الإنسان عن الحيوان بأنسه، ولذلك سمى بالإنسان!؟ فإن الجانب الوحشي منه لا يزال يشغل أكثر وجوده، فهو يفكر بنفسه لنفسه، وهو يكد ويعمل لنفسه، وهو يريد الحياة وما فيها لذاته الكريمة فقط، ولذلك حضرة الشاعر الإنساني يعبر عن هذه الغريزة بقوله:

«إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر».

فكأن القطر لا ينزل من السماء إلا لإروائه فقط، فإذا مات ظمآناً فلا نزل القطر، لأنه لا ينتفع به.

وأي وحشية أكبر من اهلاك آلاف الملايين من البشر وأصنافها من الحيوانات، وأضعاف أضعافها من النوامي، لأن حضرة الشاعر الكبير مات ظمآناً، إن هذه الوحشية لا تمتاز عن وحشية «جنگيزخان» السفاح في الشرق، و«نيرون» المجنون في الغرب، بل

هي مظهر روحي عرضه في هذه الألفاظ القليلة لأعمال نيرون وجنگيزخان.

فالإنسان وحشي مفترس أضفى على نفسه صفة الإنس ليخدع بها دنيا الحيوانات الأخرى، حتى تخضع له فيذبح الشاة والطير لأكله، ويستخدم الحيوانات الضخمة لنقله، ويبيد الحيوانات القوية للدفاع الموهوم عن نفسه.

أليس الإنسان هو الذي يستخدم القوى الكونية، ويخترع القنابل الذرية والهيدروجينية لحفظ السلام العالمي، فكأن حفظ السلام باختراع مواد الإبادة والدمار.

إن وحشية الإنسان لأشد من توحش أي حيوان أعجم، فالحيوان المفترس لا يفترس إلا حيواناً أضعف منه ليحفظ به حياته، أما الإنسان فهو يبيد الشعوب ويدمر الممالك ليطفىء شهوته ويرضي جشعه، وما هو براض ولو أباد الكون بأجمعه.

لم يكن نيرون حارق روما، ولا جنگيزخان غازي الشرق، ولا نابليون كاسح أوروبا، ولا هتلر مثير الشر، لم يكونوا هؤلاء إلا صورة مني ومنك، تمكنوا ففعلوا، وعجزنا فكففنا، فأي تطاول مني عليك لتعده صدمة لجنابك العظيم؟

أما كنت على حق حينما وصفت المدرسة بالقسوة ورميت حكمها عليَّ بمصاحبة أمثالك بالأعمال الشاقة.

وسكت قليلاً وأراد أن يتحدث من جديد.

فقلت له: سيدي الأستاذ نحن في صدد سفر طويل، وإذا أردنا أن نشغل الوقت بأمثال هذه الفلسفات فلسوف يمر الزمن ويفوت

علينا السفر، هيا بنا إلى خارج البلدة، ما بالك وقفت في عرض الطريق، فجلبت علينا أنظار المارة بهيئتك المستغربة، ووضعك العجيب؟ هل تريد أن تثيرها مشكلة تجمع بها علينا الناس؟ أو تريد أن تعيقني عن سيري الوجداني ليمر العمر بلا فائدة أجنيها منه؟

وأردت أن أسترسل في اعتراضي، وإذا به يتركني ليعود إلى المدرسة فأعدو خلفه لأمسك بردائه، ولأرجوه الصبر على هفواتي اللسانية؟

قال لي وقد رضي أن يعود إلى الطريق: إنك تروم مرافقتي في السفر، والرفقة تحتاج إلى وسائل، منها صبر الرفيق على رفيقه، والصبر أيها الرفيق هو الخطوة الأولى إلى الرفاقة، فالإنسان إذا ترك الصبر على هفوات إنسان مثله فهيهات أن يجد له رفيقاً بلا هفوة وإلى هذا المعنى أشار الشاعر البصير الأعمى بشار بن برد:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذىٰ
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقد أمر به الله تعالى في كتابه العزيز حيث يقول تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ (سورة النحل، الآية: ١٢٧).

الصبر

ولنفهم معنى الصبر لنطبقه بعد ذلك على أنفسنا «الصبر هو حبس النفس على ألم كامن، وشكوى مرة، تحاول أن تفرض نفسها فيمنعها الصبر».

ولا شك بأن وجود الألم والسكوت عنه هو الصبر، وإلا فالسكوت عن غير ألم مزعج لا يعد صبراً.

فقلت له: كيف تأمرني بالسكوت على الألم؟ وقد شكا منه الأنبياء إلى الله، فهذا أيوب النبي، يشكو إلى الله، وذلك ما يحدثنا عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (سورة ص، الآية: ٤١) وذاك يعقوب النبي يشتكي أيضاً من حزنه إلى الله، وذلك بتصريح من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٨٦).

ومع ذلك يسبغ القرآن على شكايتهما عنوان الصبر، فيعبّر عن أيوب بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص، الآية: ٤٤).

فكيف تأمرني بالسكوت على الألم؟

وقد مر على شفتيه طيف ابتسامة حالمة: إن الشكوى إلى الله

هي عين الصبر، لأن الإنسان لا يشكو إلى الله إلا بعد أن يمنع نفسه من الشكوى إلى غيره، فيخص بها الله فإذا شارك الله بغيره في الشكوى، فقد أشرك في عمله، وأحبطه بشركه، وإنما قلتُ لك: إن الصبر حبس النفس على الألم، وكف اللسان عن الشكوى، لتطلق نفسك في مجالي ربك، ولتخص بشكواك إلٰهك، لتكون نعم العبد، ولتكون من الصابرين، فالصبر هو حبس الشكوى إلاَّ عن الله، وكفّ النفس إلا في مجالي الله، ولا يمكنك الصبر إلا بعد أن تفهم أن الشكوى لغير الله لا فائدة فيها، فغيره لا يقدر على دفع مضرة، كما لا يتمكن من جلب منفعة، فالشكوى لغيره، كالشكوى إلى الأخشاب الهامدة والأحجار الجامدة لا تمنح نفعاً إن لم تزد ضراً، وليكن صبرك إطاعة لله لتحصل على ثوابه، فقد أمرك الله بالصبر، وعليك أن تطيعه، لتحصل منه ثواب الصابرين، وإن عقبى الصبر كما يقول الحكماء «شيء لذيذ» فالبذرة إذا صبرت على سقيها ورعيها فلسوف تصبح شجرة تمنحك أثمارها، والطفل إذا صبرت على تربيته فسوف يخلدك في الحياة، والفكر إذا صبرت على توجيهه فسوف يصل بك إلى عوالم مجهولة عنك، ومصاحبتي إذا صبرت عليها فلسوف ترجع إلى المدرسة لتنتقل إلى الصف الثالث.

وهنا قال: هيا بنا فقد طال الحديث.

وهكذا خرجنا من البلد لنستقبل الصحراء، خرجت معه وأنا مراقب أقوالي وأعمالي لئلا تزل، فيكرّر هجومه عليَّ، فيتأخر سفرنا الوجداني.

سرنا خطوات ربما لا تتجاوز العشرة، وإذا به يقف ويواجهني بهذا السؤال، قل لي: إلى أين تريد أن تتوجه بسفرك هذا؟ وإلى أي

بلدة تريد مني أن أسافر بك؟ لأنك كما تدعي رجل رشيد في أقوالك وآرائك.

وحقيقة كانت مفاجأة منه لي لم أتوقعها منه في تلك الساعة، وعلى مثل تلك الحالة التي أنا فيها، ولكنني تماسكت وأجبته: بأن المدرسة أرسلتني لأطبق درساً عملياً لا بد لي من تطبيقه، وأن المدرسة لم تذكر لي الجهة المقصودة، كما لم تقف بي على الغاية المنشودة، وكلما هناك أني تلميذ في مدرسة تسير وفق برنامج معين، فلها أن توجهني وعليَّ أن أطيعها بعد استفسار عن الجهة أو الغاية، بعدما اطمأنت نفسي بسيرها وغايتها.

فقال لي: إذن أنت آلة صماء في هذا المعمل الذي تسميه المدرسة، لا تُقدِّم ولا تُؤخِّر من نفسك لنفسك شيئاً، ومن الغريب اني أرضى بمصاحبة هيكل فارغ لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضراً، فلي العذر إذا فارقتك فإني لا أفارق إلا صنماً أصماً، وتمثالاً جامداً، وإني لا أحب مصاحبة الأصنام والتماثيل.

قلت له: أولست أنت مثلي أيضاً آلة تديرها أجهزة المدرسة بلا أن يكون لك اختيار من نفسك لنفسك في هذا الدوران؟

فقال لي: وقد حضره الغضب المخيف لا، أنا مالك نفسي أوجهها كما أشاء، لي حريتي في كل شيء، وقد قبلت الانتماء باختياري إلى هذه المؤسسة، ومتى رأيتها لا تلائم وضعي أسحب انتمائي منها بكل حرية واختيار، كما أن الرحلات التي تكلفني بها المدرسة أو الدروس التي ألقيها فيها، فإن لي الحرية الكاملة في قبولها أو رفضها، فليس للمدرسة ولا لرجالها القائمين بشؤونها إجباري على أي شيء فيها، فقد خلقني الله حراً لأتمتع بحريتي كما

تشاء الحرية، وقد رأيتَ مني الازورار من الرحلة، كما رأيتَ منهم الطلب الضارع والسؤال المنكسر، فهم يلتمسون مني الدرس، وأنا أمنحهم ما أمنحهم منها جوداً وتفضلاً.

فقلت له وقد أزعجتني هذه الكبرياء، وآلمني ذلك الترفع: ألست موظفاً في هذه المؤسسة تتقاضى راتبك منها؟ وألست مستأجراً للقيام بهذه الدروس والرحلات تأخذ أجرتك عليها؟ وأين الحرية من المُوظّف والمُستَأجر؟ فهما مستخدمان يقومان بالعمل الذي تبتغيه منهما الوظيفة والإجارة فبأيِّ حرية تتغنى أيُّها الموظف الأجير؟

وهنا ابتسم في وجهي، وقال: إن فهمك للأشياء محدود جداً، فأنت لا تدرك إلا الظواهر، ولذلك تنفي الحرية عن الموظف والأجير، ولو كُنتَ ممَّن درس فوعى بأن المتمكن من السبب متمكن من المُسبّب لما جابهتني بهذا المنطق الضعيف، وهنا أسألك: هل أنا حر في قبول هذه الوظيفة أو ردّها؟ أو أنا مُجبر هل قبولها بحيث لا أستطيع ردها عن نفسي!

قلت له: نعم أنت مختار في القبول أو الرد.

فقال لي: إن المختار في الوظيفة مختار في القيام بشؤونها أيضاً، فهو متمكن من ترك تلك الشؤون باستقالته من الوظيفة، لأن المتمكن من السبب متمكن من المسبب قلت له: ولكنك بعد قبولك الوظيفة أصبحت حريتك الأولى مقيدة بالوظيفة فأنت مجبور على القيام بما تريد، كما ان الإنسان لا يمكنه أن يمنع المسبب بعدما أوجد السبب، فهو قد كان حراً قبل إيجاد السبب، أما بعد إيجاده فإن المسبب يوجد بالرغم منه، أراد صاحبه أم لم يرده فليس لصاحبه بعد إيجاد السبب اختيار أبداً.

قال لي ـ وقد أخذته حدة في الكلام مخيفة ـ قلت لك: إن المتمكن من السبب متمكن من المسبب، وإن فقد هذا المتمكن بعد إيجاده السبب، لكنه بما أن وجود السبب وعدمه بيده، ووجود المسبب وعدمه بوجود السبب، فتمكنه من السبب يلازم تمكنه من المسبب، وأطلب منك أن تتأمل في كلامي لتفهم مرامي، وإلا فإن الاسترسال في هذا النقاش لا يوصلنا إلى غاية ونهاية، فأنت يا رفيق سفري حرٌّ في قبول هذا السفر لأنك حرٌّ في الانتماء إلى المدرسة، وأنا أيضاً حرّ في مصاحبتك لأني حر في قبول التدريس فيها، فلا تنفي عن نفسك حرية تفضَّل بها عليك المنعم العظيم، وإذا كنت حرّاً في عملك، كان عليك أن تعي عملك وتتوصل إلى الغرض المنشود منه، وإلا فستطلب مجهولاً لا تفهمه، وتسير إلى جهة لا غرض لك فيها وطالب المجهول مذموم عند العقلاء، فعليك أن تعي غرضك من سفرك، كما عليك أن تعرف مقصدك منه وأعتقد بأني قربتك من الغرض، لو تأملت قليلاً، فأنت قد دخلت هذه المدرسة لغرض معين في نفسك وأنت هضمت دروسها لنفس الغرض، وأنت تتوجه في سفرك هذا لتُحصِّل ذلك الغرض، فوجهتك الغرض المنشود، فإذن أنت لا تطلب مجهولاً كما تتصور، ولا تسير إلى جهة غير معلومة كما تقول.

فقلت له ـ وقد أطربني بيانه وتحقيقه ـ: نعم يا سيدي الأستاذ كما قلت. أنا أسير إلى جهة خاصة كما أطلب غرضاً معيناً، وهما تكميل النفس، وتحصيل الإنسانية الصحيحة، ولهذه الغاية أتحمل ما أتحمل من المشاق والآلام، أما الدروس الفكرية والعملية، فإن غموضها أمر طبيعي للتلميذ، وإلا فلو كانت واضحة لما لزمه احتمال مشقة التعلم، أما أنت أيها الأستاذ القدير والمرشد الخبير فإن علمك

رأس مالك في الحياة، فأنت عالم بمبدأ السير ومنتهاه، وبالطرق التي نجتازها في سفرنا الوجداني، لكنما فيك خشونة تتعب السالك، وغموض يبعث الحيرة في سلوك التلميذ ومعاملته معك، فازورراري عنك مرة، واحتمالي خشونة أخلاقك مرة أخرى، منشأهما سماحي من ناحية، وجهلي بأخلاقك وسيرك الاجتماعي من ناحية أخرى، فلك العذر على وضعك لأنك تطبعت عليه، ولي العذر على وضعي لأني جاهل بك وبأخلاقك.

وأردت أن أسترسل في خطابي، وإذا به يضع يده على فمي، ويرجع الجمل والمفردات المتزاحمة في مخارج الحروف إلى مواطنها.

ويقول لي: أظنك حسبت نفسك الأستاذ (الأخفش) النحوي المشهور، وحسبتني (كبشه) المعروف. ولذلك رحت تغمرني بسيل خطابك الجارف، والحق يُقال: إنه جارف، فقد كدتُ انجرف مع بيانك وأحُلّق في آفاقك الساحرة، ولكنني أمسكت نفسي، وأكبرت منزلتي أن تجاري منزلتك، فأنت تستمد منطقك من الجهل المترائي بالعلم، وأنا أستوحي خطابي من سماوات الحقائق ومناطق الشهود، أنت تردد خطابك كالببغاء يلقنها صاحبها الكلام، وأنا استنزل المعاني من مصادرها، التقطها وأنا عالم بأسرارها وحقائقها، ولذلك يلزمك أن تقتضب كلامك وتختزنه لمواضع الحاجة، ولا أظنك تحتاج إليه في هذه العجالة، أنت محتاج إلى الصمت أكثر من احتياجك إلى الكلام والصمت لأمثالك ذهب إبريز، بل هو جوهر ثمين، عليك أن تحفظه من الضياع، وبالكلام تضيع طبيعته فيصبح التبر ترابا والجوهر حصباء.

قلت له: سيدي الأستاذ أنا راض بالذي تفرضه عليَّ، فعليك الأمر، وعليَّ الإطاعة، وإنما أرجو من فضلك أن تُسرع بنا لئلا تتأخر في السير.

قال لي: إنك كما قلت لا تفهم ما تقول فأنت تناقض نفسك بنفسك، إن الرضا والإطاعة يتنافيان مع رجائك مني بسرعة السير، فرجاؤك معناه طلب الإطاعة مني لك، بينما أنت في مقام الإطاعة لي، ولفهم هذه الحقيقة لا بد لنا من فهم معنى الرضا.

الرضا

إن الرضا مقام عظيم يجتازه الإنسان في سيره الوجداني، فالراضي بالشيء مرتاح الضمير، فارغ البال، يعيش ولا يهمه ما ينزل في الأرض أو يصعد إلى السماء، فهو راض بحياته، سعيد بعيشه، وإن الرضا بالحياة لا يحصل حتى تملأ حياته كل فراغ في وجوده.

وإن السعادة بالعيش لا تتأتى إلا بامتلاء عالم أحلامه، وإلا فلو وجد فراغ في الحياة لاجتهد وسعى صاحبه لأشغاله، ولو بقي له حلم واحد لم يتحقق لأوصل ليله بنهاره حتى يحققه.

فالرضا حالة قدسية لا تتحقق إلاَّ لمن فهم الحياة ووعى حقيقتها الغامضة.

إن للحياة آماداً واسعة لا يجتازها السالك إلا بأجنحة الإيمان بالله، ومعنى ذلك أن على الإنسان أن يفهم مقامه من عوالم التكوين، وموقفه من آفاق الوجود، إنه لو قاس نفسه بهذه العوالم أو تلك الآفاق لكان أضأل من قطرة تُقاس بالمحيط الواسع، وأصغر من ذرة تُقرن بالجبل الشاهق، أقول: إنه أضأل وأصغر من القطرة والذرة وأنا أعني ما أقول فإن البحر يتكون من قطرات، والطود

يتقوم من الذرات، أما العالم فوجوده لا يحتاج إلى الإنسان أبداً، فلو فرضنا أنه انعدم منه العنصر الذي يعيش به الإنسان، فانعدم منه هذا الحيوان الشقي المسمى بالإنسان، لما نقص من العالم شيء أبداً، بل يبقى الكون وما فيه على حاله، وتبقى أجهزته وأفلاكه تدور وتسير من غير أن يحدث فيها فقد الإنسان أي نقص أو قصور في الجهاز أو السير، فوجود الإنسان في هذا العالم كعدمه لا يُؤخِّر ولا يُقدِّم من العالم شيئاً أبداً، ولذلك صار أضأل من القطرة وأصغر من الذرة، فإذا كان مقامك أيها الإنسان من العالم يقع في هذا الجزء الحقير الضئيل فيه، فكيف تروم أن تحيط به وتلم بكل ما فيه.

إن محاولاتك هذه أسخف من محاولة نملة صغيرة تريد أن تنقل طوداً من جهة إلى جهة أخرى، فهي تتعب نفسها في نقل ذرات صغيرة منه حتى تتلاشى وتبيد ويبقى الطود على حالته كما كان لم ينقص منه شيء أبداً، ولذلك ينبغي للعاقل أن يُدرِّب نفسه على القناعة بما يجود به نظام التكوين، ويتلطف عليه فيه المُدبِّر الحكيم، وأعتقد بأنه لو وعى حقيقة نفسه ومقامه وحقيقة الكون ومقام مدبره العظيم لاحتفل بكل ما تنعم عليه به هذه العظمة الجبارة، فالتفات مثلها لمثله نعمة لا يحيط بها شكر، والذي يبلغ سيره الوجداني هذه المرحلة، يتأهب لأن تتساوى عنده الحالات، لأنها أحكام تتنزل من مقام العظمة المقدسة، فهي التي تريد سروره، وهي التي تريد حزنه وهي التي تريد راحته، وهي التي تريد مشقته، فإذا كانت الحالات كلها منها، يلزمه أن تتساوى حالاته أيضاً تجاهها حيث أنها متساوية في نظر القضاء، وتساويها يفرض عليه أن تتساوى حالاته في كل تلك الأحوال.

ولا شك بأن البلوغ إلى هذه المرتبة أصعب من الصعب، فإن

الألم يوجع ويبيد الأعصاب، فكيف يمكننا أن نجعله في منزلة الفرح الذي ينعش الأعصاب، وينشط الروح.

ولكن علماء الأخلاق يقولون: بأن من يعي هذه الحقيقة تصبح حالاته متساوية، فلا يمتاز ربحه عن خسارته، ولا نجاحه عن سقوطه، ولا مرضه عن صحته لأنه وعى أن الباعث والمدبر لهذه الحالات واحد لا شريك له، فإيجاد النجاح في جهاده لا يقصر عن إيجاد السقوط، وبعث المرض في بدنه لا يزيد على بعث الصحة، وهكذا.

وبما أنه لا يريد من عبده إلا تكميل نفسه، لأنه خلقه للمعرفة المساوية للكمال، فالحالات التي تتوارد عليه إنما هي مقامات يجتازها الإنسان إلى مرتبة الكمال، فعليه أن لا يفرق بينهما أبداً، لأنها لا تختلف درجاتها في نظر المُدبِّر القدير ولا قيد شعرة، ولا شك أن الإنسان إذا بلغ هذه المنزلة فرضي بما يرضى به الله أصبحت نفسه مخاطبة بقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾ (سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨).

وهنا أسرع الأستاذ في سيره فأسرعت أعدو خلفه بشدة لأصل إليه، وهيهات أن أصل إليه، فكأنه استعار من الزوابع نشاطها، ومن النور حركته، فهو يسير بقوة خارقة، وأنا أتعثر في آثاره المنطبعة على الرمال، بينما كان في شخصه غائباً عن نظري، ما هذا النشاط؟! وما تلك القوة الجبارة؟ إني حائر في أمر هذا الشيخ المدهش.

وسرت طويلاً حتى رأيته وقد اعتزل الطريق، وجلس يراقب السماء وكأنه شاعر يستعرض فيها آثارها الرائعة، أو كأنه نبي يستنزل

منها الوحي والإلهام، ولما وصلت إليه لم يلتفت إليَّ، فهو مشغول عني بنفسه وبسمائه، وأحسبه لم يرد تحيتي التي وجهتها إليه بأسلوب ملفت للنظر، ورأيت من المناسب أن أتركه وحالته الحالمة، لئلا أشغله عن لذته ومتعته، فإن الفيلسوف يجد لذته في الاعتزال عن الناس، وها هو يعتزل حتى عن نفسه ومقصده ليأخذ خطته من هذه الوحدة الملذة في صحراء ساحرة المشاهد، وأعتقد بأنه وجد في الصحراء ما يجده القس في صومعته، والعابد في محرابه، والفنان في مرسمه، والمخترع في مختبره، فهو مشغول به عن غيره، وقد سرت منه إلى تلك السكرة الروحية فإذا بي أهيم في أخيلة لا أمد لها، ولولا صرخته التي أرجعتني إلى نفسي لهمت في أودية لا نهاية لها من الأحلام.

قال لي وهو يبتسم: ما بالك تنظرني بذهول وانبهات فهل رأيت مني ما يستوجب هذا التفكر العميق؟ أو أن التعب أثّر في أعصابك فتركك هامداً بلا حركة ولا شعور، أو أنك انجذبت إلى الآفاق التي جذبتني مفاتنها فرحت التقط منها روائع الخلود؟ وأعتقد بأنك لست من الفريق الثالث، لأنك لم تصل بعد إلى مرتبة تتكشف عن بصيرتك الحجب. لترى ما لا تراه العين المجردة.

قلت له: إن حالتك الذاهلة ووصفك المعجب، هو الذي أشغلني عنك، فأنا كما قيل مشغول بك عنك آراك تحلم يقظاناً بأُمور لا تصل إليها أحلامك وأنت نائم وكأنك كما تلتقط الروائع الخالدة من وراء الحجب، وليتني شاركتك هذه اللذة التي لأجلها ضحيت ما ضحيت من لذائذ الحياة، ومتع الدنيا الساحرة، نعم أشغلتني حالتك فرحت أهيم في أوضاعها وتجاوزتها إلى حالاتي

التي تعاودني في أدوار دراساتي المبهمة، ولقد أذهلتني هذه العوالم حتى لم أسمعك وأنت تهتف باسمي، ولم التفت إليك وأنت تحاول لفت نظري إليك، وأعتقد بأن العذر الذي قدمته إليك يكفي لاستحصال رضاك وعفوك.

قال لي: إنك معذور من أول الأمر في كل ما صدر منك، ولكنني لا أرى لنفسي عذراً في كل ما تفعله أنت، فإن المدرسة كلفتني بك، والتكليف هو إلقاء المسؤولية عليَّ، فأنا مسؤول عن أعمالك وأقوالك، ولذلك تراني أضغط عليك وأتحامل على سيرك، لأني أشعر بثقل المسؤولية، وفي الضغط عليك يتخفف عني ضغطها، لأني ألين في قساوتي ملكاتك الضاغطة على حياتك، وإذا لانت الملكات أصبحت قابلة للتعديل، فالغصن لا يتقوم إلا متى لان، وإلا فإن الغصن الجاف عود ينكسر إذا رمت تقويمه، وكذلك الغرائز لا تتقوم إلا إذا اطمأنت ولانت، وإلا فإن تعديلها في حالة الجفاف والجمود، وذلك بأن نطلب منها الاستسلام والتنازل عمَّا هي عليه من العادات، فإنها ستحرن عن كل شيء وستصر على جهلها علواً واستكباراً.

وبذلك تعرف أن معاملتي معك جزء من الدرس الذي كلفتني المدرسة بإلقائه عليك، وأعتقد بأن هذا الاكتشاف سيخفف عنك كثيراً، فلا تأبه بعد هذا بشذوذي في ما أفعل وأقول، لأنك وعيت أن ذلك الشذوذ من جملة الدروس التي تتكلف بتعلمها في المدرسة، كما تتكلف بتعلم الدروس الأخرى، فهو جزء من برنامج المدرسة يلزمك تحمله، ويمكنك أن تسمو بنظراتك عن هذه المدرسة إلى الحياة الواسعة، فأنت تلميذ فيها، عليك أن تصبر على

الدروس التي تفرضها عليك هيئة المدرسة لتتكامل بها ملكاتك، ولتستنير فيها بصيرتك، ولتجتاز هذا الدور من التكوين بنجاح وارتياح، فكل ما يلقاك أو تلقاه في هذه الحياة إنما هو جزء من البرنامج المقرر لك فيها عليك أن تتحمله، وعليك أن تتساوى عندك حالاتها، فهي في نظر البرنامج متساوية الأثر، هي جزء من وسائل التكميل هيأها لك المدبر القدير وأودع بها كمالك ونجاحك.

السعادة والشقاء

إن عالمنا صورة مصغرة للعالم الآتي، أو بتعبير آخر إن الحياة الفانية أنموذج للحياة الباقية، ففيهما السعادة والشقاء، إلاَّ أن سعادة الدنيا كشقائها تخلق النفس الإنسانية بتأثرها من العوامل الخارجية، أما هناك في الحياة الباقية، فإن السعادة والشقاء حقيقتان متأصلتان محسوستان يلمسهما الإنسان أرادت النفس لمسهما أم لم ترد، كما أن أثرهما في هذه الحياة قصير الأمد، يزول كما يحصل بأتفه شيء يتصوره الإنسان، وفي تلك الحياة لا أمد له أبداً، ويعلل هذا التحديد فيهما الدين، بأن هذا العالم عالم الغرس وذلك العالم عالم النتاج، والغرس بيدك كيفيته وأسلوبه، أمَّا النتاج فإنه خارج عن منطقة نفوذك واختيارك، وإن هذه الحياة عرضة للحوادث المفاجئة، فربما تصدمك في الصباح حادثة يمحوها المساء بحادثة أعظم منها، أما تلك الحياة فإنها بعيدة عن الحوادث، لأنها لا تعيش في هذا الكوكب المفطور على التغير والتبديل، فهي في وضع واحد أبداً، إما شقاء يتلظى به الجحيم، وإما سعادة يفوح منها النعيم، وأعتقد بأني قد استمددت من الاستراحة طاقة أتمكن بها من مواصلة السير، فهلم بنا إلى طريقنا لنواصل سيرنا إلى المقصد المجهول.

قلت لهُ وقد توسطنا الطريق: إني لأشكرك على ما تسديه إليَّ من الفضل، وما تمن به عليَّ من المعرفة.

قال لي: لا شكر إلَّا لله، فهو المنَّان المتفضل، ولكيما تعرف هذه الحقيقة عليك أن تفهم معنى الشكر.

الشكر

إن الشكر هو ابتهاج المتنعم بنعمة المنعم، وان ابتهاج كل عضو بوظيفته، فكما يكون ابتهاج اللسان بحمد المنعم ومدحه، يكون ابتهاج الجوارح بطاعته، وابتهاج القلب بحبه، وابتهاج الغرائز بالانطباع بأخلاقه، وقبل أن أشكر المنعم علينا أن نعرف معنى النعمة التي ينبغي لنا شكرها.

إن النعمة هي ما تحتاج إليها حياتك، بحيث لولاها لبقي هذا الجانب من حياتك شاغراً عندك، أما حصولها فقد يكون بثمن تبذله في سبيلها، أو يمنحها لك بأذل بلا عوض يأخذه منك، وأعتقد بأن العرف لا يسمي الباذل لها بالثمن المقرر منعماً اصطلاحاً، وسبب ذلك، أنه بادلك نعمة بنعمة، أخذ منك فأعطاك، فلولا أخذه منك لم يمنحها لك، فمثل هذا الباذل لا يسميه العرف منعماً، أما إذا كان البذل بلا عوض من الباذل، وإنما يمنح لك النعمة تفضلاً منه وامتناناً من دون أن ينتظر منك في مقابلها شيئاً أبداً، فإن مثل هذا الباذل هو الذي يطلق العرف عليه عنوان «المُنعِم اصطلاحاً وهو الذي يفرض الوجدان شكره، وكلما عظمت النعمة عظم الشكر.

وقد عرفت من أول سيرك الواجدني أن مرجع وسائل الحياة كلها إلى الله، فبحوله وقوته تدور الأفلاك، وتقوم الأكوان، وتعيش

المخلوقات، وإنما الأسباب وسائله التي يبعث بها المنعم إلى عباده، كالمعمل الذي ينتج الحاجيات، فإنه آلة بيد مديره يحركه فيدور لتنتج، وكذلك الأسباب الات بيد المدبر القدير، أودع فيها حوله وقوته لتنتج ما تحتاجه الإنسانية في مختلف الأعصار والأمصار، فالشكر لله لا للآلة، لأن الآلة لا تعطي ولا تمنع، بل المعطي والمانع هو الله لا شريك له، وأعتقد بأنك إذا وصلت إلى هذه الحقيقة فلسوف لا تشكر أحد غير الله إلا إذا قصدت بشكرك المعطي القدير، والواهب العظيم، وإلا فإن العقل السليم لا يقرر خطاب الأحجار والأطلال.

ولما انتهى من كلامه أمعن في سيره، وانبعث إلى الطريق، وكأنه زوبعة تثور أو عاصفة تهيج، وتركني أتلمس آثاره في طريقي إليه... وحينما واجهته كانت قدمي تشكو الإجهاد، وكان العرق يتصبب مني فيغشي عيني، حتى أكاد لا أبصر طريقي بهما، ورأيته ينتظرني ليستقبلني بترحيب جديد.

وليقول لي: أرجو أن يكون جهدك فوق طاقتك، وتعبك فوق مستوى جسمك، بينما كان الترحيب العرفي يخالف هذا الأسلوب تماماً، فهو يرجو لي ذهاب العناء، وهو يطلب لي الراحة التامة.

فقلت له: إني لا أفهم ما تقول، أوضح لي مقالك لأصل إلى مرامي كلامك فقد أضاعتني المجازات العرفية، إنك تخالف العرف الجاري في كلامك ودعائك، وبما أنك لا تنطق إلا عن حكمة، ولا تسير إلا إلى صواب، لذلك أرجو منك أن توضح لي غرضك من هذه التحية الجديدة.

الراحة والتعب

قال لي: إن راحة الروح في تعب الجسم، ونشاط العقل في جهد الفكر، والإنسان يمتاز بعقله، ويعيش بروحه، فما فائدة العيش إذا كان العقل مجهداً من الكسل، والروح تعبة من البطر، وهذه حقيقة لا يعيها إلا منْ لمسها بجهاده، ووصل إليها في سير وجدانه، وها أنا ذا وقد نيفت على الستين وذقت حلو الحياة ومرها، ودرست أطوار الزمن وأخباره، عرفت هذه الحقيقة، وأن الراحة في التعب، والنشاط في الجهاد، ولذلك دعوت لك بهما.

قلت له: أيها المرشد الخبير والأستاذ الكبير إني أجد لذة في صحبتك، ولذة بحديثك، وكل ما أرجوه منك أن لا تضجر من صحبتي لتزداد بها لذّتي، وأن لا تمل حديثي لترتاح فيه حياتي، زدني أدباً لازداد معرفة، وأكثر من كلامك لازداد قرباً من مقامك.

قال لي ـ وقد قطب وجهه ـ: إني لا أريد أن تبقى شاعراً يهيم في أودية الخيال، وأديباً يحلق في آفاق الأحلام، إني أريد أن تترك هذه الأبراج العاجية لتنزل معي إلى دنيا الحقائق وعالم الواقعيات، إننا نريد أن نلمسك الحياة، وأن نقربك من نفسك، لتشاهد المشاهد عن كثب، إنكم معشر الشعراء أصبحتم عالة على العقول بل علة لها، تقرّبون البعيد وتبعدّون القريب بهذه الشاعرية

الساحرة، ولذلك يلزمني أولاً أن أجعلك تنسى الشعر وآفاقه، لئلا تشغلك أوهامه عن الحقائق، إن الشعر لذيذ للبائس الذي يريد أن ينسى بؤسه، وللعاشق الذي يعاني فراق معشوقه، وللمريض الذي أسهدته آلامه.

أما نحن فإننا والحمد لله دخلنا الحياة أصحاء من كل نقص عقلي أو علة جسمية، ولذلك لا بد لنا من غذاء ينمو به الجسم والعقل، أما الدواء فهو للمرضى لا للأصحاء والشعر كما عرفت دواء لا يستسيغه الإنسان الصحيح.

أنظر إلى هذه الصحراء وتمعن في مناظرها الخالية، فستجد الجمال الملموس يطالعك من رمالها الذهبية، وسرابها المائج، وأمادها الواسعة، كما وستجد الجلال المحسوس يواجهك في هذا السكون المدهش، وهذه الروعة الخالبة.

إن الصحراء عالم مستقل يحكمه الجلال والجمال، ومن الصحراء يستنزل الوحي الأنبياء ويستلهم الفلسفة الحكماء، وتثور قرائح الشعراء، إن الصحراء جنة الأرض السحرية، ولذلك لا يرتاح بها إلا من تبدت له كنوزها المطلسمة، وقليل أولئك العارفون، استعرض هذه الرمال المائجة ثم تجاوز صورها الظاهرة إلى حقائقها الغامضة، فستجد سر الحياة، ولغز الوجود يطالعانك من أعماقها النائية.

إن الرمال تحدثك عن قوافل الأجيال السالفة التي اجتازتها إلى الأبدية، كما تحدثك عن الأحياء التي تركتها بعدما صاحبتها زمناً طويلاً، فهي قد رافقت سدماً استحالت إلى بحار هائجة، ثم رافقت حيوانات ضخمة أحالها المد عظاماً نخرة، ابتلعتها هي زيوتاً لا

زالت تمور في أحشائها، ثم مرت بها عواصف ثلجية أبادت الحياة لولا أن عارضتها أجرام تبث الحرارة فيها، فانبعثت الحياة بها مرة ثانية، ووُلدت الأحياء فيها من جديد، وتوالت عليها هجمات الموت والحياة في الحيوان والنبات، حتى اضمحلت كلها لتبقى هي رائعة بأمواجها الذهبية، ولنمر عليها نحن في سفرنا لتسألني عنها، فأحدثك ما سمعته منها، انها تحدثني لا بلغة الناس، فللصمت منطق تفهمه الحكماء، وللسكون حركة تشعر بها الفلاسفة.

إن حركة الحياة في هذا السكون الموحش أشد من حركتها في ضجيج المجتمعات الصاخبة، وان منطق الصمت لأبلغ من منطق الخطاب البليغ، ولكن هذه الحركة لا تراها العين، وهذا المنطق لا تسمعه الأذن، انهما يحتاجان إلى ضمير حي، ووجدان شاعر حساس... واحسب بأني حدثتك عن الصحراء ما يكفيك، وأخذت مني حاجتك الفعلية، فهلم بنا إلى الطريق.

قلت له: سيدي الأستاذ إني لأستحي من إزعاجك بأسئلتي الفارغة، ولولا الحياء لقلت لك: بأنه لا تروني هذه الصبابات، إن ظمئي إلى المعرفة لأشد من ظمأ المحب إلى الحبيب الهاجر، ومن ظمأ المريض إلى الصحة والعافية، ومن ظمأ اليائس إلى الأمل الذهبي، إني ظمآن إلى حكمتك، ظمآن إلى فلسفتك، ظمآن إلى بيانك.

ولم يدعني لاسترسل في عواطفي، بل صاح بي: هل أنت تستحي مني ولذلك لا تتكلم؟ وهل تركت ناحية من الكلام لم يجل بها لسانك؟ إنك لا تفهم معنى الحياء، وإلا لما تعرضت بها، أن سيرتك والحياء يتنافيان تماماً.

الحياء

إن الحياء هو التعظيم المنبعث عن الحب، المنبعث عن الإيمان بصدق المستحي منه وصفائه، وذلك لأن الصدق والصفاء يبعثان الحب في القلب، وإذا انبعث الحب في قلب المرء راح ينظر إلى محبوبه كما ينظر الوثني إلى صنمه، فإذا اطمأنت نفسه بأنه لمحبوبه نظرة تخترق حجاب النفس فتقرأ أسرارها، أو كانت عين الحبيب تراقب المحب وأوضاعه، كان من الطبيعي، أن يضيق الصب دوائر خياله لئلا تمر بعالم يكرهه المحبوب، وأن يلاحظ هيئته وكلامه لئلا يلوح بشكل أو يتفوه بلفظ لا يحبه الحبيب، ولا شك بأن المحب إنما يرعى فكره ووضعه وكلامه تكريماً للمحبوب وتعظيماً له، إن هذا التكريم هو الحياء.

فالحياء هو حفظ للنفس والوضع والكلام احتراماً للمُستَحي منه.

وإن درجات هذا الحياء تختلف باختلاف مراتب الحب، فكلما اشتد الحب اشتد الحياء، وكلما ضعف الحب قل الحياء.

فإذا توصلت إلى معنى الحياء، فقل لي: هل بعثت مصاحبتي في قلبك حباً يبعثك على تكريمي وتعظيمي، فإن أجبت بالإيجاب، قلتُ لك: إن اعتراضك (والسؤال من الاعتراض) ينفي هذه الدعوى، لأنك إذا أحببت استحييت، وإذا استحييت اقتصدت

بالكلام، وراقبت نفسك ووضعك أمامي، إنك تسير كما تريد، وتتحدث بما تشتهي، وتفكر فيما تحب، وإن هذا السير والحديث والفكر يتنافى مع الحياء كما عرضته عليك.

قلت له: سيدي الأستاذ إنني في سبيل التعلم، والتعلم لا يتحقق إلاّ بالسؤال، والسؤال يقوم على الفكر، وحرية الفكر تتنافى مع مراعاة الوضع، فالوضع عالم ظاهر، والفكر عالم خفي، وإن مراقبة أحدهما تمنعك من مراقبة الأخرى لأنهما يعيشان في منطقتين متباعدتين، بل متخاصمتين، ولذلك انقسم الناس إلى فريقين، فريق أشغله الظهور عن الحقيقة، فراح يجمل وجهه وكلامه وزيه، لأنه لا يرى في الحياة شيئاً غير الظاهر، وفريق أشغلته الحقيقة فترك الظاهر ولوازمه، فهو مهمل الوضع، مهمل الزي، مهمل الكلام، لأنه يعيش في عالم ناء عن الناس ومظاهرهم، وبما أني في مقام تربية النفس، وتهذيب الباطن، كان من الطبيعي أن يشطح كلامي ويشذ وضعي، ويتبعثر زيي، فإذا رأيت مني شذوذاً كان عليك أن تنميه إلى ذلك العالم، لا أن تتحامل عليَّ بأسلوب ـ ولي العذر، إذا قلت ـ شاذ تماماً، فالجفاف يفيض من كل وجودك.

فأسكتتني قهقهته المرعبة ـ ولا أدري لماذا يبدو أكثر رهبة في ضحكه ـ فكأنه الأسد، فهو لا يبتسم إلا إذا أراد الافتراس، فبسمة الليث أشد تخويفاً من تقطيبه.

وقال لي: إذن أنا جاف في نظرك، جاف في كل وجودي، وأعتقد بأنك تنسبني إلى الجفاف لأني لا أبدو كما تريد، وكنت أظن انني قد خففت عليك صحبتي وأوضاعها، حينما أظهرت لك حقيقتها، وبأنها جزء من الدروس التي عليَّ أن ألقيها، وعليك أن تهضمها،

ولكنك لا تزال تنوء بالأنانية وأوضارها العفنة، ولذلك يلزمك أن نرجعك إلى الصف الأول لتتنقى تماماً من الأوضار والأكدار لتصبح قابلاً لمصاحبتي، وإلا فإن مصاحبتي بهذه النفسية خطرة جداً، يخشى عليك منها الدمار والانهيار تماماً.

قلت له: سيدي الأستاذ أنا بصدد التعلم، وعلى الأستاذ أن يتحمل شذوذ الطفل المتعلم، ولأني بالرغم من تجاوزي الأربعين لا أزال طفلاً أمام معارفك ومواهبك، ولقد دخلت هذه المدرسة، وآمنت بنظامها التربوي، واجتهدت في تطبيق برنامجها تطبيقاً عملياً عن صدق وإخلاص حتى تمكنت أن أجتاز الصف التمهيدي، والصف الأول بنجاح باهر تشهد لي عليه الهيئة المشرفة على المدرسة وسيرها الدراسي، ولا زالت أهوال السفرة الأولى تعاودني بين مدة ومدة فتهز أحاسيسي ومشاعري بمناظرها المخيفة، وإني لأعجب من نفسي كيف تمكنت من اجتياز تلك المسافة الزاخرة بالأهوال، ثم ازداد عجباً حين أتصور ذلك الطريق بعينه، وقد خلا وهدأ من كل مزعج ووحشة، كيف زالت تلك الأهاويل؟ وأين راحت في تلك المدة القصيرة؟

تلك أسئلة لا زالت تتردد في خاطري فتشغل وقتي، وسيادة المدير وان أجاب عنها بما رفع عن عقلي الغشاوة وعن قلبي الاضطراب، ولكن ذكرياتها لا زالت تعاودني فتزعجني، والآن وقد فرضت عليَّ المدرسة هذه الرحلة، وكرمتني بصحبة أستاذ جليل مثلك، فعليك أن تجاري عقلية تلميذك في المحاورة، لا أن تضجر من مرافقته، وتضج من أسئلته وتتطاول على الهيئة الممتحنة، وعلى أساتذة التربية في المدرسة، فتنال من كرامتهم العلمية، وهم منْ

عرفت في الصحة والقدرة، كيف تريد أن ترجعني إلى الوراء، وقد قطعت أشواطاً طويلة إلى الأمام أخذت ما أخذت من قلبي وعقلي وجسمي وروحي، إني أجلك من شطحات الفكر وزلاَّت اللِّسان.

قال لي: إني لا أزال مصراً على رأيي في عودتك إلى الصف الأول، لأننا لا نريد أن نعبر بك الصفوف، ونطوي الدروس، حتى تنال قطعة من الورق تسمى بالشهادة اننا نريد أن نربي جيلاً يفهم نفسه، ويفهم عصره، ويفهم موقفه من التاريخ، إن التربية الفكرية كالتربية البدنية، فكما أن كمية البدن وكيفيته تتغير بمرور العمر، فكذلك التربية تتغير فيها ملكات التلميذ بعبوره الصفوف الدراسية، فملكات التلميذ في الصف التمهيدي تختلف تماماً عن ملكاته في الصف النهائي، فإذا رأيناه وهو في الصف النهائي يحمل ملكات الصف البدائي نطعن بالهيئة التدريسية أولاً، وبالبرنامج التعليمي ثانياً، وبقابلية التلميذ ثالثاً.

وبما أنك لا تزال تنوء بأنانيتك التي تقاوم تعاليمي، بينما من شرائط تلميذ هذا الصف أن يكون نظيفاً من كل وضور، طاهر من كل دنس، وأن الأنانية من أنتن الأوضار والأدناس، بل حتى تلميذ الصف الأول يلزمه البراءة من الأنانية، لأن الشرط الأساسي لتلميذ هذه المدرسة أن ينسي انيته وأنانيته، وها أنك تقطع الدور الثاني من التعلم، ولا زالت أنانيتك تلوث حياتك، وتعفن جوك الدراسي، وإني لأعجب من الهيئة المشرفة على الامتحان كيف فاتتها هذه الوصمة الظاهرة في كل ناحية من حياتك، فلا غرو إذا طعنتَ فيها، ورميتَ مراقبتها بالقصور أو التقصير، هذا إذا لم يكن البرنامج قاصراً، أو لم يكن استعدادك ناقصاً، فهو لا يهضم التربية، ولذلك

سأجري لك امتحاناً آخر، فإذا رسبت فيه كان عليَّ أن أرجع بك إلى المدرسة، وعلى المدرسة أن ترجع بك إلى الصف التمهيدي ليكمل استعدادك فيه، حتى تدخل الصف الأول بقابلية كاملة.

والآن أسرع بنا فقد فات علينا الوقت، وراح يجاريني في السير، وأعتقد بأنه كان يراقب وضعي ويراقب فكري أيضاً، وقديماً كانت الفراسة تقرأ الضمائر من الوجوه، فهل يقرأ ضميري من وجهي؟ أو له علم بالضمائر من غير طريق الفراسة؟ إني أحس بمراقبته لي، وأشعر بأن عينه تجول في كل أفق من وجودي، لأكن - حتى في فكري - على حذر من هذه العين السحرية.

وهكذا سرنا والصمت يغمرنا حتى وصلنا إلى بحيرة قطعت علينا الطريق، فكان علينا أن نعبرها، وهنا كانت المشكلة، فليس فيها قارب نستقله، ولا جسر نعبر عليه، وهنا قال لي رفيقي: أرح نفسك قليلاً على ضفاف هذه البحيرة الساحرة، ومتع بصرك وفكرك بأمواجها المريعة الرائعة.

وهكذا جلسنا على شاطئها المانع، وسألني: هل لك قابلية العبور إلى الشاطىء الآخر؟

قلت له: إني لا أجيد السباحة، ولكنني لا أطمئن من قواي فإن عرض البحيرة يزيد على نصف كيلومتر، وهي مسافة طويلة، ولاسيما والماء ساكن راكد، والأمواج رقيقة لا تساعد السابح على العبور.

قال لي: إذن أنت لا تطمئن من نفسك، ولا تعتمد على فنك، وإنما تستند على قوة الموج ودفعه لك، وما أضعف من يعتمد على

الموج ويتوكل على التيار، وهما كما يعلم الجميع مسخران بقوة أخرى تدفعهما يميناً وشمالاً، فأنت إذن كهذه الأمواج الصماء لا إرادة بل لا قوة لك على المسير ولا وعي لك بمقصدك، وإن من يسير بلا قوة ذاتية ولا وعي شخصي يكون من أضعف الناس، كان عليك أن تستمد القوة من نفسك لنفسك في أعمالك، ولا تحصل هذه القوة إلا بعد دراسة الموضوع من جميع جهاته، ثم دراسة كفايتك من جميع وجوهها، فإذا هضمت كفاءتك الموضوع تقدم إليه بلا خوف من معارض، وإلا فابتعد عنه بلا استناد على شيء، فإن الله قد أودع فيك طاقة غير محدودة من القوى تتمكن فيها من تأدية الأعمال الشاقة، ولا أريد أن أقول: بأنك تستطيع أن تحقق المستحيل، فالمستحيل لا يتحقق، وإن من المستحيل أن يتمكن من عبور هذه البحيرة من لا يحسن السباحة، فإذا تعلمها أصبح عبورها من أسهل الممكنات...

قلت له: سيدي الأستاذ إن مراعاة التيار ومسايرة الموج من جملة قواعد السباحة، فأنا إذا اعتمدت على الموج أو جاريت التيار لم أكن مخالفاً لأصول فن السباحة وقواعدها، بل إنما أطبق قاعدة من قواعدها عملياً، فأنا لا أعتمد إلاَّ على الفن وعلى نفسي حينما أعتمد على الموج في سباحتي، فليس كل منْ يعتمد على نفسه لا يعتمد على الموج، وليس كل منْ يعتمد على الموج لا يعتمد على نفسه، وهل سياسة الاجتماع إلاَّ الاعتماد على الموج وإلاَّ مجاراة الرأي العام، لأن التيار لا يكبح إلاَّ إذا جاريته فعرفت مواطن الضعف فيه، ثم نفذت إلى قواه فلويتها كما تريد.

قال لي: إنك تحدثني عن سياسة الاجتماع المبتنية على النفاق

والخداع، والتي لا يفهمها الوجدان ولا يقبلها الضمير، إنني إمَّا أن أؤمن بفكرة فأتبناها، وإمَّا أن لا أؤمن بها فأبتعد عنها تماماً، إن مجاراة المحيط الممقوت، والرقص على نغمة لا يحبها الذوق شيء يأباه سلوكي الفردي والاجتماعي، فالإنسان الحر لا يقبل القيد ولو كان من ذهب، ولا يهضم المرّ ولو كان من غرس الجنة، وبما أنك تعيش في وطن العبيد، طاب لك الخنوع، لأن الاستعمار الدولي فرضه عليك، فرحت تتجرعه حتى اعتدت عليه، بل وحتى أصبحت له قاعدة كلية تعتمد عليها سياسة الاجتماع، ولذلك ماتت فيكم روح الحرية، وفسدت في عروقكم الدماء، وزال من أعصابكم النشاط، فأنتم لا تعتمدون إلا على النفاق، ولا تسايرون إلاَّ التيار، ثم تحاولون أن تلبسوه عنوان الفن ليقبله الذوق، ولتصبح مجاراة التيار من صميم الفن.

إنك لا تكون عبداً لنفسك تخدمها حتى تتحرر من عبودية غيرك ولا تتحرر من عبودية غيرك حتى تقطع احتياجاتك من ذلك الغير، فالحاجة طوق العبودية يضعها الأجنبي على رقبتك فيقودك فيها كما يشاء.

ولا أعني بالاستغناء عن الغير استغنائك في العناوين العامة التي تقوم بها المجتمعات، كالحرف والمهن والفنون والعلوم، لا، لا أعني ذلك، فإن تكوين المجتمع بأعضائه، فحياته بحياة الأعضاء، فكما يقوم كل عضو من أعضاء بدنك بوظيفته الخاصة، فالعين تبصر، والأذن تسمع، واليد تلمس، والقدم تسير، ومنها يتكون هيكلك الموقر، كذلك الاجتماع فعاليته بفعالية أعضائه، فالطبيب يداوي، والمهندس يرسم الخطوط، والبناء يبني، والبقال،

والعطار، والنجار، وو... إلى ما يحتاجه المجتمع، فكل من هؤلاء يكون لبنة من المجتمع، ومنهم جميعاً يتكون المجتمع.

فأنا لا أعني من استغنائك استغنائك عن هذه الأعضاء، وإنما أعني أن النجار ينبغي أن لا يعتمد في مهنته على العطار، والطبيب لا يستند في عمله على الأديب، والمهندس لا يتكي في فنه على الصيدلي، وهكذا، لأن هذا الاستناد يميت فيهم روح الحرية، وينشر فيهم التخاذل ويكبل كل واحد منهم بطوق العبودية للآخر.

بل ينبغي أن لا يعتمد الطبيب في اختصاصه حتى على طبيب آخر، إلا إذا أدَّى إلى خيانة الإنسانية بخيانة العلم، وإنما يقوم بوظيفته حسبما تفرضه عليه مهنته، وتطيقه طاقته العلمية، ولو اعتمد الطبيب في وظيفته على طبيب آخر مثله، وترك واجبه المهني كان مثله مثل الدولاب الغاص بالكتب، كل فائدته أنه يضم الكتب فقط، إنه لا يفيد بعمله ولا يستفاد من علمه، وربما سرت روح التخاذل منه إلى أبناء مهنته، فاعتمد كل منهم على صاحبه، وتكون النتيجة أن المريض يموت لأنه لا طبيب له يداوي مرضه، بينما القطر يفهق بالأطباء، كالظمآن يموت عطشاً وهو على الماء، وفي مثل هذا المحيط تخور العزائم، وتخان الواجبات، وتتعطل الأعمال، فيطمع بالوطن الطامعون، وتمد العبودية أشراكها لتصطاد هذا الشعب المتخاذل، إن الإنسان الحر ينبغي له أن يفهم أنه إنسان. وأنه حر، ولأجل أن نفهم الحرية، أعرض عليك حقيقة العبودية.

العبودية

إن العبودية هي فقد القدرة من كل شيء، فهو لا يستطيع أن يعمل أو يقول شيئاً باختياره، وإنما حياته بيد مولاه، يوجهها حسبما يشاء، فهو لا يقوم إلا حينما يريد المولى قيامه، وهو لا ينام إلا حينما يريد المولى منامه، فهو لا يستفيد من مواهبه ومخصصاته، وإنما فائدته لمولاه فقط، فهو الذي يوجهها حسب مصالحه العامة أو الخاصة.

والحرية هي ما تقابل هذه العبودية تماماً، فالحر هو الذي يستخدم مواهبه ومخصصاته كما يشاء هو لا كما يشاء غيره. ولذلك قلت لك: إن الحر إذا ترك مخصصاته لغيره كان عبداً من هذه الناحية لذلك الغير، إذا سرت العبودية في ناحية من نواحي الحياة، أصبحت النواحي الحرة أيضاً مهددة بالعبودية.

فعلى الشعب الحر أن يحرر حياته من قيود العبودية، ليعيش كما تريده الحياة، وإلا فهو غرض لهجمات المستعبدين ما دامت العبودية تحتل قسماً من حياته، لأن رائحة العبودية تجذب وحوش الاستعباد إلى نفسها كما تجذب رائحة الطعام الهرة الجائعة إلى مكمن الطعام، وإن مجاراة التيار من وسائل العبودية وحبائلها، فالذي يعتمد على التيار يفقد الثقة بنفسه، وإلا لما اعتمد على التيار.

والفن الذي يعتمد على التيار أيضاً فن استعبادي نشرته العبودية لتصطاد به الثقة بالنفس حتى تتكل على الغير، وإذا زالت الثقة بالنفس، أصبحت النفس مسخرة لمنْ تثق به وهو معنى العبودية.

وبعد كل هذه المقدمات، هل تتمكن من عبور هذه البحيرة؟ فإن سفرنا متوقف على عبورها.

الإرادة

خلعت ثيابي وشددتها برأسي ووضعت رجلي في البحيرة لأقيس ماءها، وإذا برجلي تغوص فيغوص بدني كله، وإذا بالماء يغمر ألبستي فتثقل كاهلي، وأردت أن أرميها في البحيرة لأخفف عن جسمي.

وإذا به يصيح بي: أن تسافر عرياناً، أنا لا أصاحب العراة في السفر، لأني لا أحب جمعية العراة التي شكلتها الوحوش البشرية في ألمانيا.

وكدت أن أجيبه بغلظة وشدة لولا أن رأيت نفسي أبتعد عن الشاطىء إلى وسط البحيرة، فرحت أسبح وأسبح حتى كلّت قواي، كنت أنا أسبح وحضرة الأستاذ يتفرج على سباحتي من الشاطىء، يا إلٰهي ما هذه القساوة؟ أهذا الذي يدّعي توجيه البشرية، أتراه من البشر؟ إن قلبه من الفولاذ والحجر، وفاجأتني موجة دفعتني إلى القعر حتى شربت كثيرا من ماء البحيرة وكان مالحاً، وكدت أن أفقد توازني واستسلم للغرق، لولا أن أهاب بي حب الحياة ودفعني لأن أجاهد بنفسي، وأوجه عزمي إلى التخلص من هذه الورطة، وهكذا رحت أسبح وأسبح حتى قاربت الشاطىء الآخر، وكدت أن أخرج من الماء وحينما رأيت رفيقي يسبح أمامي، وينزل إلى الشاطىء الثاني قبلي فأخذتني الحيرة، فمتى نزل إلى الماء؟ ومتى وصل إلى الشاطىء؟ وأنا الذي رأيته قبل لحظات يتفرج على سباحتي، وكأني

ممثل يعتلي المسرح ليقوم بدوره التمثيلي، وكأنه ناقد صحفي يستعرض تمثيلي ليسجل عني نظرياته في صحيفته، فمتى نزل إلى الماء؟ ومتى اجتاز هذه المسافة حتى عبر البحيرة قبلي؟ إنه والحق يقال يتمتع بقوى خارقة، فهل كان يستمدها من السماء، أو كان يستمدها من الجحيم، فربما يكون ملاكاً سماوياً، وربما يكون شيطاناً من أبالسة الجحيم.

وكادت الأفكار المتشتتة تخرجني من وضعي وتفقدني توازني فأغرق وأنا على قيد خطوات من الشاطىء، لولا أن أهاب بي وصاح: توجه إلى نفسك ودع التفكير بغيرك، وأنقذتني صيحته فرحت أسبح بنشاط حتى وصلت إلى الشاطىء وخرجت من الماء لأنشر ثيابي في مجاري الريح لتغدوا صالحة للبس بعد الجفاف.

وجلست أمامه، فلم يلتفت إليَّ، وكأني لم أقم بهذا العمل الجبار، أو كأن العمل تافه لا يستحق لفتة من حضرته.

وبعد مدة قليلة قال لي: هل تذوقت لذة الاعتماد على النفس؟ وهل فهمت أن الحياة لا تحصل إلا بالاعتماد على النفس، لا كما تزعم بأنها تتوقف على مجاراة التيار، إن الاعتماد على التيار هو الذي أمات الشرق الحي، والاعتماد على النفس هو الذي بعث الغرب المائت إلى الحياة، فلولا أنك يئست من مساعدتي لما حصلت عندك هذه العزيمة القوية، ولما انبعثت فيك تلك الهمة العالية، ولما وصلت إلى الشاطىء سالماً، إنك كدت أن تترك ألبستك ضعفاً وخوراً، كما ترك أبناء وطنك وطنهم للأجنبي ضعفاً وخوراً، إن العزيمة الصادقة التي تخلق الحياة تخلق القوة، ولكي نفهمها كان علينا أن نفهم معنى الصدق وموارده.

الصدق

الصدق هو مطابقة الحال للواقع، فإذا طابق الخبر الواقع كان صادقاً، وإذا اتجه القصد إلى المقصود كان صادقاً، وإذا ميزت النظرة خير الشيء وشره كانت صادقة، وإذا طابق صدقك الحق كان الصدق صادقاً.

فالصدق قد يكون في القصد، وقد يكون في القول، وقد يكون في النظر، وقد يكون في الصدق نفسه، فالعمل لا ينتج إلا إذا كان القصد منه صادقاً حتى يندفع إلى العمل بهمة ونشاط، فإذا صدق القصد وُجد العمل، والقول لا تستفيد منه الإنسانية إلا إذا كان صادقاً، وإلا فالكلام عبء ثقيل على الإنسانية يجب عليها التخلص منه، والنظرة لا تنفع إلا إذا ميزت موارد الأمان من موارد الهلاك، ليسير إليها، وليأمن نفسه شر الدمار، والصدق لا يفيد إلاَّ إذا طابق الحق، ومعنى مطابقته للحق، أن يكون مما يريده الله، لأن الله لا يريد إلاَّ خير الإنسانية، ولا يكره إلاَّ شرها.

ولقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (سورة محمد، الآية: ٢١)، لأن من صدق الله في عزمه وقوله ونظره وصدقه، لما جاء إلاَّ بالخير لنفسه وللإنسانية، ولقد صدقتك حينما قلت لك: لا تعتمد إلاَّ على نفسك، إذ لو كنتُ

كاذباً في قولي لكنتَ الآن من المغرقين، وأعتقد بأن ثيابك قد جففتها الريح، فقم والبسها فإن الشمس تكاد تغرب ونحن لا نستطيع أن نقضي هذا الليل في هذا المكان.

وهكذا سرنا. وسرنا بنشاط جديد، فكأن السباحة قد بعثت في أعضائي قوة جديدة فكان يسرع في سيره فألحقه، وربما كنت أتقدمه في السير، فيصيح بي: إن القافلة إذا تقدمت على الدليل مرقت وضلَّت، وطال سيرنا وسكوتنا حتى وصلنا إلى سفح جبل قطع علينا الطريق بطوله وعرضه، فلقد طاول السحاب بارتفاعه، وعارض الريح بقطره، وكان التعب قد أجهد قواي، ولكنني تماسكت على نفسي حتى انطرح على الأرض، فجلست أمامه، فقال لي: أظن أن السير قد أجهد قدميك والصمت قد أجهد شهوتك للكلام، فأنت تحب الألفاظ أكثر مما تحب المعاني، وذلك من طبيعة الشعراء، لأنهم أبناء الألفاظ ينسقونها حسبما يوجههم الذوق الفني حسب اصطلاحهم المغلوط، فيبنون منها بيتاً أو أبيات يسمونه الشعر، وقد يرتفعون به عن أرضه السحيقة إلى السماء العالية، فيسمونه الوحي، وأنت تعلم أن الوحي تنسيق الحقائق والمعاني، والشعر تنسيق الألفاظ والكلمات، والألفاظ وإن كانت قوالب للمعاني، لكنما قد يكبر اللفظ عن المعنى، فيكون كثوب الشاب الفارع يلبسه الطفل الراضع، فهو لا ينسجم مع المعنى في كل شيء، وأكثر الشعر من هذه الفصيلة، وربما تلاءم اللفظ والمعنى، فشف اللفظ من المعنى، وشف المعنى عن اللفظ، ومن ذلك قول الصاحب بن عباد.

دق الزجاج ورقت الخمر فتشابها وتشاكل الأمر
فكأنه خمر ولا قدح وكأنه قدح ولا خمر

فإنه قاتله الله قد قطع الألفاظ على قوالب المعاني تماماً، فرقة الزجاج ورقة الخمر، واشتباه كل منهما بالآخر، وحدوث مشكلة فهم الخمر من القدح والقدح من الخمر، كل هذه الأُمور قد سجمها في هذين البيتين، فلا يمكن أن يشذ لفظ منهما عن المعنى، ولا يبعد معنى فيهما عن لفظ، وربما يضيق اللفظ عن المعنى، لأن اللفظ لا يسع عالمه هذا المعنى الواسع، وتجد أمثلة في شعر السيد الرضي وأبي العلاء المعري، ولا أستحضر من شعرهما شاهداً له في خاطري، لأني قد قاطعت الشعر حتى جعلت ذاكرتي تنسى كل ما حفظته في زمان الشاعرية،.. هذا هو الشعر.

أما الوحي فإنه حقائق تتجلى في دنيا الألفاظ، وأقول تتجلى ولا أعني أن تجليها يكون كامل التقاطيع، لا، لا أعني ذلك، وإنما أريد أن أقول: بأن اللفظ يظهر منها ما يسعه الاظهار، وإلا فلها عوالم كثيرة لا تصل إليها الألفاظ ولو احتلت لغات الشعوب، ولهجات سلالات البشرية جمعاء.

ولذلك قيل: بأن للقرآن سبعة وسبعين بطناً أو أكثر من ذلك، لأن المعاني تتجلى في الألفاظ على مقدار بصيرة المقرىء أو المستمع، ولا شك بأن المدارك تختلف قوة وضعفاً، فرُبَّ إدراك يفهم من الآية معنى لا يفهمها إدراك آخر، ورُبَّ ذهن يصل إلى حقيقة لا يقرب إليها سواه، ولذلك تباينت التفاسير لتباين المفهوم والمدارك، ولهذا الغرض وجه صاحب الوحي خاتم الأنبياء محمد ﷺ المسلمين في الرجوع عند معنى الآيات إلى عترته وهم آل بيته الأبرار، لأنهم أخذوا الوحي من معدنه، ودرسوا القرآن على صاحبه، فهم يفسرونه حسب واقعه، لا كما يصل إليه فهم المقرىء

أو المستمع، ومن طريق آل البيت عليهم السلام وصل إلينا بأن للقرآن سبعاً وسبعين بطناً، ولا أدري بأنهم هل أرادوا بالبطون ما أردناه وأعني به المعاني التي تتجلى على المدارك حسب مراتبها، أو أنه له معان مخصوصة لا تدرس إلاَّ في أحاديثهم عليهم السلام، وعلى أيِّ حال إن الفرق بين الوحي والشعر كبير جداً.

ولقد طالت بنا مقدمة الحديث حتى كدت أن أنسى ذا المقدمة، فقد كنت في سبيل نقد الهذر والهذيان، لأوجهك إلى الأسلوب اللائق بالمجتمع الإنساني.

الكلام

فالصمت أشرف من الكلام، ولذلك أعطاك الله أذنين ولساناً واحداً، لكي تسمع ضعفي ما تتكلم، فربما تكلمت بشيء يخرج عن الموضوع، أو يزيد عليه، أو ينقص عنه، وربما جرَّ الكلام صاحبه إلى الهلاك، فعليك أن تقتصد في كلامك، وأن تجود بصمتك، فبالصمت تستر العيوب، والصمت رمز الوقار، ولذلك حينما تقيسه بالكلام يكون ذهباً والكلام فضة، وإنما يكون الكلام فضة إذا كان مطابقاً لمقتضى الحال، وإلاَّ فهو تراب بل أرخص من التراب.

قلت له: سيدي الأستاذ إنك تذمُّ الكلام الكثير، وأنت تكثر منه، فإذا كان نقصاً للرجال لماذا تتلبس به؟

وإذا كان كمالاً لهم لماذا تمنعني منه؟

قال لي: كنت أنتظر منك هذا الاعتراض لأنك تستعجل في إظهار عواطفك، ولو تأملت قليلاً لأمسكت لسانك عن الاعتراض ولعرفت الجواب قبل السؤال: إني أستاذك، والأستاذ صناعته إرشاد التلميذ، وآلة الإرشاد هو الكلام، فكلامي متاعي الذي أعرضه على المدرسة لتشتريه مني، لتجرد به على تلاميذها، فلا غرو إذا طال حديثي وكثر كلامي، فإني في مقام التفضل والجود، وهو مقام يُمدح

عليه صاحبه، أما أنت فإنك تلميذ، يلزمه الاستماع ليعي أقوال أستاذه، فإذا توجه إلى الكلام فاته السماع ففاته الوعي.

قلت له: سيدي الأستاذ هذا الليل قد غشينا، وأظنك تحاول أن تقضيه في سفح الجبل، وهو مكان لا بأس به، لاسيما وذلك الغار الذي يتراءى لنا مكان نتقي به لسعات البرد ووخزات رياح الشتاء القارصة، فهلم بنا إليه.

فقال: لا بأس بالمكان إذا كان خالياً من الحشرات السامة والحيوانات المفترسة.

وقام وقمت خلفه حتى وصلنا الغار، فأسرجت الضياء الوحيد الذي كان معنا، وسلطته على جوانب الغار، فإذا به خال مما كنَّا نحذر منه فدخل إليه وتبعته.

ثم قال: إن لي مع الليل مناجاة لا يطيق استماعها منْ كان في مثل منزلتك في المعرفة، فنم أنت في ذلك الجانب ودعني والليل ومناجاتي.

فتركته لنفسه، ورحت افترش الأرض وأتوسد الحجر، وسرعان ما فاجأني النوم وزارتني أحلامه الشهية، ولم أفق إلاَّ على صوته وهو يدعوني للقيام، فقد طلع الفجر، وإن علينا أن نصعد هذا الجبل الشاهق.

رفعت نظري إلى الجبل فارتد عنه وهو حسير، من أي طريق يريد أن يصعدنا هذا الأستاذ؟ فهذا الجبل الأملس لا طريق له لكي نخترقه، وليس لنا وسائل الصعود إلى الجبل كالحبال والمسامير وغير ذلك من أدوات الصعود، فكيف يريد منَّا أن نصعده؟ هل

نستعير من الطيور أجنحة نحلق بها إلى ذروته؟ أو هل ينتظر طائرة هيلوكبتر تصعد بنا إلى قمته؟ أنا لا أدري، وكلما أدري أنه يريد منَّا الصعود ولا بد لنا منه، إن طريقي إلى المقصد وهو طريق مستقبلي المنتظر في الحياة منحصر في صعود هذا الجبل الأصم.

وصاح بي: أن تقدمني إلى الصعود فإني لاحق بك، وهل يسعني إلاَّ الامتثال؟

فرحت أزحف وأجر قدمي جراً وأنا أعتلي الجبل، ولا أدري كيف تسلقته، وإلاَّ كيف تمكنت من الصعود إليه مسافة تقرب من مائة قدم، وكلما أحسست به اني بعدما كنت أتخوف الصعود أصبح لي أمراً عادياً سهلاً، فقد كان لا يحتاج إلاَّ أن أثبت رجلي في حفرة منه أثبت يدي في حفرة أخرى ثم أنقل رجلي إلى حفرة يدي وأفتش ليدي عن حفرة أخرى في الجبل، وهكذا رحت أصعد وأصعد حتى قاربت القمة، وهناك أدرت وجهي ونظرت إلى السفح فكادت تدور بي الأرض وأسقط من ذلك العلو الشامخ، إذ رأيت صديقي لا يزال جالساً في مكانه وكأنه عصفور صغير، وقد أصبح بيني وبين القمة ما يقرب مائة قدم رحت أعتليها بسهولة، وحينما شارفت القمة أحسست برفيقي الأستاذ يمر عليَّ فيجتازني إلى القمة، ما هذه القوة الخارقة؟ انه ليس من البشر! وأخيراً بلغت القمة، فاستقبلني الأستاذ بابتسامة شفت عن رضاه، ولقد سررت كثيراً لرضاه، لأنه يشف عن نجاحي في امتحاني، فقد كاد يرجع بي إلى الصف التمهيدي، وها هو يرضى عني، وكانت فرحة كبيرة احتفلت بها مشاعري، ورحت أصافحه وأشكره على تربيته وتدريبه.

فقال لي: إنك نجحت في هذا الدرس المستصعب، وستبقى

في صفك على شرط أن تقتصد في كلامك وتفكيرك، فإن مستقبلك يحتاجهما فاختزنهما له.

فقلت له: سوف أطبق نصائحك عملياً، وسوف أسير على توجيهاتك، وسوف أقوم بكل ما تأمرني به، فإني أسلمت إليك قلبي وعقلي، وأثرت صحبتك حتى على صحبة أحلامي، فإن لذة الأحلام موهومة، ولذة صحبتك يلمسها القلب والعقل.

قال لي: أتحسب انك آثرتني على أحلامك، فهل تفهم حقيقة الإيثار؟

الإيثار

إن الإيثار هو تنازل المرء عن حق من حقوقه أو ملك من أملاكه، اختياراً للغير عن حب وعاطفة بدون عوض، ولا شك بأن تنازل الإنسان عن حقه أو ملكه أمر مستصعب، ولاسيما إذا كان قد كابد في تحصيلهما مشقة وأذى.

ولذلك كان الإيثار من مراتب الولاية، لأنه لا يتنازل المرء العاقل عن حقه أو ملكه إلاَّ بعد أن يفهم أن ما حصل عنده لم يكن بحوله وقوته، لأنهما لله ـ لا حول ولا قوة إلاَّ بالله ـ وإنما كان آلة وظرفاً مختاراً لهما، ولقد وجههما اختياره إلى تحصيل ما حصل عليه من الحقوق والأموال ولقد أحب صاحبهما وهو ـ الله ـ الإيثار، فلزمه أن يحب ما يحب، حتى ينبعث إليه عن طوع ورغبة ليكون إيثاراً، وإلاَّ فليس مطلق الانبعاث إيثاراً محبوباً لله.

فإذا أحب الإنسان ما يحب الله أصبح يرضى برضائه ـ وإن لم يرض برضائه أحد من الناس ـ ويسخط بسخطه ـ وإن أسخط في سخطه الناس ـ فهو إنما يطيع وجدانه، ويُرضي ضميره، وما الوجدان والضمير إلاَّ دليلا الإنسانية في الحياة، وإلا مميزاً هذه الفضيلة من فضائل الحيوانات، لأن الوجدان هو الذي يرشده إلى أن يحب ما يحبه الله، والضمير هو الذي يبعثه على أن يكره ما لا يريده الله.

وخلود المرء بنزاهته، ونزاهته بإطاعة وجدانه وضميره، فإذا وعيت معنى الإيثار.

فقل لي: أي حق من حقوقك أو ملك من أملاك تنازلت عنه لي لتكون مصداقاً من مصاديق الآية الكريمة، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (سورة الحشر، الآية: ٩)، فأي شيء كانت نفسك محتاجة وفقيرة إليه تنازلت عنه لي؟ هل كان ذلك صحبة أحلامك؟ وهي التي حسب تعبيرك عنها تمنحك اللذة الموهومة، وهب أنها كانت حقاً من حقوقك المشروعة، لكن تنازلك عنها لم يكن بلا أجر ولا عوض حتى يكون إيثاراً، لأن الإيثار ـ كما عرفت ـ هو التنازل بلا عوض، وإنما تنازلت عن لذة موهومة لتأخذ عنها لذة محسوسة ـ كما عبَّرت أنت عن أثر مصاحبتي ـ ولذلك أرجو أن تتقيد بعد هذا في أحاديثك لكي لا تشطح فتحاسب، فإن لكل كلمة معنى، ولكل معنى آثاره، وبما أنك تربيت في محيط الثرثرة والهذر، كل ثروته ألفاظ فارغة عن المعاني.

فترى المرء فيه يعطيك إخلاصه وولاءه باللسان، فإذا طالبته بالأثر رأيته يزور عنك، ويبتعد منك، ويقابلك بأني لست عبداً لك أو لأبيك، ولا مستأجراً عندك يتقاضى عوضاً عن عمله المال، فإذا سألته عن إخلاصه وولائه الذي منحهما لك قبل لحظة، أجابك: بأن ذلك (روتين) اجتماعي يقوم به حسب الأصول الاجتماعية، فهي ألفاظ فارغة، تشبهها الألقاب التي تسبغها الصحف والمجلات على قرائها وهيئة التحرير فيها، فذلك أستاذ كبير، ذاك علاَّمة جليل، وذا فيلسوف عظيم، وهذا أمير الشعراء، فإذا طالبتها بما يثبت هذه الألقاب، أو حاسبتها على خلق هؤلاء الكبار والأمراء أجابك

أصحابها: بأن ما تقرؤه مثلما تسمعه من الناس ألفاظ فارغة من المعاني، وإلاَّ فإن للعلاَّمة آفاقاً لم يصل إليها إلا نزر يسير من الناس في عصور العلم ـ كالعلاَّمة الحُلي ـ وللأدب عوالم لم يستوعبها إلاَّ القليل ممن يشتغل بالأدب ـ كالجاحظ ـ وللفلسفة آماداً لم يحلّق بها إلاَّ المختار من العقول ـ كابن سينا ـ وللشعر سماوات لا يعرج إليها إلاَّ النادر من القرائح ـ كالسيد الرضي ـ فإذا كان الحُلي علاَّمة فلا علامة لنا، وإذا كان الجاحظ أديباً فلا أديب عندنا، وإذا كان ابن سينا فيلسوفاً فلا فيلسوف فينا، وإذا كان الرضي شاعراً فلا شاعر بيننا، إننا نسبغ هذه الألقاب بلا حساب على الناس، لأننا لا نريد منها معانيها، ولو أردنا المعاني لما وجدنا لها مصاديق في الخارج أبداً إننا نعيش في دنيا الألفاظ، منها نبدأ واليها نعود.

وأعتقد بأننا تأخرنا في هذه القمة الموحشة، ولذلك يلزمنا النزول منها إلى الجانب الآخر، وإني أتقدمك فاتبعني. وراح يتلوى في نزوله كالأفعى، وتبعته وأنا أساير خطواته، وأقلد حركاته حتى وصلنا إلى الجانب الثاني، فإذا به يشرف على روضة غناء، وجنة وارفة، فأشغلني المنظر عن رفيقي فلم التفت إلى جلوسه، ولولا صوته الرنان لرحت أعدو إلى البستان، ولكنه أرجعني إلى نفسي وإليه حينما قال لي: إلى أين تروح؟ أتريد أن تسبق الدليل في هذا الطريق الموحش؟ وكيف يكون مصيرك لو تركتني أو تركتك في هذه الصحراء المخيفة؟ أظنك انشغلت بالبستان عني، فرحت تقصده بجميع مشاعرك، أترى كان هو مقصدنا الذي سافرنا لأجله؟ وهكذا أنتم أبناء هذا الجيل الجاهل، تغركم المظاهر فتنجذبون إليها، من غير أن تفتشوا ما وراءها، لمن هذا البستان؟ وكيف وُجد في هذا

البر الأقفر؟ وأين زارعها؟ وهل وجودها رحمة للمسافرين. أو أنها شرك يصطاد به عشاق المظاهر؟

تلك أسئلة عليك أن تلقيها على عقلك، فإذا أجبت عنها بما يرفع عنك المحذور سرت إليها، وهناك عثرة تضعها الشريعة السماوية في طريقك وهي رضا مالك البستان، فإنه لا يجوز دخولك إليه إلاَّ بإجازة خاصة من المالك، وأين مالكه لكي يأذن لك بالدخول؟! فاسترح معي قليلاً، وتمتع بمناظرها من بعيد، فرُبَّ منظر يعجبك جماله من بعيد فإذا قاربته أزعجتك حقيقته المفزعة، ويؤسفني أن أكثر أبناء هذا الجيل مصاديق لهذه الجملة المؤلمة، فهم يغرونك بالمظاهر، فإذا عاشرتهم نفرت منهم وأسفت على العمر الذي صرفته في معاشرتهم، فاجلس معي لنجيب على هذه الأسئلة، ولنا بعد ذلك مجال طويل في زيارة البستان، هذا إذا وجدنا للمشاكل حلاً مقبولاً، وإلاَّ فسنتوجه إلى مقصدنا من غير هذه الطرق، فلمقصدنا طرق كثيرة، وأظنك تعرف بأن مقصدنا إلى الحق، (والطرق إلى الحق بعدد أنفاس الخلق) وربما يأتي زمان أتحدث لك عن هذه الجملة، لتصل إلى حقائقها السامية.

جلست أتطلع إلى البستان، فسحرتني أشجارها اليانعة، وقرع سمعي خرير شلال من الماء ينزل من الجبل ويصب في نهير يتوجه إلى البستان ليسقي أشجارها وأزهارها، ولقد كان تنسيق أشجارها يدل على أن يداً من البشر هي التي أوجدت البستان، فإن التنسيق مفقود في أشجار الغابات.

قلت لرفيقي الأستاذ: أظن أن أحداً من الأعيان مرَّ بهذه الأرض، فرأى الشلال الذي يصب في هذا المجرى ويمر بهذه

الأرض التي دلَّت الأعشاب النابتة في شاطىء المجرى على أنها تربة خصبة صالحة للزرع، فراح يستملك هذه القطعة منها، ويغرس فيها هذه الأشجار والأزهار، بأسلوب فني رائع، كما أعتقد أنه أباحها للعابرين، ولاسيما الذين يهبطون من هذا الجبل المتعِب، وبهذه النظرية الفرضية يرتفع كل ما فرضته من المحاذير، وخلاصته:

إنها بستان مملوكة لثرىٰ يحب اللهو والجمال أباحها للعابرين، إذ لو لم يرض أن يدخلها أحد من الناس إلاَّ بإذنه لما أباح حماها، فجعلها بلا سور ولا باب ولا كلب يحرسها، فنفس وجودها بلا معارض دليل على عدم معارضته للدخول.

قال لي: هب اني صدقتك، وأخذتُ برأيك، وذهبتُ معك إلى البستان، وهناك عرفتَ انك اشتبهت في رأيك، فصاحب البستان لا يرضى أن يدخل إليها أحد من الناس، أو أن في البستان من المحاذير التي لا ينبغي لنا أن نجازف بأنفسنا فيها، فمنْ المسؤول عن الدخول، هل المسؤولية تقع عليك، لأنك سهلت لنا الأمر بأخيلتك وتصوراتك؟ أو أنها تقع عليَّ، لأني مسؤول عن كل حركة وسكون عنك في هذه الرحلة؟ لا شك بأن عبء المسؤولية يُلقى على عاتقي، وأكثر من ذلك أنني سوف أكون موضع ملامة المدرسة وهيآتها التعليمية، حيث أخذتَ برأيك، بينما الوظيفة تقرر أن تأخذ أنت برأيي، فأي أستاذ ضعيف أنا؟ وأي تلميذ شقي أنت؟ ولذلك ينبغي لي أن أدرس موضوع الدخول بنفسي، فإذا اقتنعت بعدم وجود مانع في البين صاحبتك إلى البستان.

وتركته يفكر قليلاً، ثم يقول لي: لا مانع عندي من الدخول، وهكذا زرنا البستان، وطفقنا نستعرض مشاهدها الفاتنة، فإذا بها نموذج

حي للفن الزراعي الراقي، فهذه الصفوف المتراصة من الأشجار وهذه الألواح المنسقة من الارواء، وهذا البساط السندسي الذي رسمت فيه ريشة الفن بدائعها وروائعها حتى أصبح فتنة للناظرين.

والحق يقال: إنها جنة عالية، قطوفها دانية، ومشينا فيها حتى بلغنا بحيرة صناعية، في وسط البستان بنيت بالإسمنت، وقد وضعت حولها كراس من الحديد، تدعو العابر إلى الجلوس، فجلسنا ونحن في حالة مسحورة، قد أسكرنا جمال البستان، وأنسانا متاعب السفر ومشاقه، وقد حفلت الأغصان بالعصافير والبلابل بين مزقزق ومغرد، إنها لذة ما فوقها لذة، وأعتقد بأن رفيقي الأستاذ قد سحرته هذه الروعة فراح يختلس المتعة منها ما وسعه الاختلاس، وترك الفلسفة وآفاقها الموحشة، إنه لا يلتفت إليَّ، ولا يُلقي بأسئلته المرهقة عليَّ، إنه في حالة من الصفاء، وفي نشوة من الأحلام.

وحلّق الفكر بخيالي حتى نسيت نفسي ورفيقي لولا أن أعادني صوته إلى واقعي، فإذا به يسألني: أظن أن المنظر أثار شاعريتك بعد ركودها، إنك تعرج في آفاقها ولا تلتفت إلى حالك ومستقبلك، إنك لا زلت تعيش بماضيك، وما أمات الشرق إلاَّ حياته بماضيه، فهو لا زال يعيد نغمة الآباء والأجداد، ويتشدق بالفتوحات العربية الماضية، فإذا سألته عن نفسه وعن جهادها في الحياة رأيته يلتفت إلى الماضي فلا يعيد إلاَّ ما بدأ به أولاً، إنه اكتفى بالماضي فعاش به، وترك مستقبله للحوادث تلعب به ما شاءت، فهو مُستعبد للغرب، وأرضه مُستعمرة لقواه، وأتعابه وجهوده مُستغلة من قبل رجاله، فإذا حاولت أن تستفزه لوح لك بالماضي، فكأن هذا الماضي هو الحياة الواقعية، وما سواه خيال عابر لا يستحق أن يهتم به الإنسان، ليت هذا الماضي

نسانا لننساه، إنه أصبح الغل الذي يستعمر مواهبنا وأحاسيسنا، إنه السد الذي يمنعنا من التقدم إلى الأمام، ولو أننا كنَّا نتخذ من الماضي عبرة نستدل بها إلى المستقبل لكان لنا فتح جديد في الحياة، ولعد وجوده طفرة موفقة في تاريخنا الزمني، ولكننا نحلم بالماضي فنلتذ به، ونكتفي بلذة أحلامه عن الواقع المر الذي نعيش فيه، وأنت ألست ابن هذا الشرق؟ أقلتك أرضه؟ وأظلتك سماؤه؟ وأولدتك رجاله؟ وحملتك نساؤه؟ إنك مصداق له في كل أحاسيسك، إننا قاسينا ما قاسيناه لننسيك هذا الماضي، ولنخرجك من مزالق الخيال، لنلمسك الواقع، ومع ذلك إذا غفلنا عنك لحظة، أو غفلت عن نفسك لحظة رجعت إلى ماضيك لتحلق بك الشاعرية بأجنحة الخيال إلى سماء الأحلام والأوهام، إنك أسوأ حالاً من هذا العصفور، فهو حذر مني ومنك ومن المفاجآت الطارئة، وقد نسي أنه كان قبل لحظات في وكره الأمين، انه لا ينظر إلى الوراء، وإلا لاصطاده الشرك المنصوب أمامه، إنه لا ينظر إلا إلى مستقبله، إنه يريد أن يحتفظ بحياته الحرة، ولا يحفظها إلا الحذر، فهو حذِر من كل شيء، مرتاب بكل أحد، فهو في وضعه أرفع عقلية منك ومن إخوانك الشرقيين، إنهم يمشون وعيونهم متجهة إلى الوراء، وقد ألقت الحوادث أمامهم بأشراكها، فالفقر العام، والجهل العام، والمرض العام، والتفكك العام، والأنانية العامة وإلى ما لا نهاية.

كل هذه الإشراك تنصبها له الحوادث، لكنه لا يلتفت إليها أبداً، إنه يلتفت إلى الوراء ليتمتع بماضيه المجيد، وليفعل به مستقبله ما يفعل.

قلت له: سيدي الأستاذ، إنني لم أرجع إلى أحلامي، فلقد

عفتها حينما صحبتك، إنني احترمت صمتك فتركتك تتنعم به وجرفتني مشاهد هذه الروضة الغناء، فرحت أتزود من متعها، وأزود العقل والقلب بجمالها الساحر، وربما اهتزت أحاسيسي لمفاتنها، ولكني لم أصل إلى درجة الشعر وعالمه المسحور، إن الجمال يهز كل إنسان، فالذي لا يهزه الجمال ليس من البشر، انه في عقيدتي فولاذ وحجر، إن الجمال نموذج جنة السماء في جحيم الأرض، ولذا يرفعنا عنها إلى سمائه بالحب، والحب لا يتأتى إلا من طريق الجمال، والجمال هو ما يجذب القلب منظره، وقد انجذب قلبي إلى هذه الروضة فأحببتها، وبالحب أهذب خلقي ومشاعري.

الأخلاق

قال لي: ما هو الخلق؟ لنفهم حقيقة الأخلاق حتى نتجاوزها إلى بواعثها.

إن الخُلق هو حسن الصحبة مع الخلق، ويتحقق حسن الصحبة ببذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بالعلم بالمعروف والمنكر، لئلا يعمل أحدهما مكان الآخر، وبالتمكن من بذل المعروف وبكف النفس عن المنكر، ولا يحصل هذا التمكن إلا بتعويد النفس على التنازل عن مخصصاتها حتى يصبح الجود ملكة لها، وإلاَّ بتعويدها على الخوف من المنكر حتى يصبح الحذر طبيعة فيها، وبالكف عن الإيذاء وإن كانت على حق فيه، كما لو أرادت أن تجابه بالأذى وتردّ الجناية بالجناية، فعليه أن يدرب نفسه على الصبر في المكاره.

وطريقة التدريب هي أن يعرض نتيجة المجابهة بصورة مكبرة، وعاقبة المخاصمة بأسلوب موسع، فإن النفس إذا وعت النتيجة تجرعت المكروه برضا واختيار، ومنْ عرف بأنه إذا أراد أن ينتزع درهماً ممَّنْ انتزع منه درهماً فإنه سيخسر ديناراً، أو إذا قابل لطمة بلطمة فسوف يكسر منه العظم، أو يزهق منه الروح، فلا شك بأنه سيصبر على خسارة الدرهم وعلى تحمل اللطمة حرصاً على الدينار والروح، وإذا روَّض

نفسه على حسن الخلق مع الخلق، فسوف ينظر إلى الناس بعين الحب والعاطفة، فهو يشفق على العاصي كما يشفق على المريض، وهو ينظر إلى المجرم كما ينظر إلى السقيم، فيحاول أن يرشدهما إلى المنقذ كما يرشد المريض إلى الطبيب، وإذا أمن الناس شره كفو عنه شرّهم وأذاهم، لأن الشَّر يولد الشَّر، والخير يبعث الخير.

وأقرب طريق لتربية النفس على الأخلاق الكريمة هو معرفة حقيقتها، وبأن لها جبهتين:

حيوانية، ومنها تنبعث الشرور،.. وإنسانية، ومنها تنبعث الخيرات، فالأولى تنتمي إلى الظلمة، إلى التراب إلى الفناء،.. والثانية تنتمي إلى النور. إلى الخلود، إلى السماء. وإن من النور حسن الخلق، ومن الظلمة سوء الخلق، ومن سوء الخلق رد الشر بمثله، فإذا عرض الإنسان هذه الصورة على نفسه فلا شك بأنها ستحاول أن تعتاد على هضم ما تسمعه وتلقاه من الناس، وأن تسير على الطريق التي سار عليها منقذ الإنسانية محمد ﷺ حتى خاطبه.

خاطبه الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القلم، الآية: ٤)، إن إصلاح الحق لا يتحقق إلا بصلاح جذوره، وإصلاح جذوره بتربية النفس عليه حتى تعتاده، وحتى يصبح لها طبيعة راسخة وملكة ثابتة، وإلا فإن التصفية المؤقتة التي يحصل عليها الإنسان بالنشوة المؤقتة التي يبعثها صفاء الوقت، أو صفاء المكان، فذلك لا يؤثر في الغرائز ولا يطبع الملكة بما يبقى أثره بعد مفارقة هذا الزمان وذلك المكان.

نعم إن الجمال يبعث الحب، والحب يصفي النفس ولكن بقاء صفاء النفس ببقاء الحب، وبقاء الحب ببقاء الجمال، ففتش أنت عن الجمال الخالد ليخلد حبك، فيخلد خلقك الجميل، إن الصورة التي

عرضتها عليك، والتي رسمت لك حسن الخلق بريشة السماء وبألوان الحياة هي التي ستبقى معروضة في لوح ضميرك، وسيتأثر بها ما دامت معروضة فيه، وبما أنها تنتمي إلى عالم الخلود، فسوف لا يمحوها عالم الفناء، فاترك هذه الأرض فإنها هي الجحيم، واعرج إلى السماء فإنها هي الجنة، وأظن بأننا أخذنا حظنا من هذه الجلسة، فقم بنا لنستعرض البستان، ونستقري ما فيه.

وهكذا سرنا في طريق معبد قد نجمت طرفيه الأشجار الباسقة، تلوح من بين أغصانها ألواح الأعشاب والورد، وسرنا ونحن في حالة حالمة حتى وصلنا إلى نهاية هذا الجانب، وإذا بكوخ خشبي تظلله الأشجار، وقد امتلأت بمختلف الأطيار، من قماري، وبلابل وعصافير، وطيور بيض وحمر وسود، ما هذا الكوخ ولأي باعث اندفعت هذه الأطيار إلى ناحيته، إنه سحر فاتن، إنه الروعة المجسمة، وطفنا حوله حتى وصلنا إلى بابه فإذا به مفتوح، وكأنه يدعونا إلى الدخول، ونظرت إلى داخله، وإذا بشيخ أبيض اللحية، جميل المُحيَّا، ومنطلق الأسارير يقوم من سرير خشبي، ويستقبلنا بلهجة عاطفية، وحينما نظر إليه رفيقي ونظر إلى رفيقي. اندفع كل منهما إلى أحضان الآخر، وكان للقبلات معرض جاذب للنظر، انه معرض للعواطف، تشكله القبلات الرنانة، ومن الغريب أنهما اكتفيا بالقبلات عن الكلام، وكأن للقبلة لغة عاطفية لا تصل إليها التحايا الأُخر، إن القبلة كما يُقال: تحمل رسالة القلب للقلب، انها ختم المحبة، إنها لغة العاطفة الفاترة، إنها قصيدة الفن الخالد، إنها وحي الروح للروح، إنها إنها...

وكنت وأنا أحلق في هذه الأخيلة الشاعرة، أراهما وهما مندفعان

في نشوة القبلات الحارة، وكدت أن أعترض عليهما، لولا أن رأيت كلاً منهما يترك الآخر، ورأيت الشيخ يدعو رفيقي إلى الجلوس بجانبه، بينما يشير إلى كرسي أمامه لأجلس عليه، وكانت الجملة الترحيبية التي استقبلنا بها الشيخ من أرقّ الكلمات التي تُلقى للترحيب.

وقال الأستاذ وهو يعرفني بالشيخ، إن هذا أخي بالروح، إن الشيخ علي أنبه تلاميذ مدرستنا، ولقد تخرجنا معاً في سنة واحدة بمعدل واحد، إلا أنه ترك الناس ليلتحق بهذه الأرض فيستخرج كنوزها ومعادنها، وليصطفي من الطيور والوعول إخواناً أصفياء لا يتركونه ولا يخونونه، بينما اختارتني المدرسة أستاذ لتربية أمثالك، إنه قد هذب في صمته هذه الجماعات من الحيوانات الصامتة ولم أتمكن أنا في منطقي أن أربي أحداً من الناس كما أريد ويريده التهذيب الصحيح، إنه لم يتحمل في تربية هذه الحيوانات الصامتة بعض ما تحملته أنا في تدريب الحيوانات الناطقة، أنظر إلى الطيور كيف تلازم كوخه فتظلله بأجنحتها، وتغمر جوه بألحانها، بينما أنتم أيها الأناسي لا تعرفوني متى فارقتموني، إن الحيوان الذي لم يترك الإنسان وسيلة للظلم إلا واستعملها معه، ذلك الحيوان نفسه لا يخون الإنسان إذا رأى منه عاطفة ومحبة،.. تحبس البلبل في سجن ضيق تسميه ـ القفص ـ ثم تبذل له قسطاً من الغذاء والماء، فإذا به يمنحك خير ما عنده، انه يرفع لك أروع موسيقى عرفها الفن الغنائي، انه لا يتمكن من ضبط عواطفه الجياشة إذا رآك من بعيد، فهو يرقص في سجنه، وهو يغني في قفصه لكي ترتاح أنت، وما أنت إلاَّ سجَّانه القاسي.

إنه يشكر لك الألطاف التي تنعم بها على نفسك في منحها له،

فأنت تمنحه الغذاء ليعيش لك فيغني ويرقص وهو في أغلاله، ولترتاح وأنت في دنياك الحر.

إنكم معشر البشر أوحش فصيلة من فصائل الحيوانات، إن الغدر بكم، والشر منكم، والنفاق فيكم، والخيانة إليكم، إنكم بؤرة الشرور، ومع ذلك فإن فيكم قابلية العروج إلى عالم الملائكة، وبتلك القابلية تمتازون على سائر أنواع الحيوان.

إن الجانب الإلٰهي الذي يحدد وجودكم، والذي نسميه بالنفس الناطقة، أو الروح الإلٰهية هو الذي يرفعكم عن مستوى الحيوان إلى مصاف الملائكة وهو الذي يجتاز بكم حتى حدود الملائكة، وحتى يقول لبشر مثلكم أمين السماء جبرئيل ـ «لو دنوت أنملة لاحترقت» ـ وذلك حينما صعد بشر مثلكم إلى قاب قوسين أو أدنى من العلي الأعلى.

إن لتلك القوة آثار إذا أظهرت في إنسان رفعته عن مستواه، فكان عبقرياً في إنسانيته (وليس كل عبقري إنسان) فإن جلادي الشعوب، وآلهة الحرب أيضاً تنمي نفسها إلى العبقرية في ابتداع وسائل الدمار، ولكن عبقريتها من نوع آخر، إنها تنتسب إلى الجحيم، وتستمدها من شياطينه، بينما العبقرية الإنسانية تنتمي إلى السماء، إلى الجنة الوادعة، إلى مطلع النور، ومنبع الوجود، فهي مستمدة من عالم تقصر أجنحة الملائكة عن مداه.

إن الإنسانية الحقة لا شيء فوقها، إن النبوات نماذج إنسانية أنزلها الله إليكم لتكونوا أمثلة لها في أوضاعكم وطقوسكم، إنه أنزلها بحسب القابليات والعقول، وكلما تقدمت المدارك، وتوسعت المعارف تكاملت تلك النماذج حتى بلغت منتهى الكمال في بعثه

خاتم الأنبياء فكانت شريعته كاملة المواد تسع حاجات البشر في كل مكان، إذ تتمشى مع الإنسان في كل منطقة من مناطق حياته، وتدل البشرية على كل نقطة نقطة من كتاب الخلود.

انظر لها تجدها تتداخل مع الإنسان حتى في حالةِ تخليه، فتخلق له مواضيع واجبة ومستحبة ومكروهة ومحرَّمة، وحتى في تزيين شعره، وتقليم ظفره تتداخل في كيفيتهما وكميتهما، إنها شريعة كاملة شاملة لجميع المواضيع الإنسانية، وطبعاً تكون هذه الشريعة مبغوضة للغرائز الحيوانية التي راحت تحدد من استعمالها، وإن لم تكبتها كل الكبت بينما كانت الغرائز تحاول أن تتحرر من قيودها بكل وسيلة، ولا يهمنا دراسة سير الشريعة في التاريخ، ولا استعراض رجالها وتبيين الخائن والمخلص لها، إن ذلك موضوع مهم يحتاج إلى دراسة خاصة لا تسعها هذه الأوراق، وإنما نريد أن نقول:

إن الغرائز السافلة في البشر راحت تحارب هذه الشريعة المعارضة لأهوائها، والمحددة لنزواتها، حتى انتصرت عليها، وحتى أصبحت الشريعة الإسلامية وهي المنجم الذي لا تنضب مواده التشريعية قاصرة بل خائنة في نظر رجال القانون، فهم يستمدون نظمهم من عقول كل علمها إنها تستلهم آراءها من الشهوات الحيوانية فقط، وتغير نظر المسلمين إلى الإسلام وأحكامه، فهم يقتبسون من الغرب أحكاماً تبعدهم عن الإسلام وتقربهم من الغرب، وأنت أدرى بالغرب ومراميه الاستعمارية، فهو يريد أن ينحيهم عن هذا الحصن الذي لا يقتحم، وهذا الدين الذي لا يجاريه أي دين آخر.

وأضمن طريق للوصول إلى غايته المنشودة هو إثارة الغرائز

الحيوانية الحانقة على القيود الدينية، فراح يتصرف باللغة وبالزي، وبالطقوس، فيجعل من لغته لغة الثقافة العامة، ومن زيه زي العصر الراقي، ومن طقوسه أحكام الحياة الصحيحة، وبالطبع يكون زيه معاكساً تماماً للزي الديني الذي كان يمنعه من ارتكاب الموبقات، والاندفاع خلف الشهوات، وبخلع هذا الزي يخلع عن غرائزه غلاً ثقيلاً كبلته به العقيدة، فإذا خلعه فكأنما يخلع الغل عن غرائزه، إذ يندفع إلى إرواء شهواته ونزواته بكل قواه، وعند ذلك يبتعد في خلعه عن المجتمعات الدينية المحافظة على الزي الديني، كما يقترب من المجامع الغربية التابعة للغرب ونواميسه فيحقق في ذلك أمل الغرب المستعر.

وكما يكون الزي رمزاً للأمة، أو المبدأ، أو الحزب، تكون اللغة أيضاً كذلك، وتكون الطقوس مثلها، فلكل أمة لغة خاصة، وطقوس معينة، وقديماً نهى النبي ﷺ عن تغيير الزي الديني، بل أباح دم المغير لزيه بقوله ﷺ «من خرج عن زيه فدمه هدر» كما نهانا عن الاختلاط بالأجانب عن ديننا، لئلا تضعف لغتنا الدينية، وتتغير طقوسنا الإسلامية، ولكنما عصرنا الذهبي ينبذ هذه التعاليم، ويرمي باللغة العربية والزي الديني والعادات الإسلامية عن بيئآته ومجتمعاته لكيلا يُرمى بالرجعية النابية، ويُقلد الغرب في زيه ولغته وعاداته، ليقول عنه الغرب: إنه شعب حي متمدن، أنا لا أدري بماذا أفسر هذه الظاهرة؟؟ وعلى منْ ألقي التبعة؟ وما علي أنا، وللبيت رب يحميه، دع العالم يهدم بعضه بعضاً، فلسوف يبنيه ثانية منْ بناه أولاً.

ما لي وقد نأيت بحديثي عن موضوعي الخاص، فأنا في صدد أن أكون واسطة التعارف بينك وبين صديقي الجليل الشيخ علي، فهو

رفيق صباي، قضينا أنضر أيام الحياة معاً، وذلك عندما كنَّا نكسب المعرفة في هذه المدرسة، وكم له عندي من ذكريات لا تنساها حياتي أبداً، إنه إنسان حر، ترك الدنيا ومن فيها حينما يئس من بنائها وتهذيبه. وترك المدن حينما ضاقت بها معرفته، واصطفى له من الطيور والوعول إخواناً أنسوا به كما أنس بهم، واختار من هذه الصحراء النائية وطناً حرّاً لا تزاحمه الأطماع، فهو حرّ في يقظته، حرّ في نومه، حرّ في عمله، حرّ في بطالته، إنه يستودع الأرض البذور الصالحة، فتردها إليه غرساً طيباً ونتاجاً مثمراً، فالبستان وما فيه من الألطاف والأمتاع من آثار جهاده، ومن نتاج بذوره.

وكنت مسحوراً بحديث الأستاذ حينما هاجمنا رعيل كبير من الوعول الجبلية راحت تثب حول الشيخ علي، وهي تثغو من دون أن تخشاه لتحذر منه، كما راح الشيخ علي يجيبها بابتساماته العذبة وصفيره المطرب، ولقد تحقق عندي ما قاله رفيقي وأستاذي إنه صديق للوعول كما هو صديق للطيور، فقد ذكرت لك أني شاهدت الطيور لا تبارح الأغصان المظللة لكوخه، وها أنا أنظر إلى الوعول وهي تطوف حوله بلا احتراس منه ولا حذر، ورعاية لمجلسنا راح يصرف الوعول بلغته الخاصة التي عود على فهمها هذه العجماوات، فانصرفت عنَّا كما دخلت إلينا وادعة آمنة مطمئنة.

ولما خلا الكوخ من غيرنا، قال لنا: إنني أحب هؤلاء الأصدقاء، فإنهم لا يريدون مني إلا أن أتقبل حبهم، إنهم يمنحونني كل شيء، يمنحونني الغذاء واللباس، فالعنزة الجبلية تجيء بنفسها إليَّ لأحتلب ثديها، والكبش الجبلي يبرك أمامي لأجتز صوفه، ومن لبن الأولى أجهز أطايب الطعام، ومن صوف الثاني أجهز لنفسي

اللباس والفراش، إن ثوبي الذي ألبسه وبساطي الذي نجلس عليه، ـ ولقد صنعتهما بيدي ـ من نتاج ذاك الصوف، وأن المخيض الذي ستشربونه، (وراح يأتينا بقدح كبير من المخيض) من ذلك اللبن، إن هؤلاء الأصدقاء الذين يقدمون لي وسائل الحياة لا يريدون مني أكثر من قبولها، ولعلهم يجدونني متواضعاً في هذا القبول.

التواضع

فإن التواضع هو التنازل في الوضع، والترسل في الأخلاق، ولقد نسبه القرآن الكريم إلى عباد الله الأصفياء، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (سورة الفرقان، الآية: ٦٣).

والتواضع قد يكون للدين ومعناه هو التعبد بأوامره وزواجره انقياداً وإطاعة، من دون أن نبحث عن حكمة التشريع، لأن التواضع هو التنازل، وإدراك الحكمة معناه مراعاة المنفعة، فهما متعارضان، ولا يمكننا التعبد الصحيح إلا بعد الوعي بأن علَّة الحكم الشرعي لا تُدرك بالظنون والأوهام، وإلى ذلك أشار الحديث الشريف: «بأن دين الله لا يصاب بالعقول» لأنه يتنزل من عالم الواقع، والعقل يستند في أكثر أحكامه على القواعد المظنونة، بينما يكون بعض الظن إثماً في نظر الواقع، فالمستند الذي يتضعضع قسم من قواعده لا يصلح للإستناد، والأدلة الشرعية وإن كانت ظنية الصدور، لكنها تكتسب حجيتها من الأدلة القطعية الخاصة، ومن الجهات المؤدية إلى الحجية، والتي يشرحها دليل الانسداد، فهناك يبحث علم الأصول عن هذا الموضوع بإسهاب وتفصيل فراجعه، ولا شك بأن العلل المستنبطة ليست حجة في نظر أكثر العلماء الإلٰهيين، ولذلك أبطلوا القياس وأسقطوا حجيته.

فالمؤمن الصحيح هو الذي تدفعه العقيدة إلى التقيد بالأحكام الشرعية من دون أن يرجو منها نفعاً أو يدفع بها ضراً، لأن العقيدة تشاهد الواقع في الأحكام، ولو انكشفت له عللها شهوداً لما زادته إيماناً وتثبيتاً، كما أنها لو غابت عن شهوده لما تناقص إيمانه ويقينه.

فالتواضع للدين هو التعبد بأحكامه عن عقيدة وإيمان.

وقد يكون التواضع للخلق، ومعنى التواضع لهم هو إلغاء الفوارق الاجتماعية بينك وبينهم، لأن الناس كلهم سواسية في نظر الحياة، فهم يتزودون من متاع الأرض وألطاف السماء بلا فارق بينهم، فكما تكون أنت معرضاً للحوادث المفاجئة يكون غيرك مثلك معرضاً للحوادث، وكما وهبك الله شعوراً واعياً، ونفساً طامحة، وأعصاباً قوية، وجسماً وروحاً، وحياة، وموتاً، وهب غيرك أيضاً ما وهبك، فهو مثلك في كل هذه المنح الموهوبة لك من السماء.

أما الحدود العرفية، والقيود الاعتبارية، والفوارق الزمنية، فهي أُمور وهمية تزول كما تأتي بأقل حادثة تفاجئك، فلذلك يلزمك أن لا تنظر إلى غيرك إلا كما تنظر إلى أخيك من أبويك، لأنك وإياه إخوان من صلب هذه الحياة، فيها تعيشان وإلى الموت تعودان.

والخلق طائفتان مؤمن وكافر، فالمؤمنون كلهم عباد الله بنص الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (سورة محمد، الآية: ١١)، أما الكافرون فقد نفت عنهم صفة العبودية له بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ (سورة محمد، الآية: ١١)، فالمؤمنون إخوانك في الدين، إخوانك في الإنسانية، إخوانك في العبودية، فأنت كغيرك من المؤمنين عبد من العبيد، وما أقبح تكبر العبد على عبد مثله،

وكيف تتكبر عليه، وأنت لم تدرس بعد منزلته عند مولاه، وعسى أن يكون (معدل) درجاته أرفع من (معدل) درجاتك عنده، وهناك يلزمك التصاغر له، لأن الميزان في الرفعة والضعة هي القرب إليه الملازم لرفعة الدرجات.

هذا هو مقياس تواضعك مع إخوانك المؤمنين، وأما الكافرون فهم وإن كانوا أعداؤك في الدين ومخالفيك في السير الاجتماعي، إذ أن منْ تدعو إليه يدعون إلى محاربته، ومنْ تدعو إلى مخالفته يدعون إلى مودته، ولكنهم إخوانك في الإنسانية، وعلى الأخ أن يسامح إخوانه في المواضيع المادية، وأن يراعي حقوقهم الاجتماعية، فلا يمنع منهم حقاً، ولا يرد لهم عذراً عند الإساءة والاعتذار، فهذا القرآن يرشدنا إلى أسلوب معاشرتهم بقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ (سورة فصلت، الآية: ٣٤) وقبول اعتذار المخالفين إذا أساؤوا من مصاديق هذه الآية، هذا هو أسلوب التواضع مع الخلق.

وقد يكون التواضع مع الحق، وإن كان في إطلاق عنوان التواضع على معاملة العبد للمولى والمخلوق للخالق، والبشر لله نوعاً من المسامحة، فالعبد من شأنه التصاغر والتذلل، والمولى من شأنه الكبرياء والترفع، ولكن أئمة الهدى عليهم السلام أرشدوا الخلق إلى التواضع للحق، بمعنى أن تكون طاعتك وعبادتك خالصة لوجه الكريم، فلا ترجو بها نفعاً ولا تدفع فيها ضراً، لأنك عبد قن له فكل مالك لمولاك، فأنت إنما تدفع إليه حقاً من حقوقه، وليس لك أن تطمع منه الأجرة عليه.

وتواضعي أنا وأعني به مصاحبتي لهذه الحيوانات وإن لم تكن من مصاديق التواضع الاصطلاحي ولكنه بنظر هذه الحيوانات تواضع

من الناطق للصامت، وأعتقد بأنه مما يلحق بموضوع التواضع العام، فالدين يأمرنا بالرفق، والحق لا يميز مخلوقاً عن مخلوق في معاملته العامة، والخلق وان أمعن قسم منهم في إيذاء هذه الحيوانات، لكنما هناك قسم آخر منهم شكلوا جمعيات عالمية للرفق بالحيوان الأعجم، ومن الغريب أنهم يبيحون إيذاء البشر واغتصاب حقوقهم المشروعة ولو أدى ذلك إلى إبادة البشرية، ويحرمون ظلم الحيوان وإيذاءه، بل يوجبون الرفق والعناية به، ولقد روى أحد الأصدقاء قصة طريفة تتعلق بهذا الموضوع، لا يخلو عرضها من ظرافة ونكتة قال لي:

إنه شاهد حمالاً من حمالي محله التجاري يضرب حماراً ضرباً مبرحاً، والحيوان يتألم ولا يتمكن من إظهار ألمه، بينما الحمال الحانق يزداد ضراوة وقساوة في ضربه وإيلامه، يضربه بشدة وهو يقول له وكأنه يخاطبه أين أقرباؤك المدافعون عنك، وسألته عن قصته مع الحمار وأقربائه، فقال لي: بينما كنت أقود حماري إلى البلدة وقد حملته بعض بضائع محلنا التجاري، وإذا بجندي أجنبي، ولعله ضابط كبير يتصدى لي بسوطه فينهال عليَّ ضرباً موجعاً، ولما سألته عن سببه، أجابني: بأني من جمعية الرفق بالحيوان، ولقد حملت حمارك فوق طاقته فاستحققت التأديب وذلك بموجب نص المادة العاشرة، من قانون جمعية الرفق بالحيوان.

أرأيت كيف تتشكل جمعيات الرفق بالحيوان، إنها تحمل الشعوب فوق طاقاتها، وتنهال على الإنسان بالضرب الموجع لأنه يسوق حماره أو يحمله ما لا طاقة له عليه، ان هذه الجمعيات نموذج صارخ بالأعمال الإنسانية التي يقوم بها الغرب، وربما تكون صداقتي لهذه العجماوات من مصاديق الفتوة.

الفتوة

لأن الفتوة معناها المروءة لا تحصل إلا بصفاء القلب المنعكس صفاؤه من أشعة النفس الصافية، لأن النفس الإنسانية خلقها الله ظاهره من الأكدار، صافية من الأوضار، وإنما يلوثها الإنسان بمعاشراته ومعاملاته، فهي قابلة للرجوع إلى أصلها من الصفاء وإن تراكمت القذارات عليها، فثوبك وإن كان شديد القذارة إلا أنه قابل للتطهير والنظافة، ولكل قذر مطهر، وتطهير قذارة النفس بالفتوة.

وحقيقة الفتوة أن لا ترى لنفسك فضلاً على أحد من الناس ولا تتصور لها حقاً عليهم، وطريقة هذه النظرة هي أن تنسى فضلك لهم، وتذكر فضلهم عليك، فإنك سترى نفسك أبداً مديناً لهم، وستراهم أبداً متفضلين عليك، وأن تتوسع في نظرتك التسامحية حتى تجعلها تشمل عدم التعرض والإيذاء منهم، لأنك قد جعلت نفسك معرضاً للإيذاء، فمن لم يؤذك فقد تفضل عليك، وسبب استحقاقك للإيذاء هو جرائمك النفسية وجناياتك الغريزية المستحقة للعذاب والعقاب من الناس، فإذا أذوك فبالاستحقاق، وإن كفوا عنك كان ذلك فضلاً منهم ومنَّة عليك، ولا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة إلا بعد أن يلزم نفسه بترك الخصومة مع الخصوم، وطريقة هذا الإلزام هو العفو عن زللهم، إن كانت لهم هناك زلل وأخطاء، تعفو

عنهم لأنهم إخوانك في الله وفي الإنسانية، وللأخ حق على أخيه ينذك فيه القصور والتقصير، وبالطبع إذا ألزم الإنسان نفسه على ترك الخصومة، زالت الخصومات من حياته، فالشر يبعث الشر، فإذا زالت الخصومات عن عالمه غمره الحب والصفاء. هذه هي فتوة الإنسان مع الإنسان،..

وأما فتوته مع الله فهي أن يسير إليه وإلى توحيده من طريق الوجدان لأن طريق الوجدان أوسع، والسير فيه أضمن للوصول إليه،.. أما السير العقلي فإنه يصطدم بعثرات القياسات الباطلة والفرضيات العاطلة والأوهام الفاشلة والتخامين والتخايل، حتى تحتجب عنه الحقيقة ويحتجب عن الحقيقة، فهو يسير إليها بلا دليل، ويجابه حجبها بلا نور.

ولذلك كان السالك العارف يسير في ضوء النهار، بينما يسير الفيلسوف الحكيم على ضوء الشمعة، والنهار إذا تجلى انمحت الأضواء إلا ضوء كوكبه.

فالفتوة العامة تحمل على نفسها حباً عاماً يشمل الإنسان والحيوان. ولذلك يزداد بها صاحبها هداية وإرشاداً كما ينص عليه القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ (سورة الكهف، الآية: ١٣)، وإنما يزداد هداهم لزيادة حبهم وصفائهم، حيث يشمل الخلق على مختلف أذواقهم، بل على مختلف أجناسهم وأنواعهم، فهو يعم الصامت والناطق، فالحيوان الأعجم مشمول لعناية الفتوة، ولذلك كانت ألصق بموضوعي من التواضع، وإن كان التواضع من وسائل الفتوة ومقدماتها.

وأعتقد بأني أشغلتكم عن مقصدكم، فقوموا بنا لأعرض عليكم

سائر جهات هذه البستان، وهكذا أخرجنا من الكوخ لنروّح عن أنفسنا بمناظر البستان الرائعة، وأزهارها اليانعة، والحق يقال: إن الشيخ علي أودع فيها مواهبه حتى جعلها جنة الصحراء، وفتنة القلب والعين.

وبعد أن زرنا كل بقاعها رجعنا إلى الكوخ ثانياً لنصرف غداءنا، وقد استحضره من أمتع الأطعمة الفاخرة لولا أنه لا لحم فيه، لأن الشيخ علي من النباتيين لكنه لا ينتسب إلى النباتيين في أسلوبه، وإنما يجتنب عن إيذاء الحيوان وقتله بينما يستفيد من ألطافه ومواهبه ما تسمح به الطبيعة، فالدهن من جملة ما كان يستعمله الشيخ في تحضير أغذيته وهو مما لا تسيغه شريعة النباتيين، ويعلل الشيخ علي هذه الطريقة: بأن إزهاق النفس جريمة إنسانية، أما الاستفادة من الحيوان فهي سنَّة من سنن الطبيعة، إن دهن العنزة كشعرها من منتوجاتها العادية التي أباحها الله للإنسان، فكما تنتج الشجرة الأثمار، وكما تستفيد من أغصانها الزائدة حين تقطعها للإصلاح، كذلك تستفيد من حليب العنزة الفائض عن غذاء سخالها، ومن شعرها الزائد على جمال هيكلها، فهو ثمرها المباح كما يكون الخوخ ثمر مباح من شجرة الخوخ، والدهن من منتوجات الحليب، فلا بدع إذا استعملته في تحضير الأطعمة، حيث يحتوي على مواد من التغذية لا يستغني عنها البدن الصحيح.

صرفنا غداءنا وقام رفيقي الأستاذ يودع رفيقه الشيخ علي لنستمر في سيرنا، وكان وداعهما كلقائهما حافلاً بالقبلات، وحينما ودعني قال لي: اغتنم هذه الفرصة، فإن رفاقة هذا الأستاذ غنيمة كبيرة، إنه من نوابغ الفلاسفة ومفاخر الإنسانية.

وهكذا عدنا إلى الصحراء لنطوي الطريق ونحن في صمت لذيذ، كنت أسير وكأني أستقبل دنيا جديدة بحياة جديدة، إن ما أشعر به من الراحة والاطمئنان حالة جديدة لا تمت بصلة إلى حالاتي السالفة، إنني أكاد أعرج إلى السماء، ما هذا النشاط وما هذا الانبساط؟؟! أين الهموم التي كانت تتراكم على قلبي؟ أين الأكدار التي كانت تنوء بها نفسي؟ إنني أولد من جديد في عالم جديد.

وأعتقد بأن أستاذي كان يراقبني بعينه السحرية، فقد التفت لي وهو يبتسم ويقول: أراك تسابق الريح في جريك، وتجاري النور في نشاطك، فهل أحسست بأثر تعاليمنا المقدسة في غرائزك؟ وهل لمست تأثير الرحلة في أعصابك وأعضائك؟ انك تسير إلى الغاية بنجاح باهر.

قلت له: أيها الأستاذ الحبيب انني أحس بحياة جديدة دبت في وجودي من عالم لا يمت إلى عوالمي السابقة بصلة، انني قوي جداً وأكاد أعتقد بأن أعصابي الضعيفة أحالها الله إلى فولاذ جبار، كما اني أحس بأن روحي من الحياة نفسها، فأنا لا أتردد من مصارعة أي شيء يعارض سيري ولو كان الموت نفسه، إن روحي أقوى من الموت، انني في نشاط خارق وفي انبساط جارف، وليس لي علم بمصدر هذا النشاط وسير ذلك الانبساط.

الانبساط

قال لي: إن الانبساط هي الحالة العاشرة التي يحس بها السالك في معاملاته السلوكية، وذلك عندما يجتاز منطقة الفتوة، فإن الفتوة إذا تغلغلت في الإنسان نشط وانبسط.

إن الانبساط هو استرسال الفطرة على سجيتها، وانبعاث الطبيعة على حقيقتها، ورفع التكليف والاحتشام في الحال والمقال، ولقد طرأ الانبساط على حالة موسى عليه السلام في سيره الإلٰهي فراح يخاطب ربه بما لا يناسب مقامه ودرجته وذلك حسبما يحدثنا القرآن الكريم عنه حينما قصد إلى ربه بأربعين رجلاً من قومه ليشاهدوا منه ما يشاهده هو من ربه، ولما كانوا في بداية الطريق بينما كان موسى عليه السلام في القمة لم يتحملوا التجلي، حينما تجلى إلى الجبل فدّكه وأبادهم، وخرَّ موسى صعقاً، ولمَّا أفاق أحس في نفسه نشاط الانبساط، فراح يرسل طبيعته إلى خالقها ويخاطب ربه بقوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٥٥)، فهو يترسل في عواطفه مع ربه، ويخاطبه وكأنما يحادث رفيقه ونديمه، بأنك تهلك هؤلاء المؤمنين بسبب ما فعله السفهاء منَّا، مع أن الأمر بيدك تمتحن فيه عبادك ليظهر به المضل من المهتدي، والفاشل من الناجح والخاسر من

الرابح، إن هذه العاطفة الجائشة نتيجة حالة الانبساط التي كان يجتازها موسى في سلوكه الوجداني.

والانبساط له طرفان انبساط مع الخلق، وانبساط مع الحق.

أما الانبساط مع الخلق فهو إرسال الطبيعة على سجيتها في المعاشرة والمباشرة، فالإنسان مدني بالطبع، اجتماعي بالفطرة، والاعتزال عن الناس وإن كان أضمن للراحة، وأنجح في كسب النتيجة إلا أن الطبيعة أيضاً لها حقها من الإنسان، فلذلك كان على السالك المجاهد أن ينبسط مع الناس فيرتاد محافلهم، ويشاطرهم أعمالهم، على شرط أن لا يشغله المجتمع عن نفسه فيغفل عن مراقبتها، فتتجاوز الحدود في سلوكها ومعاشراتها فهو يطلق لها العنان على شرط أن يكون توجيهها بيده، يوجهها حيث لا خطر عليها.

وأما الانبساط مع الحق فهو الاسترسال في مناجاة الله ومحادثته، وذلك بأن يخاطبه بلغته الطبيعية الحرة، ويناجيه بأسلوب الصديق الأليف، فلا يتكلف في أقواله، ولا يتعسف في بيانه، بل يرسل الكلام حراً من القيود، لأنه في مقام الواقع، والواقعية لا تظهر إلا إذا جردتها من قيود التكاليف، كما كان موسى عليه السلام يحادث ربه، إنك تجتاز درجة الانبساط الوجداني، وهي درجة سامية في سلوك الإنسان مع الحق.

وأعتقد بأننا اقتربنا من الغاية المنشودة، فإن ما يتراءى لنا من بعيد هو مقصدنا من السير، وكان ما يتراءى لنا ظل بناية شامخة راحت تعترض انبساط ذلك البر الأقفر، ما هذه البناية؟ وهل هي مدرسة أخرى منشعبة عن مدرستنا، أو هي معبد يحج إليه طلاب الصف الثاني من المدرسة؟ أو هي منارة ترشد التائهين في هذا

الصحاصح الجرد إلى المدينة؟! انني في حيرة من أمر هذه البناية.

وكانت مساحة البناية تتسع كلما اقتربنا منها، حتى ظهرت لنا مساحتها الحقيقية، وإذا بها لا يقل طولها عن كيلو مترين. وأما عرضها فهو مجهول لنظري إذ أنه يقع في الجهة المخالفة لسيرنا، وأخيراً وصلنا إلى البناية، وقصدنا بابها وكان مفتوحاً يقف أمامه كهل يرتدي الألبسة العربية، بهي الطلعة، مهيب المنظر، يحمل في يمينه عكازة سوداء، وقد وقف متأدباً أمام الباب، وحينما وصلنا إليه رأيته ينحني لرفيقي بخشوع وإجلال ويقف صامتاً ينتظر سؤاله.

فقال له رفيقي الأستاذ هل الشيخ محمد موجود في المختبر؟

قال: نعم، .. إذن كانت البناية كما حدستها من فروع المدرسة، إن فيها مختبراً لا علم لي بنوعه، فهل هو مختبر مادي؟ أو مختبر نفسي؟

إن المدرسة مدرسة نفسية فلا بد أن يكون مختبرها نفسياً أيضاً، وكنَّا ونحن نسير إلى زيارة الشيخ محمد ومختبره وأنا أفكر في هذا الموضوع ورفيقي الأستاذ صامت لم يسعفني ولا بإشارة إلى المقصد، بل كلما كان هناك أنه كان يراقبني بوجوده لا بعينه، إن نفسه كانت تطوف حولي وتراقب حركاتي وأفكاري، إنني أحس بمراقبتها وطوافها حول وجودي كما أحس بهيكله المنظور، إن هذه النفس معجزة النفس الإنسانية، إنها أقوى من الزمان وأسرع من النور، وأنفذ من العطر، إنها تتغلغل في وجودي وتختبره كما تشاء، كنت أفكر وأنا أسير، ورفيقي الأستاذ لا يزال غارقاً في صمته، وكثيراً ما حاولت السؤال منه فمنعتني هيبته، فكنت أرجع إلى صمتي وتفكيري، سرنا وسرنا حتى مرت علينا ساعة من الزمن، وكنَّا قد

توسطنا البناية تقريباً، واستعرضنا كثيراً من الناس كانوا يلبسون زي البواب ويحيون رفيقي بالوقوف إلى جانب الطريق، بخشوع وابتهال، إن لرفيقي مكانة محتشمة في هذه البناية.

وأخيراً وصلنا إلى طريق خاص يؤدي بنا إلى ساحة مستديرة تشرف عليها بنايات صغيرة، وكأنها دائرة حكومية تفتح أبوابها على الساحة، فاتجه رفيقي الأستاذ إلى بناية من تلك البنايات وطرق الباب، ففتحه لنا شاب جميل الصورة قابل رفيقي بترحيب وتأهيل كما أومأ إلي برأسه يحييني ويرد تحيتي التي تقدمت بها إليه وسار أمامنا حتى وصل بنا إلى غرفة جانبية سبقنا في الدخول إليها، ثم خرج يدعونا إليها بترحيب وتأهيل.

دخلنا الغرفة فإذا بها مثمنة الأطراف مجهزة بكراسي مريحة، في طرفها منضدة بيضوية يجلس خلفها كهل مشرق الأسارير بهي الطلعة، وكان قد ترك كرسيه واتجه إلينا يرحب برفيقي ويباركني على اجتيازي تلك المراحل المنهكة ووصولي إلى المقصد سالماً من كل عيب نزيهاً من كل ريب، وكانت تحيته أثمن هدية تقدم بها إلي، إنها شهادة منه بنجاحي في دروسي العملية، إنها انتقال إلى الصف الثالث، فاندفعت إليه بكل عواطفي ورحت أشكر المدرسة وأشكر أستاذي، وأوضحت له أن شكري لها شكري لله، فقد كانا وسيلة في تهذيب نفسي ونجاح سيري في الحياة.

فقال لي: إن وصولك بهذه الحالة النفسية التي أراك بها تكفيني عن الامتحانات الشفوية والتحريرية، فالذي يصل إلى مؤسستنا صحيح البدن سالم الروح، إنما هو رجل قوي الإرادة، قوي الأعصاب، قوي العلم والعمل.

إننا انتخبنا هذه المنطقة لنمتحن بها طاقات تلاميذنا، وقليل منهم من تمكن الوصول إليها كما وصلت أنت سالماً معافى من العرض والمرض، فالآن وقد تمكنت من هضم تلك المزعجات واجتياز هذه العقبات عليك أن تقدر قواك فإنها قد وصلت بك إلى باب السلوك إلى الحق، ومن هذا الباب ستدخل الجنة الخالدة، وستصل إلى الأمل المنشود، ولكن عليك أولاً أن تتهيأ للدخول إليها بوسائل لا بد لك منها، وأولها القصد الصحيح.

القصد

فالقصد وإن كان هو التصميم لغة، لكنه هو الذي يضع تصاميم الوصول إلى المقصد اصطلاحاً.

إن القصد هو القوة الدافعة للأعضاء إلى الغاية المنشودة، وإذا قصد السالك الوصول راح يهيىء أسبابه فهو لا يصمم على طلب الحق إلا بعد أن تجذبه تجلياته، فإن انجذب إليها راح يتهيأ للوصول.

ومن أسباب الوصول السنخية، وإن من السنخية أن يتجرد العبد من الملابسات الطارئة في الحياة، لأن الحق جلَّ اسمه مجرد، والمجرد لا يصل إليه إلا المجرد، والتجرد أمر طبيعي لقاصد الحق، لأن من يطلبه يترك سواه، فمنْ يريده لا يريد غيره وما دام ذلك الغير في البين لا يتمكن من الوصول إليه، فالشرط الأساسي للوصول هو ترك الغير، ولا يمكن التجرد الصحيح إلا بتطبيق دستور الدين على أعماله الظاهرية، وبتطبيق نظام الأخلاق على أطواره النفسية، بل الحكم الشرعي لا يحصل حقيقة إلا إذا صفا باطنه، واستنار سره، حيث يندفع إلى تطبيق أحكام الدين تطبيقاً خالصاً من الشوائب والعوارض، ولا تنتفي الشوائب إلا بالتجرد عنها، ولا يحصل التجرد إلا بالرياضات والمجاهدات النفسية، وإذا قصد السالك اعتزم.

العزم

لأن العزم مظهر القصد، وللعزم مظهر يدل نفسه على نفسه، ومظهر العزم حال السالك، لأن صاحب العزم يندفع إلى مقصوده وكأنه يراه. فهو يسير إليه بدليل من نفسه عليه، فكل دليل خارجي يعده المعتزم سداً دون مقصده، ولذلك تعتريه حالة أشبه ما تكون بالذهول، ولا مانع منها فإن تجليات مقصده أشغلته عن غيره فهو مستسلم لها بكل وجوده، ولذلك تراه مذهولاً عن الغير، والذي يشغله تحقيق غاية من الغايات ينذهل عن غيرها، وكما يعذره الناس لأنه في حالة فانية في غايته، يكون قاصد الحق معذوراً أيضاً إذا انذهل عن غيره، وهو أولى بالعذر لأن مقصده أجل المقاصد، وغايته أشرف الغايات، إنه يعتزم التقرب من المبدأ، ويحاول الوصول إلى الغاية، إن هذا المبدأ، وتلك الغاية عالم تندك فيه سائر العوالم المنظورة والمسموعة، انه حلم الإنسانية وأمل التاريخ، إنه السر الموجود للعقل والذي يفتش عنه العقل، إنه قطب الدائرة ومركز الحياة، إنه الحق الذي هو فوق كل شيء.

الإرادة

وإذا حصل العزم حصلت الإرادة، وهي الحركة القلبية التي تنبعث عنها حركات العضلات، فهي آخر مراتب سير النفس، وأول مراتب سير الأعضاء، وتظهر هذه الإرادة في الإعراض عن المجتمع والمحيط والانصراف عن الشواغل الظاهرة والمستترة، وطبعاً يكون السالك إلى الحق مشغولاً عن غيره لا بباطنه وحاله فقط، بل يشغل الحق كل وجوده، فاللسان مشغول بذكره، واليد دائبة على إجراء مطالبه، والقدم تسير إلى تحقيق غاياته، إنه فانٍ في الحق ذاهل عن غيره، فدنياه مشغولة به، ووقته مغمور بتجلياته، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يفكر لغيره حتى يتمكن من استحضار سواه، أو الانشغال بما عداه.

وهنا التفت مدير البناية إلى رفيقي الأستاذ وقال: أظننا قد حملنا ضيفنا هذا اليوم من المعارف فوق كفايته، فلذلك أرجو من حضرتك أن تسمح له بالاستراحة، وتقدمني إلى غرفة الاستراحة، وكانت الغرفة مزودة بوسائل الراحة، فاستلقيت على سرير مجهز للنوم وسرعان ما حلقت بي الأحلام إلى عوالمها الممتعة.

ولم أفق من نومي إلا بعد أن سمعت رفيقي الأستاذ يقول لي: كفاك نوماً، فما جئنا إلى هذه البناية لنصرف أوقاتنا في النوم، إننا

نريد أن نوقظك، وأنت تأبى إلاَّ أن تنام، إن النوم موت مؤقت، إن الشرق فقد شخصيته لنومه، إن اليقظة كما عرفت في أول سيرك هي أول خطوة إلى الحياة الصحيحة، إن المنومات كثيرة وأهمها انصراف الإنسان عن نفسه وانشغاله لغيره، إن الغرب لمس ناحية الضعف في الشرق، فلا يضغط إلا عليها، لقد أشغله بتوافه الحياة ليصرف نظره عن واجباته، فهو يغمر أسواقه ببضاعات لا تقدم من حياته ولا تؤخر شيئاً، إنها بضاعات يتمكن الشرق أن ينتج مثلها وأحسن منها، إلا أن الإيمان بالغرب جعله يتقاعس عن الانتاج ليصرف الغرب بضاعاته في أسواقه، إن البضاعة نفسها تتحمل دعوة البائع والمشتري إلى منتجها، وإن بضاعة الغرب تحمل في طابعها أكثر من الدعوة، إنها تحمل غل العبودية ورسالة الاستعمار إلى البائع والمشتري.

ومن الغريب أنها تنجح في كل منطقة اكتسحتها قوافلها، فالأسواق لا تروج إلا بتلك البضائع، والأذواق لا تنتخب إلا نماذجها، وحتى الجهات الروحية لا تتذوق إلا معارض الغرب، أليست العبودية هي أن تصرف أيامك وأعوامك ثم تبذل نتائجها إزاء بضاعة مزجاة لم يصرف صاحبها في انتاجها عشر ما صرفت أنت في اكتساب الثمن؟ بينما تتمكن أن تشغل مكانها بضاعة شرقية لا تريد منك إلا شيئاً زهيداً من الربح لا يبلغ عشر ما تربحه البضاعة الغربية، إن الربح الشرقي يعود إلى الشرق، والأرباح الغربية تذهب إلى الغرب، والذي يعود إلى الشرق يُصرف في الشرق نفسه، فيسد الجهات الشاغرة منه، بينما الذي يروح إلى الغرب يُحدث ثغرات جديدة في الشرق تحتاج إلى عناية ورعاية، وليت الذي يستورده الشرق من الغرب يكون من المواد الأولية التي تحتاجها حياته، إنه لا يستورد إلا الفائض على الحياة، لأن الغرب لا يبيع مواد الحياة لغير أبنائه أبناء الغرب، إنه يريد أن تذهب

جهود الشرق هباء، فلذلك لا يبيعه إلا الهباء، انني أتوقع أن يستيقظ الشرق فيقوم بنشاط صناعي يستغني فيه عن الغرب وصناعاته، وأعتقد بأن فجر اليقظة قريب جداً. . .

ولقد شذ حديثي عن موضوعه، فأنا في صدد أن أوضح لك أن الإنسان يلزمه أن لا ينشغل عن نفسه، لأنه لا يستفيد من شيء أكثر مما يستفيده من مراعاة نفسه ومراقبتها، وهذا النبي الأعظم أول ما يطلب الغفران لنفسه، ثم يتجاوزه إلى أقرب الناس، ثم إلى عموم الناس، فيقول: «اللَّهمَّ اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين».

وهو دستور يلزمنا أن نطبقه على شؤون حياتنا، فنتوجه إلى أنفسنا أولاً، لأن المجتمع لا يصلح إلا بإصلاح أفراده، لأن تكوينه من الأفراد، وكل فرد مسؤول عن نفسه، فإذا كان الفرد فاسداً، فلا سبيل إلى إصلاح المجتمع، فعلى الفرد أن يصلح نفسه أولاً، ثم يساعد الأقرب فالأقرب من نفسه وهكذا حتى يتكون المجتمع الصالح، وما دام الشرق يغط في خماره ويسامر أحلامه، فهيهات أن يتحقق قيام مجتمع صالح فيه، وما دام المجتمع فاسداً، فإن العبودية والفساد والانحلال لا تفارق حياتكم أبداً، استيقظوا لتفهموا أنفسكم، وتحسوا بمواضع الفساد في حياتكم، وبعد ذلك فكروا في الدواء، إن النهضات التي قام بها الشرق لم تعد إلاَّ بالوبال والانخذال عليه، وسبب ذلك هو نهوضه بهياكل فارغة تعيش وأحلامها الموهومة في سكرة عارية، وهيهات أن يكسب النصر من يهاجم بجيش يغط في الرقاد، نبه أمتك أولاً ثم أثرها، بل يمكنني أن أقول بأنها إذا انتبهت لا تحتاج إلى مثير، لأنها ستثور من نفسها، فإنها لا تستطيع أن تعيش على ما هي عليه، والإنسان

الواعي لا يصبر عن إصلاح فاسده، ومداواة علته، والمصلح قريب منه، والطبيب في متناول يده، فقم أيها التلميذ الكسول وتهيأ للتجارب النفسية التي ستجريها عليك هيئة تخصصت في إجراء التجارب النفسية، وأعتقد بأنها لا تكون أشد من التجارب التي أجرتها عليك هيئة مدرستك في الصف الأول...

وهكذا قمت من سريري وأنا أفكر في التجارب التي ستجري عليَّ في هذا اليوم، وبعدما فرغت من أعمال الصباح توجهت إلى الغرفة المعهودة، وإذا بكراسيها مشغولة برجال يتفجر الشباب من أساريرهم، وتطفح الحيوية على حركاتهم، أنهم النشاط والقوة، أنهم رجال أعمال تدل عظمتهم على عظمة أعمالهم، ولم أجد لي مكاناً شاغراً أجلس فيه، فلذلك وقفت عند الباب أنتظر إجازة الرئيس، ولقد طلب مني أن أقف أمام منضدته لأجيب عن أسئلته، وهكذا تقدمت إلى ساحة الامتحان حينما تقدمت أمام منضدة الرئيس، تقدمت وأنا في اضطراب نفسي وتشويش فكري ظهرا في أقوالي وحركاتي، وأحس الرئيس بحالي وكأنه رق عليها حينما قال لي: «لماذا تحمل أعصابك أكثر من طاقتها، إنك لا زلت مضطرب الفكرة، والغاية لا تتحقق مع اضطراب الفكر، استقم كما أمرك الأدب».

الأدب

فإن الأدب هو الاستقامة في محافظة الحدود، ولا أعني بالحدود إلا الأحكام الإنسانية التي جاء بها الإسلام في شريعته السمحاء، فهي قد ضمنت لك النجاح في الأرض والسماء، فهي ترعى علائقك مع الحق كما ترعى روابطك مع الخلق، لتضمن حدودك المادية والروحية.

فالأدب هو دعامة النجاح في الحياة، وله مناطق، ولكل منطقة أحكامها الخاصة، فللمجتمع برنامج أدبي يجب عليك تطبيقه، وأهم مواده تقدير الأشخاص على اختلاف مراتبهم في الاجتماع، لأن لكل فرد من المجتمع شخصية يعتز بها ويدافع عن كرامتها إذا ضيمت أو أهينت.

فإذا أردت أن تعيش في المجتمع عليك أولاً أن تحترم أفراده مهما كانت منزلتهم الاجتماعية، وأن تستمع لكل مُحدِّث حتى يتم حديثه، فرُبَّ جملة ترتبط بجمل، ورُبَّ كلام يجر وراءه كلاماً وكلاماً، فعليك أن تترك مُحدِّثك يسترسل في حديثه، وأن تسجل نقودك في نفسك أو في ذاكرتك إن كانت لك نقود على كلامه، فإذا تمَّ حديثه شرعت في عرض نقودك عليه، وكما تجب عليك مراعاة أقواله يجب عليك تقدير أعماله مهما ضؤلت في نظرك، لأن الإنسان

لا يعرض عمله على أحد إلا إذا كان راضياً عنه في نظره، ومدار العرض على نظره لا نظرك، لأنها بضاعته وما أنت إلا مستعرض عابر سبيل صادفك فتباهى بعمله أمامك، والطفل إذا لم يشجع على عمل لا ينجح في عمل، والشعب إذا لم يجد منْ يقدّر جهوده استمرأ الكسل، والبضاعة إذا لم تجد من يشتريها فقدتها الأسواق، فعليك أن تشكر عمل كل عامل مهما ضؤل العمل، ومهما كانت نتيجة العامل، فإن شكرك سوف يحفزه على استمرار التحسين حتى ينتج الأعمال الكبيرة، كما وسيصلح نيته لو كانت غير صالحة أول الأمر.

وكما يكون للمجتمع أدب خاص كذلك يكون لكل فرد من أفراده أدب خاص أيضاً، وأدب الفرد يتشعب إلى موضوعين: أدب النفس، ويتألف من حفظ مستوى الخوف والرخاء لكيلا يفرط في الخوف فيبيده القنوط، أو يفرط في الرجاء فيشطح في الحياة، فكما أن اليأس يهدد الأعصاب، كذلك الرجاء أيضاً يميت النشاط، فعلى الفرد النابه أن يسير نفسه على النمط الأوسط فلا هو ينطوي مع الخوف ولا هو ينجرف مع الرجاء.

وأدب القلب: وهو حفظ التوازن عند حلول الحوادث القلبية لأن القلب قد ينقبض من حالة طارئة، وقد ينبسط من حالة أخرى، وأن للقبض والبسط آثارهما في حال الإنسان، وكما كان أدب النفس يقضي بحفظ التوازن في حالتي اليأس والرجاء، كذلك أدب القلب يحكم بحفظ التوازن في حالتي القبض والبسط، ولا شك بأن لهذين الحالتين بواعث ودواعي.

وأهم باعث لهما عند السالك للحق هو توارد صور الحقيقة

الباعثة على الانبساط، واختفاء مجاليها الباعثة على الانقباض، وربما شرحنا لك معنى القبض والبسط السلوكي في موقف آخر.

وهنا نكتفي بعرض هذه النبذة لتفتح بصيرتك على نفسك وحالاتها المفاجئة في مثل هذه المواقف، ولنتوجه أيضاً إلى موقفك الدقيق، وأنك في مجال الاختبار العلمي، فأجبني: هل أنت على يقين من نجاحك في هذه الدراسات الشاقة؟ وهل أن هذه الدراسات مطابقة للواقع الذي تذعن له؟.. وهل أنت تؤمن بالواقع نفسه؟ بمعنى هل أن هناك واقعاً تؤمن به؟ تأمل جيداً في الأسئلة الثلاثة وقبل أن تجيب عليها عليك أن تفهم معنى اليقين، ليتطابق الجواب مع الغرض المنشود،.. فأجبني أولاً ما هو اليقين؟ وهل ينقسم إلى مراتب؟ وما هي مراتبه؟

اليقين

قلت له: أيها الأستاذ الجليل.. إن اليقين كما درسته واختبرته هو استقرار الفكر على مبدأ معين أو غاية مشخصة، وإن منزلته في عالم التهذيب تقع برزخاً بين العامة والخاصة، فهو آخر منازل العامة، وأول منازل الخاصة، والمراد من العامة هم سائر طبقات الناس من المتألهين، أي القائلين بوجود الله خالقاً للعوالم والأكوان، وأما الخاصة. فهم الصفوة المختارة لتطبيق العلم مع العمل.

وللاجتياز عن العوالم المُحسّة إلى عوالم لا تصل إليها الحواس بوسائل الإدراك العامة، وإنما يتوصل إليها بالمجاهدات النفسية والرياضات الروحية، وطبعاً تكون درجة المجاهدة النفسية بعد أن تجتاز درجات الجهاد الفكري، فالعلم يهيىء المقتضي للعمل، والنفس لا تتحرك إلى الواقع إلا بعد أن يستعد الفكر للعبور من العلم إلى الشهود، وإلا فإن طفرة الجاهل بالحقائق إلى درجة الشهود خطرة جداً، وإن مصدر شقاء الشرق هو الجهل، فقد كثر فيه المُدَّعون، وقلَّ الصادقون، والمُدَّعون هم الذين تركوا طرق العلم وراحوا يقصدون الحقيقة من طريق المجاهدات النفسية، فهم يشاهدون بالرياضات عوالم لم يتعارفوا معها، ولا درسوا نقاطها،

وكل ما هناك أنهم وصلوا إليها بالمجاهدات، والمجاهدة طريق الشهود، فهم كالبدوي الذي تلقي به ريح عاصفة من جبال تهامة إلى شارع شانزليزيه في باريس.

فقد يفتح عينه على شيء لم يخطر له على بال، ولا توصل إليه وهمه وخياله، فتراه يسير فيها على غير هدى، فإذا صادفته وسألته عن أي شيء يراه فيها، راح يتخبط في وصفها، ويتلعثم في بيانه، لأن ما يراه فوق ما تتحمله لغته البدوية، ولو كان قد درس جغرافية أوروبا الطبيعية أو الصناعية، وعرف منطقة باريس فيها لراح يجيبك عن كل منطقة منطقة تسأله عنها في باريس، لأنه يدخل إليها كما يدخل الرجل إلى بيته.

فهو على بصيرة من كل ما يحتويه بيته، وهكذا العالم إذا جاهد نفسه، وراض عن غرائزه، وتمكن من ملكاته فهو يجتاز منطقة العلم إلى منطقة الشهود، كما يجتاز الرجل من غرفته في بيته إلى غرفة أخرى فيه، ولا تخفى عليه خباياها وزواياها، فلا يشتبه عليه موضع، ولا تتشابه عنده ناحيتان، ولذلك قلت لك: إن الرياضة تحرم على الجاهل، وتحسُن من العالم.

ولنرجع إلى موضوعنا إلى دراسة اليقين.

إن اليقين هو استقرار الفكر على مبدأ معين، وغاية مشخصة، وهو كما يقسمه علماء الأخلاق له ثلاثة مراتب.

١ ـ **علم اليقين**، ويحصل بالإيمان بما علمه من أخبار السماء، وأحكام الأنبياء، ووسائل الشرائع وخصائص النبوة، ومميزات الولاية، وغير ذلك من المواضيع الدينية التي درسها عقله، واختبرها فكره، حتى أذعن لها وعيه، واطمأن بها إيمانه.

٢ ـ **عين اليقين،** ويحصل بشهود مواضيع علم اليقين عياناً، حيث ينكشف له الواقع فيرى ما فيه، إذ يخرق حجاب العلم بحضور المعلوم، ويرمي بقشور الألفاظ، حيث تتعرى له المعاني، وهناك يصبح له العلم حجاباً تشغله قشوره عن لبابه، والمرآة قد تشغل الرائي عن المرئي، وذلك حينما يدرسها الرائي فينشغل بها عن مرئيه.

٣ ـ **حق اليقين،** وهي مرتبة ستدرسها بعدما نصل إليها، وذلك حينما تذوب فينا ظلمات الرسوم بانجلاء فجر الحقائق، حيث تلوح على هياكل التوحيد آثاره، إذ نعي علم الحق، وأنه عين ذاته، لا أنه صفة تعرض لموصوف، أو أن للحق ذاتاً منحازة عن علمه.

وهنا أخذتني رعشة حالمة التفت إليها أستاذي وباركني عليها، بقوله إنك تجتاز المراحل النفسية بنجاح خارق.

ثم قال: إننا نكتفي منك هذا اليوم بهذا الاختيار الشفوي، ونؤجل الاختبار العملي إلى وقت آخر، فانصرف واسترح، فتوجهت إلى غرفتي المعهودة، وقد حصلت على روحية عظيمة ارتاحت لها نفسي كثيراً، واطمأن لها وجداني، إذ أحسست بأن نفسي قريبة من الحق قرباً هائلاً، فها هي الحقيقة تتجلى أمامي في كل شيء، فكل ما في الأرض، وكل ما في السماء أراه يحدثني عن الحقيقة، ويعرض لي صوراً رائعة منها، ما هذه الحالة المؤنسة، إنني أحب كل شيء في الوجود، لأني أرى الحقيقة الحبيبة إلى نفسي تتطلع إلي من كل شيء في الوجود، أني أحس بعلمي يضؤل ويضؤل أمام هذه الصورة المتجلية.

إنني لم أكن أعرف شيئاً قبل يومي هذا، إن المعارف العلمية

كانت حجباً كثيفة تمنع عني شهود هذه الحقائق اللطيفة، ما أثقل العلم!! وما أظلمه في نظر الوجدان؟! أنا في نشوة وجدانية تركتني أهيم بكل شيء، واتطلع إلى كل شيء، أنا مأنوس بوجودي، وكم كنت أستثقل هذا الوجود واشمئز منه، إن وجودي قطعة من الحقيقة المنشودة، هل تراني كنت أفتش عن نفسي حينما كنت أفتش الحقيقة.

فهل أنا كذاك السابح في الماء يتطلب الماء ولا يحس أنه في الماء، ومتى يخرج منه إلى الأرض يدرك الحقيقة، فيتحسر على ضياع عمره عبثاً.

أنا، أنا حالم مستيقظ، حالم لأني أستعرض صوراً هي إلى الوهم أقرب منها إلى الحقيقة، إنها حقيقة ثابتة في ما أحس فيه، وهي حلم لذيذ عاودني فغمرتني نشوته السحرية، ان ما أراه وما ألمسه وما أسمعه شيء لم أتعارف معه قبل ساعتي هذه، إنه عالم جديد، عالم كله لذة ونشوة، عالم كله أنغام وأضواء، عالم كله حب وجمال، عالم ولا أدري بماذا أصفه، إنه عالم لا يمت إلى عالم الناس بصلة، إن ساعاته واقفة لا تمر، وإن فجره خالد لا يزول، يا ليت شعري هل يرى الناس ما أراه؟! وهل يسمعون ما أسمعه؟! إنها مرائي ساحرة، إنها أنغام حالمة، ليتني عشت معها أبداً، أو ليت حياتي وقفت عند هذا الحد، ليخطفني الموت قبل أن يختطف الصحو مني هذه النشوة الحالمة.

وهكذا نسيت نفسي ساعة عرفت فيها حقيقة نفسي، حتى أفقت على صوت الوسيط، وهو يدعوني إلى مقابلة مدير البناية، ولكم تألمت من هذه الدعوة المزعجة، لأنها أخرجتني من جنة أحلامي

واختطفت مني تلك النشوة اللذيذة، حينما أرجعتني إلى حقيقتي المؤلمة، ويأتي فرد من الناس يعيش في عالم زاخر بالكوارث والآلام.

ومن الغريب أن الحياة تغيرت في ناظري فصارت تزعجني صورها وتفزعني أصداؤها، إنها الحياة الدنيا وكفاها تعريفاً هذا الوصف، وبأنها الحياة الدنيا، تلك الحياة التي أبعد إليها جدّنا الأول أبو البشر من الجنة، حينما ارتكب فيها ما استحق الابعاد عنها إلى هذا السجن الضيق، فرموه من العالم الأعلى حيث راح يهوي ويهوي حتى مبلغ الحضيض من الوجود، فإذا الحضيض هو الحياة الدنيا، وهل أنا إلا ولده، وهل الجنة إلا بيت الإثم تفزعني ذكرياته السوداء.

وقد شاءت الصدف الطيبة أن أزوره قبل لحظة، فإذا به يعرفني فيبتعد عني أو يبعدني عنه لأرجع ثانياً إلى السجن الذي نفي إليه جدنا الأول، أرجع عنه إلى الحياة الدنيا، فقد كانت هي الجنة في أمتاعها وألطافها، كما كنت أنا أدماً في غرائزي وملكاتي، ولا فرق بين الحفيد والجد، إلا أنه فارق الجنة إطاعة لدعوة امرأة، وأنا أفارقها إطاعة لدعوة مدير هذه البناية، ولقد كان الوسيط بين آدم وحواء هو إبليس، ووسيطي هذا الرجل المجهول عندي بكل شيء حتى باسمه، فهل هو من نسل إبليس.

استغفر الله من هذه الأخيلة الآثمة، لقد كنت قريباً من الحق أدعوه فيجيبني بالمرائي والأصداء، وها أنا ذا بعيد عنه كل البعد فلا أراه ولا أسمعه، إنني أعيش في ظلمات قاتمة، وفي عذاب أليم.

وبقيت في حيرة من أمري مدة طويلة استبطأني فيها المدير

فأرسل لي الوسيط ثانية يدعوني إلى غرفته فأجبت بسرعة، لكي لا يعود إلي الوسيط فأرى وجهه البغيض مرة أخرى.

دخلت على المدير فاستقبلني ببشاشة وترحيب، . . وقال لي: إن سؤالي السابق قد بقي بلا جواب، وها أنا ذا أعيده عليك، فقال لي: هل أنت على يقين من نجاحك؟ وعلى يقين من صحة دروسك؟ وعلى يقين من اليقين نفسه؟

قلت له: لقد كنت أظن بأن حديثي كان كافياً عن جواب هذه الأسئلة، لأن ما عرضته عليكم من صور اليقين كانت حقائق وعاها وجودي قبل أن يلفظ بها لساني، وكفاني نجاحاً بأني قد تمكنت من عرض نتاجي على هذه المؤسسة الجبارة، فأحصل منه على ترحيب المؤسسة، فأنا على يقين من نجاحي، وعلى يقين من مطابقة دروسي للواقع، لأني طالما شاهدت الصور المعلومة بالحس والعيان، فهي أُمور واقعية لا ينكرها الوجدان، لأنها محسوسة ملموسة، وأعتقد بأني أجبت عن الأسئلة الثلاثة، فقال لي المدير:

إن اليقين إذا احتل وجوداً أناره، وإذا دخل قلباً أراحه، واني أعتقد بأنك تجتاز دوراً نفسياً لذيذاً أشبه ما يكون بالدور الذي اجتزته بعد رجوعك من الرحلة الأولى، إنك تشاهد صوراً نفسية رائعة، وتلمس معاني لا تسعها الألفاظ، فلذلك تعتريك حالة مريحة مؤنسة تود لو لازمتها أو لازمتك، لأن العمر الذي صرفته في الشقاء جعلك تيأس من العثور على الهناء والسعادة، وها أنت ذا لأول مرة تتخلى عن ملازمك الثقيل فتنطلق إلى عالم خال من الفضوليين.

إن هذا العالم هو عالم (الإنس) وهنا ينبغي لك أن تستفسر عمَّا يؤنسك فما هو المؤنس؟ أهي الواردات القلبية التي أخذت تفد

على وجودك؟ أم هي الحالات النفسية التي راحت تلازم أكثر أوقاتك؟ أم هو النجاح الذي اكتسبته في دراساتك؟

إن مصدر هذه العلل الثلاث واحد إنك قد بلغت مرحلة يعبر عنها علماء المعرفة (بالصفاء) إنك الآن قد صفيت حسابك مع الشوائب الزمانية والمكانية، وتغلغلت في عالم الصفاء حتى بلغت منطقة الانس، فأنت لا تأنس إلا بالحالة التي أنت بها، وها أنت ذا تحاول أن تقبض على هذه الحالة.

إن البقاء على هذه الحالة يحتاج إلى ترك غيرها من الحالات، والترك لا يتحقق إلا بنسيان ذلك الغير.

والنسيان لا يكون إلا بذكر هذه الحالة، فالاحتفاظ يحتاج إلى ذكرها.

الذكر

والذكر هو تفريغ الوجود من الغير حتى لا يشغلك سواه، فكل شيء في الحياة حتى نفسك يجب عليك أن تنساه لكي لا تبتعد عن حالتك، فاذكر هذه الحالة بذكر باعثها، وباعثها مظاهر الحق في صفاته الكريمة، ومظاهر صفاته هي الصور المنتشرة في الأرض والسماء في هذه الموجودات المتزاحمة فيهما.

أذكرها لكي لا تنساك وقد أرشدنا الله تعالى إلى هذه الطريقة بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (سورة الكهف، الآية: ٢٤) فهو يريد منك ذكره بنسيان غيره، أذكره بلسانك فاحمده واشكره وسبحه، ولقد وجهنا النبي ﷺ إلى أن أفضل الذكر هو كلمة «**لا إله إلا الله**» لأنها كلمة التوحيد، وجملة التنزيه، والفارقة بين الكفر والإيمان، فهي أجمع للغاية وألذ للقلب، وأصفى للضمير، وأذكره بقلبك فإن الذكر الشفوي إذا لم يلازمه الذكر القلبي كان لقلقة فارغة.

والذكر القلبي هو استحضاره باستحضار صفاته في القلب واستحضاره ملازم لنسيان غيره، لأن القلب لا يعيش فارغاً لحظة واحدة، ولا يسع إلا معنى واحداً، فإذا رمت استحضاره، كان عليك أن تمحو منه غيره بنسيان ذلك الغير، وإذا انشغل القلب بجماله وجلاله استحال طاقة جبارة من الحياة يفعل ما يشاء، وينجز

ما يريد، فلا مستحيل عند صاحبها، لأنه يشغله الحق، والحق قادر على ما يشاء.

ولكي يتحقق لك الذكر الخالد عليك أن تعي أمرين: الأول: فقرك إليه في كل شيء، الثاني: غناه عن كل شيء في كل شيء، ولكي تعي هذه الحقيقة عليك أن تفهم معنى الفقر والغنى.

الفقر والغنى

الفقر هو العدم والبراءة من الملكية، والإنسان فقير في كل شيء إلى الله، لأن كل شيء يرجع إلى الله، فقد كان عدماً محضاً أسبغ الله عليه الوجود، وكان ضعيفاً مستكيناً أعطاه الله الحول والقوة، وكان فاقداً لكل مخصصات الحياة، فوهبها له الله، فكل ما عنده من المخصصات والمشخصات هي لله وحده، فهو فقير في كل شيء، حتى في أطواره وأفكاره، لأنها من طوارىء الوجود، والوجود فيض من الله، إن الإنسان كما تذكره الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ (سورة فاطر، الآية: ١٥)، بينما الله غني في كل شيء عن غيره، إن قلب الإنسان الواعي غني في ميوله وعواطفه المتوجهة إلى الله عن غير الله، فقلبه لا يهفو إلى أحد، لأن غيره مثله في الفقر، وإن أسبغت عليه الظروف ألقابها الضخمة.

إن السلطان العظيم كالمسكين في فقره إلى الحق بكل شيء، فهو لا يتمكن مثله على دفع أي مضرة، أو جلب أي منفعة إلا إذا شاء الله أن يجريهما على يده، فالقوي كالضعيف ذاته قاصرة عن كل شيء، وقوته مكتسبة منه، فالله هو القوي بالذات، والإنسان ضعيف بالفطرة، وما أسباب الغنى ووسائل الشهوة إلا آلات صماء تديرها

إرادة الله، فهي لو لا إرادته عمياء بكماء صماء لا تُسمن ولا تُغني من جوع، ولذلك يكون الفقير غنياً عن غير الله لأن غيره مثله في الفقر، فكيف يدبر الفقير فقير مثله، إنه غني بالله الغني، فهو الذي يُعطي ما يشاء، وإنه قوي بالله القوي، فهو الذي يدفع عنه ما يشاء، إنه فقير بالذات غني بالله، انه يجمع بين النقيضين انه غني وفقير في آن واحد، انه ما زال يردد الآية الكريمة: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ⑧﴾ (سورة الضحىٰ، الآية: ٨)، ويطبقها على نفسه.

وسكت المدير قليلاً، سكت بعدما نفث في وجودي من وجوده، فجعلني أتضخم واضؤل في آن واحد. ها أنا ذا أرى نفسي تسيطر على ما في السماء والأرض، وأرى نفسي في الوقت نفسه اضأل من الخيال، وأضعف من الذبابة، إن لحديثه موسيقى تنفذ في الأعماق فتهز الكيان، وتتعمق في الكيان فتملأ الأعماق، انه يكلمني لا بوسيلة الألفاظ، فإن الألفاظ لا تتسع لهذه المعاني، إن في حديثه طاقة سحرية تسيطر على الزمان فتمنعه من الحركة، وتسيطر على المكان فتجمع العوالم فيه، ما هذه القوة القاهرة؟! وما هذه الهيمنة الجبارة؟

إن لهذا المدير سلطة تخشع لها الجبابرة، إنه يقهر النفس الطاغية، والنفس لا يقهر طغيانها الزمان، إني أعتقد أن في وجوده سراً لا يصل له العقل، إن السماء قد طلسمت هذا الوجود، والعقل لا تصل أسبابه الأرضية إلى السماء، إنه المختار لله في الإنسان، فهو إنسان متأله، وهو إلٰه متأنس، إنه رمز للولاية العامة كما يعبر عنها علماء المعرفة.

الولاية والضنائن

والولاية منزلة لا ينالها إلا من اجتباه الله واصطفاه فهداه إلى صراطه، فسار في الحياة يجاهد نفسه ويجاهد ظروفه حتى صفاهما من الشوائب، وحتى أصبح من الضنائن حسب ما يعبر عن أمثاله النبي ﷺ كما وصل إلينا من حديثه الشريف، حيث روي عنه: «**إن لله ضنائن من خلقه ألبسهم النور الساطع، وغذاهم في رحمته، يضن بهم على البلاء، يحييهم في عافية، ويميتهم في عافية**»[1] ولا يريد من الضنائن إلا من يضن ويشح بهم على غيره، كما لا يريد من النور إلا الهداية إليه، وإن كانت الهداية من لوازم النور، لكنه قد يسمى السبب باسم المسبب.

والهداية لا تتحقق إلاَّ لمن عصم وجوده من الأخطاء، وصان حياته من الآثام، ولا شك بأن الذي يختاره الله لنفسه لا بد أن يغمره برحمته، ويصونه من الحوادث المضلة، والكوارث المزلة، فهو يعيش في عافية من عقيدته وإيمانه، ويموت في عافية من عقيدته وإيمانه، والذي يختاره الله لنفسه، ويرشحه لهداية خلقه، لا بد وأن يكون ممتازاً بذاته ممتازاً بصفاته، فهو مصون من المعصية، لا يجرفه تيارها، ولا تناله أسبابها، كما لا تفوته فضيلة، ولا يبعد عنه كمال.

(١) البحار: ج٧٨ ص١٨٢ باب ١.

إنه يطلب تكميل الحياة ولو كلفه ذلك ما كلفه، وهو يعرج إلى الخلود وإن ناله منه ما نال منه، ولا شك بأن المنتخبين من الله لا يعيشون في طبقة واحدة، لأن مراتب القرب إليه كثيرة وتختلف آمادها، أسماها إليه في النبوات ما وصل إليه خاتم الأنبياء محمد ﷺ وأسماها إليه في الولايات ما حازها سيد الأولياء علي عليه السلام والأئمة المعصومون من أولاده، إنهما قد بلغا مرتبة لم يبلغها ولا يبلغها نبي أو ولي قبلهما أو بعدهما.

وإن حضرة المدير أيضاً قد اقتطف من هذه البستان زهرة فواحة، فحديثه وصمته، ووضعه وأسلوبه، وكل حقيقة فيه لها تأثير ساحر في الجو الذي يعيش به، انه مُكهرب حتى الكهرباء نفسه، إذ يمنعه من التأثير، إني أحس بنفسي تضمحل أمام هذه العظمة المجسمة في هذه الشخصية الرائعة، إن تأثيره فوق ما تحده مقاييس التأثير، إنه ولي من أولياء الله، إنه صفي من أصفيائه، إنه ينظر إليَّ ويبتسم، وكأنه يقرأ ضميري ويساير فكري في جولاته، إنه يريد أن يحدثني فلا أصمت، ولأوقف حركة فكري.

وهنا يلتفت إليَّ ويقول: إنك تسير في الطريق، ومن لزم الطريق بلغ الغاية، وإن في طريقك من هذه الدرر النادرة، والغرر الباهرة، لا يحويها كنز في الأرض ولا أفق في السماء، فعليك أن تتوجه إليها، لتحمل منها ما تطيقه قابليتك، ويتحملها استعدادك، فإنك في سفر يحتاج إلى زاد وافر، وإن زادك هو تلك الآثار والروائع، وطبعاً لا أعني بالدرر والغرر إلا الصفات التي ينبغي لطالب الحق أن يتجمل بها، وأن ينشأ عليها.

الإحسان

وأعتقد بأن أول ما تلقاه أو يلقاك في هذا المسلك هو الإحسان، لأن السلوك إلى الحق لا يكون إلا بمعدات مبدؤها الإحسان، فإن من لا يعطي لا يأخذ، وقديماً قال الشاعر العربي:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

فإذا كان الإحسان طريق الاستفادة من الخلق، فالأولى به أن يكون طريقاً للاستفادة من الحق، فإننا لم ننجذب إليه إلا بإحسانه علينا، والإحسان وسيلة الحب، أحسن إلى مَن تطلب حبه يحبك، فكما أحببناه لإحسانه علينا سيحبنا لإحساننا عليه، وهو القائل في كتابه الكريم ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ (سورة الرَّحمٰن: الآية: ٦٠)، وهو حكم كلي يشمل الحق والخلق.

وإحساننا إلى الحق إطاعتنا لأحكامه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (سورة النساء، الآية: ١٢٥)، وإحسانه إلينا هدايتنا إلى إحسانه، ولقد أشار هو إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، فإن ذكرناه بالإحسان ـ وهو إطاعتنا له ـ، فسيذكرنا بالإحسان ـ وهو هدايتنا إليه ـ لأن الجزاء من نوع العمل، وقد أثر عنه في حديثه القدسي المروي عنه لنا بوسيلة مهابط وحيه، حيث

قال: «**أنا جليس من ذكرني، وأنيس من شكرني، أطيع من أطاعني**»[1] فجزاؤه لنا من نوع عملنا له، وإطاعته لنا استجابة دعاءنا.

وقد يكون الإحسان للإنسان نفسه، إذ نفس الإنسان تستحق الإحسان، أكثر مما يستحقه غيره، لأنها فقيرة لا تجد لها مفزعاً غيرك، فإذا ظننت عليها بإحسانك تلاشت واضمحلت، ولا شك بأنك أحسنت إليها في هذا السير، فقد هذبتِ قصدك حين أبرمته على السير إلى الحق، ونزهته عن كل غرض وعوض إلاَّ الوصول إلى الحق، وعليك أن تحسن لحالاتك، وذلك بأن ترعاها فتجعلها خالصة للحق، كما جعلت قصدك خالصاً له، ولا تخلص حالاتك للحق إلا إذا تنزهت عن الآنية والأنانية، حتى تصفو من الشوائب، فتكون العواطف والبواعث الواردة على حالك إلٰهية محضة ليس فيها تلبيس من إبليس، ولا وسوسة من أبنائه، فإن صاحب الحال تتوارد على عينه الصور، وعلى سمعه الهواتف.

فهو يرى ما لا تراه العين المجردة، ويسمع ما لا تسمعه الأذن العادية، وإن هذه الصور والهواتف قد تكون إلٰهية صحيحة، وقد تكون خرافية باطلة.

وقد وضع علماء المعرفة لتمييزها علامات.

منها أن الصور والهواتف الصحيحة تظهر من يمين صاحب الحال، فالصوت تسمعه الأذن اليمنى، والصورة تراها العين اليمنى، ويستدل على ذلك، بأن الجنة تقع في يمين المحشر، وأصحابها هم أصحاب اليمين وآثارها كلها تنحصر في اليمين.

---

(١) في الحديث القدسي: «يا داود إنه ليس عبدٌ من عبادي يطيعني إلاَّ أعطيته قبل أن يسألني وأستجيب له قبل أن يدعوني». كلمة الله: ص١٤٣.

بينما يكون ظهور الباطلة من الشمال، لأن الجحيم في الشمال ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ (سورة الواقعة: الآيات: ٤١ ـ ٤٣).

ومنها أن الصحيحة تخلف في أعماق صاحب الحال راحة لذيذة وطمأنينة ممتعة، بينما تخلف الباطلة في الأعماق كرباً مخنقاً وغماً مؤلماً.

ومنها أن الصحيحة تزيد إيمان صاحب الحال ويقينه بالحق، بينما الباطلة تنفث في وعي صاحبها الارتياب والاضطراب.

وإنما وضعوا هذه الموازين، لأن صاحب الحال تصفو نفسه، وتتبلور طبيعته فهو يدرك كل همس ويرى كل شبح، وكم للباطل من همسات وأشباح، ولذلك وضعوا هذه الموازين التقريبية لئلا يشذ عن الحق وينجرف مع الباطل.

وفرضوا على صاحب الحال أن يلازم الإحسان لنفسه، وذلك بتصفيتها من الشوائب والأدران لتأمن شر الشيطان ومن جملة الإحسان إلى النفس إحسان الإنسان على عمره، وذلك بأن لا يصرفه إلا في الحق، فلا يطلب باطلاً، ولا يروم زائلاً، وإنما يصرف وقته في تكميل النفس بالمعارف الإلٰهية، والمراتب التهذيبية، لأن التهذيب وسيلة القرب، وبالمعرفة حصوله، فمن زاد معرفة زاد قرباً من الحق، وإن الطرق إلى الحق لا تتناهى، فعليه أن يُكثر من المعرفة ليشغل أكثر الطرق، وربما شغل الطرق كلها، وذلك حينما يفنى وجوده في الحق، حيث لا يتمكن من الانفصال عنه، فكل طريق يسلكه يؤدي إلى الحق.

ولقد طال حديثنا في موضوع الإحسان، حتى خالفت منهجنا الدراسي في هذه الرحلة، ولا غرو فقديماً قال الشاعر:

«ومـا عـلـى الـشـاعـر أن يـطـربـا»

فالموسيقى أول ما تؤثر في العازف نفسه، والجمال أول ما يفتن صاحبه، وإني انشغلت عن الدراسة بالدروس، فرحت أتعمق فيها حتى تجاوزت الحد المقرر في المنهاج لتعليمي.

العلم

وقبل أن أختم موضوعي التجريبي أود أن ألفت نظرك إلى ناحية مهمة في هذا الطريق، وأعني بها الناحية العلمية، فالعلم كما حدثتك عنه أهم شرط للسالك إلى الحق، فإن العلم دليل الشهود، فهو الذي يرفع حجاب الجهل عن العقل بالأدلة.

وأدلته أما عقلية. كالبراهين المنطقية الصحيحة.

وأما نقلية. كالكتاب المنزل من الله على خاتم الأنبياء، والأحاديث المروية عن مصادر الوحي.

ولقد أقام علماء المعرفة للعلم درجات ثلاث:

الأولى: «**العلم الجلي**» وهو الذي يحصل للعيان، والعيان قد يكون بالمشاهدة، وقد يكون بالوجدان، وقد يكون بالاستفاضة، وقد يكون بالتجارب المضبوطة، والمشاهدة لا تحتاج إلى تفسير، والوجدان كالأُمور المحسوسة باطناً، والاستفاضة كالشهرة المستندة على التواتر، والتجربة كالقواعد الثابتة بالاستعمالات المكررة كمسهلية الخروع...

الثانية: «**العلم الخفي**»، ويُسمَّىٰ علم الوراثة،.. يقول النبي ﷺ«**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**»[1] والخفي لا

(١) ميزان الحكمة: مادة «العلم».

يحصل إلا بالمشاهدات والرياضيات الشاقة، منها تنزيه العبادات والطاعات عن الغرض والعوض، فإنها ستؤدي بصاحبها إلى أن تنكشف له الحجب عن الطلاسم المغلقة، والحقائق الغامضة، حيث تنصهر قواه الباطنة والظاهرة فتكون قوة واحدة تدرك ما لا تدركه كل قوة من قواه، وبها يتمكن من مشاهدة الأكوان والعوالم، وبها يغيب في المشهود، ويشهد الغيب، ويصبح كتلة جبارة من القوى لا تتأثر من الطوارىء، ولا تنال منها الحوادث...

الثالثة: «**العلم اللدني**» وهو الذي يرجعه علماء المعرفة إلى الله، وحتى اسمه يستخرجونه من القرآن الكريم حينما يصف علم الخضر النبي عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٦٥) وجعلوا قوله «لدنا» عنواناً لهذا العلم الذي لا يحصل من الأسانيد، ولا يُنال بالمدارك، وإنما يستند على وجوده، فليس للوصف أن يصوره، بل غاية ما نتمكن من عرضه هو حكمنا على صاحبه بالعلم، لأن صاحبه يفيض معرفة وعلماً، من دون أن تعرف مصدر علمه ومبناه، إن علمه موهبة إلٰهية يخص بها الله من يشاء من عباده، وللعلم اللدني مراتب تختلف ضعة ورفعة باختلاف مراتب قرب الإنسان من ربه، ولقد حاز نبينا الأعظم، ووصيه الأكرم أسمى مراتب هذا العلم، فهما يشرفان منه على كل ما يسمح به الحق لخلقه إلا أن النبوة مصدرها أسمى، والولاية مصدرها للنبوة ينمي، فهي منها، وهما منه، ودونهما مراتب كثيرة وصل إليها منْ وصل من الأوصياء الأصفياء.

وأعتقد بأني أطلت عليك حديثي، ولذلك يلزمك الاستراحة التامة لتطيق أعصابك ما تحملها التجارب الآتية، ولتمشي إلى القصد المنشود بقوة تقهر الأحداث إن شاء الله تعالى.

وهكذا ودعت المدير، وفارقت غرفه التجارب، فارقتها بحالة لا يمكنني وصفها، فأنا مرتاح وأنا مضطرب، مرتاح لأني أسير في طريق الحقيقة بقوة وشدة، بل أكاد أطير في أجوائها الواسعة بكل راحة واطمئنان، ومضطرب لأني أعتقد بأن المعارف عوالم لا تستوعبها هذه الدروس، فأنت كما فارقت عالماً منها استقبلك عالم جديد، والله وحده أحصى عددها وأمدها، فعلي أن أدبر نفسي، وأن أستعد لاكتشاف حقائق جديدة ربما ضاق بها وجودي، ولم يتحملها وعي ولكني أسير في طريق سار به هذا المدير القدير، وذلك الأستاذ الكبير، وهما مثلي في الوجود والوعي وقد بلغا ما بلغاه من المعرفة والحكمة.

الحكمة

وهذا القرآن الكريم يحدثني بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٦٩) وليست الحكمة إلا وضع الشيء في موضعه، ولا يمكنك أن تضعه في موضعه إلا إذا وصلت إلى حقيقته، وإلى ما ضمت تلك الحقيقة من الخواص والآثار لكي لا يشطح وضعك، أو يضيق الشيء عمَّا تضعه فيه.

والحكمة قد تستند إلى الإنسان، فتُسمَّىٰ باسمه، وحكمة الإنسان هي أن يقوم المرء بما يفرضه عليه الوضع، فيعطي كل شيء حقه.

ولا يتمكن المرء من ذلك إلا بعد أن يعرف حقوق الأشياء كلها، ومعرفة الحقوق تحتاج إلى دراسة القوانين العامة والخاصة، لكي لا يشذ حكمه عن الواقع فيغمط حقاً، أو يُفرّط في حق، فإن الزيادة كالنقصان يحاسب عليها القانون العام، وكما أن للبشر أحكاماً تمتاز فيها عن أحكام الحيوان والنبات، كذلك لطبقات البشر أحكام تختلف موادها وعناوينها، فالشباب لهم معاملات تمتاز عن معاملات الشيوخ والأطفال، بل نفس الشباب يختلف حكمهم باختلاف البيئات والظروف، فالعالم له امتياز على الجاهل، والعامل

له ميزة على العاطل، وهكذا. فحكمة الإنسان تلزم الإنسان على أن يضع الشيء في محله القابل له.

وكما تنسب الحكمة إلى الإنسان قد تنسب إلى الله، وحكمة الله تظهر في إدارة مخلوقاته من العوالم والأكوان، فقد نظم الحياة على قانون دقيق عادل، يمنح كل شيء حسب قابليته واستعداده، والإنسان عالم خاص من عوالم التكوين، أفاض الله عليه من القابليات ما امتاز بها عن سائر المخلوقات، وأعطى كل فرد من أفراد هذا الإنسان رزقاً يخصه وحده، بحيث لو أراد الإنسان أن يزيد أو ينقص منه لما وسعه ذلك، لأن إمكانياته في هذا المجال محدودة جداً، فهو إنما يمنح ما يمنحه لمصلحة الإنسان، ويمنع ما يمنع عنه لمصلحته فقط، فمنحه كمنعه خير محض، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢١٦).

وما وصلت في تفكيري إلى هذه النقطة الحساسة إلا وانجلت عني حجب كثيفة، وزالت عن عيني غشاوات مقيتة، وتفتحت بصيرتي، وتيقظ عقلي، وتوثبت فطنتي إلى مواضيع حساسة في الحياة.

البصيرة

وإن البصيرة لطف إلٰهي تسبغه السماء على من تنتخبه من أبناء الأرض، فتتوجه إلى الدين فيدرك منه الإنسان أن شرائع الأنبياء تحمل دساتير السماء إلى الأرض رحمة من الرب على أبناء هذه الأرض الجافة، فالنبي الأعظم إنما كان يستوحي قرآنه، ويستملي أحاديثه من الحق نفسه، وبعبارة أقرب إلى المقصود لم يكن النبي محمد ﷺ الإنسان الحق يبلغ أحكامه للبشر ليتوجه بها إلى الصراط القويم، ولئلا يزل ويضل عن سواء السبيل، فالمسلم الواعي هو الذي يؤمن بأن ما جاء به الرسول الأكرم لم يكن إلا دستور الله تعالى قرره بوسيلة نبيه على البشرية في مختلف أدوارها وأمصارها، ولا يمكن أن يرمي دستور الله بالخلل أو الزلل، لأنه صادر عن الكمال.

وقد تتوجه البصيرة إلى ناموس القدر العادل وكيف أن قضاء الله قد ساوى بين أفراد البشر، وذلك في منح كل الأفراد طاقة كافية لتسييره إلى الصواب، ولإيصاله إلى الجنة، فهو لم يؤثر أحداً على أحد، وهو لم يسعف فطرة دون فطرة، بل كان نظره لِفْطر البشر كلهم بمرتبة واحدة، فهو كما قسم ألطاف الطبيعة على البشر بمستوى واحد، فالماء والهواء والشمس والقمر والفصول والانقلابات الكونية، كل هذه الأشياء تجري على الكل بمستوى واحد، وكما أعطى لكل

البشر استعداداً واحداً كافياً للاستفادة من فيوضات هذه الطبيعة، كذلك تفضل على البشر بطاقة متساوية الكمية والكيفية في قبول الهداية والصواب، وأبان لكل البشر أيضاً طرق الهداية والنجاح، كما حذرهم جميعاً عن مهاوي الغواية والضلال، ولقد أعطى جميع البشر أيضاً اختياراً وحرية، لانتخاب أحد طريقي الخير والشر، وأن الاختيار هو الذي حداً بالبعض أن يميل عن الحق إلى الباطل وينحرف عن السعادة للشقاء.

وهكذا راح فكري يصوب ويصعد في هذه الآفاق الملتوية حتى غلبني النوم، وراودتني أحلامه اللذيذة، وحقاً كانت الأحلام التي تلم بي آنذاك لذيذة جداً، فإنها كانت تتمثل في مشاكل كونية كنت أفكر فيها في النهار، وراحت تمر عليَّ كفيلم سينمائي يعرضه النوم على شاشة الأحلام، وكنت وأنا أستعرض دقائقها وخفاياها أجد النقاط الغامضة فيها تحل نفسها بنفسها، وأن المشكلة إذا تمثلت ظهرت النواحي الغامضة منها ظهوراً واضحاً، فإذا كان المستعرض ناقداً فنياً تمكن أن يحلها بفكره الثاقب، وقد امتاز موقفي عند ذاك عن موقف الناقد الفني بأن العرض نفسه كان يحل المشاكل، وينير النواحي المبهمة التي كنت متحيراً في فهمها عند اليقظة، حقاً انني أعيش في دنيا المعرفة، فكل أوقاتها وحالاتها زاخرة بالعرفان، إن نومي كيقظتي لا يمر إلا بعد أن يخلف وراءه، عندي دروساً قيمة في الحياة، وأخيراً أيقظتني عذوبة أنسام السحر، فقد مسحت بأجنحتها المسكرة على وجهي فغمرته بأشذاذ الورد وأنداء الفجر، فقمت وأنا اتطلع إلى السماء، وكأني كاهن يقرأ فيها أسرار الغيب.

إن لمطلع الفجر روعة لا يحس بها إلا من شارك الحياة

باحتفالاتها الساحرة بالفجر، فها هو الأفق يضفي على نفسه جمالاً رائعاً، وها هي الأرض بسهولها وجبالها تستقبل الفجر بسكون رهيب. وها هي الطيور تترك أوكارها المريحة، لتُوقِع في حفلة الاستقبال أروع موسيقى عرفتها الطبيعة، تستقبل الفجر وكأنها تستقبل الحياة، فكل ما فيها من الأمتاع والبهجات يشترك في حفلات الفجر.

نعم هناك من يخاف بزوغ الفجر، لأنه يكشفه فيفضحه، فاللص، والجاسوس، والمجرم، كل واحد من هؤلاء تراه يهرب من الفجر، كما تهرب الوحوش الكاسرة منه، إذ هما يشتركان في الإثم والجريمة، والفجر يفضح بيوت الإثم ومخابىء الجريمة، ولذلك أعتقد بأن من لا يشترك في احتفالات الفجر يشارك المجرمين في الخوف منه وإن لم يرتكب جرماً في حياته، ان من يتهرب من جهاد الرذيلة يساعد الرذيلة في هربه، إذ يخفف من الضغط عليها، والتخفيف مساعدة عملية.

إن الفجر يبدد الظلام بنوره، كما تتبدد الضلالة بالهدى، ويتبدد الخوف بالأمن، ويتبدد المرض بالصحة، الفجر رمز السلام العام، والظلام كابوس الحرب المقيت، فمن الجدير بالكون أن يحتفل بالسلام العالمي، وهكذا كنت أستعرض الفجر واستقري الطاقة وأمتاعه.

وكنت وأنا في غرفتي الحبيبة إلى روحي أقدم للفجر صلاة الإيمان، وقديماً كان الصمت رمز التقدير والاحترام، إن وجودي يشاطر الفجر في إشراقه، إن كل ما بي يهتز وجداً ويرقص طرباً، ما هذا التغيير الذي طرأ على كياني، وما هو الذي أحدث فيه هذا

التغيير؟ أنا اليوم غيري بالأمس تماماً، فما الذي غير نظري ونظرياتي بالحياة، فهل يكون هذا التعبير من لوازم السير، وهل يكون التغيير من خصائص هذه المرحلة التي اجتازها؟ أنا لا أدري إلا بأني متغير في كل شيء، ان عيني تخرق الحجب تقرأ الضمائر، انني أتفرس الغيب من الظاهر المشهود، وأتوسم المستقبل من الماضي.

الفراسة

والفراسة منطقة يمر بها السالك للحق في سيره الوجداني، بعد ما يجتاز مناطق كثيرة وهو في طريقه إلى الحق، وقد يكون لها دلائل وعلائم، تسير بوسيلتها إلى الحقيقة كما يسير المسافر إلى مقصده بوسيلة إمارات النصب والرياح والنجوم، وقد كانت الفراسة موضع اعتماد أغلب نوابغ العشائر العربية في فهم الأنساب، وحتى في قراءة الأفكار واكتشاف المستقبل، وذلك بوسيلة دراسة ملامح الوجه وعلاماته، ومن مصاديق الفراسة فراسة الحال، وذلك إذا بلغ السالك إلى مرتبة الشهود للحق، فإنه عند ذاك يرى الحقيقة بحاله لا بوسيلة الملامح والامارات، وإلى ذلك أشار الحديث الشريف: «**اتقوا فراسة المؤمن**»[1] والمؤمن هو الذي يرى بعين الله، وذلك حينما تفنى نظراته في الله، فلا يشاهد إلا بها، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، فحينئذٍ تكون عينه عين الله التي لا تخطىء في نظراتها، فهي تشخص ما في الضمير كما تشخص العين ملامح الوجه، وترى المستقبل كما تستعرض العين المشاهد الحاضرة المنظورة، وأعتقد

---

(١) عن رسول الله ﷺ: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عزَّ وجل» وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إن المتوسمين هم أهل الفراسة. لاحظ كتاب ميزان الحكمة: مادة «الفراسة».

بأن تفرسي ينتمي إلى القسم الثاني من الفراسة، فإني لا أرى الملامح حتى اقرأ بوسيلتها الضمير الخفي، وإنما أرى الضمير نفسه يتجلى لي في الملامح، فهو في عيني أظهر من الملامح نفسها.

وما لي وهذه الأفكار فقد عاقتني عن القيام بواجبي فلأترك سريري إلى خارج الغرفة، ولأستعرض مشاهدة هذه البناية التي لم أتمكن إلى الآن من استعراضها، فعسى أن التقط بها شيئاً لم تحوه الدائرة نفسها، ولأسرع إلى الخروج من الغرفة قبل أن ينتهي وقت الاستراحة، فقد أوشكت الحياة أن تدب في هذه الدائرة، وإذا دبت الحياة انتهى وقت الراحة، فلأسرع.. ولكن ما لي لا أتمكن من القيام، وكأني قد ربطوني بهذا السرير اللعين فلا أستطيع النزول منه، إني أحس بخطر المراقبة خارج الدائرة، أنا أسمع زئير الوحش المترصد في الخارج، وهكذا رجعت إلى السرير ورحت أحدق النظر وأمده من السرير إلى الخارج فلا أرى إلا دفقات النور وهي تندفع في الآفاق من الفجر، ورحت أرهف السمع فلا أسمع إلاَّ زقزقة العصافير وتغريد البلابل، ومع ذلك أحس بأني أرى شيئاً لا تراه عيني وأسمع صوتاً لا تعيه أذني، ما هذه الحالة الموحشة، فهل هي الحاسة السادسة التي ينسبها علم النفس الحديث إلى العقل الباطن، إني أشعر بأن صوتاً ينذرني بالخطر، وبأن مانعاً يحفظني من الخطر، فهل ذلك هو الإلهام الذي يقرره علم المعرفة.

الإلهام

والإلهام من مقامات المُحدّثين، وهم أهل المكاشفة، وقد أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «**إن في أمتي محدثين منهم الزَّهراء ابنتي** عليها السلام»[1].

وما هو الإلهام؟ وهل هو الوحي؟ أو أن الوحي غير الإلهام؟؟

إن علم المعرفة يفرق بينهما، فيقول: بإن الإلهام هو إلقاء المعنى في الوعي بلا واسطة في البين، ولا يختص بالإنسان بل يشمل حتى الحيوانات كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (سورة النحل، الآية: ٦٨) ولا شك بأن المراد من الوحي في الآية الكريمة هو الإلهام، وإلا فإن النحل لا تفهم لغات البشر لكي ينزله عليها الله، فالوحي هنا هو بث المعنى في فطرة النحل فراحت تتخذ في الجبال بيوتاً،.. والإلهام قد يكون من طريق السماع، وذلك بأن يسمع المُلهَم حديثاً من شخص لا يراه، وقد يكون من طريق الوعي، وذلك بأن يغمر المعنى وعيه من دون سماع

---

(١) عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنما سُمِّيت فاطمة مُحدّثة لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها كما تنادي مريم بنت عمران، فتقول الملائكة: يا فاطمة إنَّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين». حياة السيد المسيح عليه السلام: للسيد حسين محمد، ص٢٢.

أو قراءة، وهناك مقامات أخرى للإلهام لا يهمني استقراؤها، فإنني في مقام فهم الحالة التي أنا فيها، وأعتقد بأن ما يطرأ على حالتي هو الإلهام الوعيي والسمعي معاً، فإني أسمع واني أعي، أسمع ولكن لا من مُحدِّث خاص، وأعي ولكن لا بوسيلة الوعي، إني أسمع زئير الخطر، وأعي وجوده، ولذلك تراني لا أتمكن من الحركة، وربما كانت الحاسة السادسة هي التي تحدثني وتفهمني، وعليه يكون الإلهام من آثار الحاسة السادسة، فلأبق في مكاني لأنه أضمن للسلامة والسلام، وهكذا بقيت على سريري أترقب انبعاث الحياة في الدائرة، وأراقب في الوقت نفسه أمواج النور المتدفقة في الفضاء، وأخيراً بزغت الشمس وتهادت في الأفق بجلال ووقار،فدبت الحياة في الدائرة وقام من قام من سريره يؤدي ما عليه من الواجبات، وقمت أنا من سريري أغسل وجهي ويدي من آثار النوم، ورجعت إلى غرفتي أنتظر أوامر مدير البناية.

وحلقت الصور الذهنية بأفكاري إلى آفاق نائية عن شعوري ولا شعوري، فمن أين جاءت البشرية؟! إن البشرية لغز مستصعب، فهي قد تسمو حتى على الملائكة، وهي قد تتسافل حتى تتجاوز الشياطين كيف باع آدم الجنة بحبات من البُرّ؟ أو كيف خالف ربه ليطيع حواء؟! هل كانت حواء أقوى من الرب؟ ومنْ هي حواء؟ وهل هي من سنخ البشر، أو هي من سلالة الشياطين؟! ولذلك نرى الشيطان يدخل الجنة بوسيلة حواء، وما هو السر الذي حلَّ في الحمأ المسنون حتى جعله بشراً سوياً؟! هل هو روح الله؟! وما هو روح الله؟! هل لله روح؟ أو أن الروح هو الله، لأن ذاته عين صفاته ومخصصاته، وحديث الله نفسه يزلزل القوى ويضعضع المدارك،

الله.. ما هو الله؟.. ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (سورة النور، الآية: ٣٥) هكذا يجيب القرآن الكريم، ماذا يريد من النور؟ فهل هو هذا الشعاع المنبعث من الشمس والقمر والكهرباء؟ فهل الشعاع هو الله؟ أو أن الله هو سر الشعاع؟.. كيف خلق العوالم والأكوان في ستة أيام؟.. ولماذا خلقها؟.. فهل كما يقول الحديث القدسي: «**كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف...**»[1] لماذا أراد أن يُعرف؟.. وماذا يستفيد من تلك المعرفة.؟..!

وكيف يفهم معلول حقيقة علته؟..! وإذا كانت الحقيقة لا تُعرف لماذا يطلب منَّا المعرفة؟.. هل يجوز له أن يطلب المستحيل؟.. انه يعبر عن ذاته بالكنز، فهل يريد أن يشبه خفاءه بالكنز؟.. لأنه مخفي مثله، وأنت تعلم أن الكنز قد يُكتشف، فهل يجيء يوم نكشف فيه عن حقيقة الله.؟..! وكيف يمكن لمخلوق أن يتوصل إلى خالقه؟.. وهكذا راحت الأفكار تتضارب في رأسي وتزعزعني وأنا مستقر في سريري أنتظر أمر مدير البناية، وكلما أردت التخلص منها لم أتمكن، لأنها كانت أقوى من وسائل التخلص، فهي تجول وتجول في فكري وقلبي، حتى خفت على عقلي من الجنون، لماذا لا أحل هذه الألغاز بتؤدة وتأني؟ ولماذا لا أشرع فيها من الأهم فالأهم منها؟ فلأترك التفكير في الإنسان وتاريخه فقد أشبعت البحث عنهما دراسة واستعراضاً، ولأدرس فكرة الله، فهي أهم مواضيع هذه التساؤلات.

---

(١) البحار: ج٨٤ ص١٩٨ باب ١٢.

الله خالق الكون

أعتقد أن فكرة الله لازمت البشرية تاريخياً، فالبشر أول ما يوجد يفكر في الوجود، وفي المُوجِد فليست فكرة المُوجِد مخلوقة الجيل الجديد، نعم ان الفكرة تبلورت وتبلورت حتى وصلت إلى هذه المرحلة من النظام.. إن الله علَّة هذه الأكوان،.. لأنها لا يمكن أن توجد من دون علَّة، وهل سمعت ببناء يقوم من نفسه من دون أن يقيمه بان؟؟ وهل يوجد مُسبّب من دون سبب، إن الموجة في البحر لا توجد إلا بسبب، والبقلة في الصحراء لا تنبت إلا بسبب، فهل يمكننا أن نقول بأن هذه العوالم اللامتناهية أو المتناهية وُجِدت بلا سبب؟ إن الذي أوجدها يسميه الإنسان (بالله).

فالله هو الموجد لهذه العوالم والأكوان، أما ما هي حقيقته؟.. وما ماهية ذاته؟.. فذلك أمر لم يجب عليه الإنسان منذ بدئه إلى هذا اليوم وإني سوف أستعرض البحث عن الله في كتابي (الله) إن شاء الله تعالى ولا بد أن يكون هذا الخالق المُوجِد، هذا الله العظيم، عالماً.. لأن الجاهل لا يمكنه أن يخلق هذا النظام التام في هذه العوالم والأكوان،.. وأن يكون قوياً مقتدراً جداً حتى يمكنه إخضاع هذه القوى الجبارة،.. وأن يكون لطيفاً، لكي يتمكن من النفوذ في النور والظلام،.. وأن يكون.. وأن يكون،.. إلى ما

تعده الصفات الثبوتية،.. فالله الذي لا نعرف حقيقته تعرفت به من صفاته المنبثة في الأكوان والمخلوقات.

فلنطو السؤال الأول لننشر السؤال الثاني، وهو إن الله لماذا أراد أن يعرفنا بنفسه؟.. ولمَّا كان هذا السؤال مما يكثر به النقض والإبرام لذلك نجيب عنه بلغة الأدب، إذ هي أقرب اللغات إلى الوجدان.

يقول الأديب الوجداني: إن الجميل لا يتمكن على ستر جماله، فالبلبل لا يمكنه حبس ترانيمه، والنحلة لا يمكنها ضبط أريها، والشمس لا تتمكن من ستر أشعتها، والوردة لا يمكنها كبت أريجها، والمرأة مهما بالغت بالحجاب لا بد وأن تقودها غريزتها إلى عرض محاسنها، فمن البديهي أن لا يتمكن الجميل بالذات من حبس جماله، فهو يريد أن يعرضه على العيون والعواطف، بينما لم تكن هناك عيون ولا قلوب، فانجذب إلى خلق البشر لكي يراه ويسبِّح بحمده وشكره، فهو لا يريد من مخلوقه أن يصل إلى ذاته، لأنه لا يطلب المستحيل، وإنما يريد منه أن يتعرف على أوصافه ومحاسنه ليخشع قلبه أمام الجلال الباهر، ولينكسر طرفه من الجمال الساحر، وإن جماله وجلاله يتجليان في صفاته الظاهرة في الأنفس والأكوان جلَّت عظمته، ان ذلك الكنز المجهول يدلنا إلى الروائع التي فيه بلمعاته وجلواته عظم سلطانه تعالى شأنه، وأردت أن أسترسل في محاورة تلك الأفكار اللذيذة لولا أن دخل عليَّ الوسيط المعهود يدعوني إلى ساحة الاختبار.

دخلت على المدير فإذا به يستقبلني بقوله: إن آفاق الخيال لا تتناهى، وإن آماد الوهم فوق المقاييس، أضبط مؤشر تفكيرك لئلا تلعب به الأخيلة الباطلة، وتتذبذب فيه الأوهام الفاشلة، وهب أنك تمكنت

من تنظيم تفكيرك مرة، فلسوف تجرفك تيارات الأوهام مراراً، لا تستكن للخيال فتجرفك أعاصيره الهوج، ولا تستسلم للواقع المر لئلا تنهد قواك، طعم الواقع المر بالخيال اللذيذ لتستسيغ مذاقه، وجنح الخيال بالواقع لئلا يتجاوز العقول في طيرانه، ان عالمنا تديره أجهزة دقيقة التنظيم، وأننا جزء من ذلك العالم المُنظّم، فإذا فارقت القافلة تهت في الطرق الموحشة، وجّه فكرك تتوجه حياتك، وسكت قليلاً . . وتركني أرجع إلى نفسي لأشاهد موقفي من هذه التجارب النفسية، لم أستغرب منه قراءة أفكاري، فإني كنت أعلم أنه من أسرة اعتادت قراءة الأفكار، ولكنني استغربت من نفسي فقد هدأت عواطفها الثائرة، واستقرت حالاتها المجنونة واطمأنت آراؤها المضطربة، لقد نزلت عليَّ السكينة السماوية فأرجعتني إلى حضيرة الإيمان والاطمئنان، وها أنا ذا أبتسم بكل وجودي لهذه الحياة، وأحتضن بكل جوارحي أمتاعها المستلذة، ان السكينة كانت من قديم الزمان معجزة الأنبياء، فقد نزلت في تابوت بني إسرائيل وراحت تقتحم أمواج الفتن ليستقر زئيرها الهائج، وليتمشى الاطمئنان في صفوف المؤمنين من بني إسرائيل، فهي معجزة للأنبياء وكرامة للأولياء. . .

والكرامة قد تكون معجزة، وذلك فيما إذا صدرت من نبي مرسل يتحدى معارضيه، والمعجزة تكون كرامة إذا صدرت من ولي من غير قصد ولا إرادة، ولذلك كانت الكرامة من الكنوز الخفية، بينما كانت المعجزة من الكواكب المضيئة، ان الكلمة الحكيمة التي ألقاها عليَّ المدير هي التي بعثت السكينة في نفسي، وليست (سكينة المُحدِّثين) كما يعبر عنها علم المعرفة إلا الكلمة العابرة التي يلقيها الولي بلا سابقة إنذار، إنها السكينة التي أُنزلت على النبي والمؤمنين والتي عبَّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

﴿رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة الفتح، الآية: ٢٦) إن كلمته هي التقوى، لأنها قوت قلبي، وبعثت السكينة في نفسي، فتضامنت عواصفها الهائجة، وهدأت أعاصيرها الجارفة.

فها هي ذا فطرتي تنكشف عنها الحجب الكثيفة فتشاهد الحق الواضح في كل ما في الحياة، وها أنا ذا أخشع بكل وجودي أمام هذه العظمة المتجلية في الآفاق والأنفس، انني راض بكل ما تفضل به عليَّ القضاء العادل من الحياة، أرضى بكل ما تسع هذه اللفظة من المعاني،.. وهنا يلتفت إليَّ المدير وهو يتلو هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ (سورة الفجر، الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨) إنك تجتاز الدرجات بقوة خارقة، فقد تمكنت من تهدئة أعاصير نفسك، وعواصف فكرك، ورحت توجهها إلى السكون والاستقرار حتى تلاشت زوابعها، وكأنها لم تكن، وكأن نفسك لم تعبث بها الدخيلة والأوهام، ان سكينة النفس قد بلغت درجة الاطمئنان، وهي أسمى درجات السكينة، إنك ستعيش بعد هذا في سكون ممتع واطمئنان لذيذ، لأنك ستنظر في كل مشهد من مشاهد الوجود مجلي من مجالي الحقيقة، فستعيش مع الحقيقة أبداً، ومن عاش معها إطمأن وجوده، حيث لا يخشى من شيء، لأن ما يخشاه صورة من صور الحقيقة وحتى الحوادث المزعجة يرى فيها وجهاً من وجوه رحمة الحق، لأنه يراها من الأخطار التي تنتشر في طريق الجنة).

فطريق الجنة كما قال النبي ﷺ: «**محفوف بالمكاره..**»[1] وإن

---

(١) عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إن الجنة حُفَّت بالمكاره، وإن النار حُفَّت بالشهوات». ميزان الحكمة: مادة «الجنة».

لذة الجنة تغلب على أشد الآلام، فلتفعل الحوادث، ولتعصف الكوارث فإنها لا تؤثر في لذة نفسه، لأن ما نثرته الظروف في طريقه ليست إلا مزعجات مؤقتة ستتلاشى عندما يصل إلى الأمل المنشود، والذي تتوقف حياته على إجراء عملية جراحية، يتحمل آلامها بل يلتذ بها لأنها وسيلة الحياة، ولذلك سيتقبلها مطمئن القلب مرتاح الضمير، ويتمشى الاطمئنان من قلبه إلى روحه، حيث أنها في طريق الوطن، وكم يرتاح المسافر في طريق عودته إلى الوطن، بل قد وصلت الروح إلى موطنها الأول، إلى مجالي الحق،.. إلى وجود الحقيقة، إلى عالم الله،.. فكل ما ترى وتسمع وتلمس ليس إلا مظهراً من مظاهره، وجلوة من جلواته، وهي ليست إلا من ذلك الوطن العزيز، من عالم الله،.. فإذا وصلت إليه ارتاحت واطمأنت واستقرت ووصلت إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ (سورة يٰس، الآية: ٥٢)، وهناك (تلقي عصاها ويستقر بها النوى) فلقد عادت إلى مألفها المنشود ووطنها الأول، فها هي ذا تستعرض مجالي ذكرياتها، وتزور مرابع أنسها، ومواطن حبها التي كانت ولا زالت تحن إليها منذ تركته إلى عالم الحوادث.

وها هي ذا ترى نفسها قد وصلت إليها آمنة مطمئنة، فتشاهد أمثلة الجمال، وأظلة الجلال متجلية في الأنفس والآفاق، وتتجاوز عنها إلى مشاهدة الذات، لأن الصفات ليست إلا علائم تشير إلى ذات واحدة، هي التي تبعث بتلك الجلوات في الأكوان والعوالم، وهناك تضمحل المجالي لتتراءى الذات التي لا تُدرك وليلمس الوجود الذي لا يوصف، إنه وجود فوق الوجود، إنها ذات ولا كالذوات، إنها الحقيقة المجهولة،.. إنها الجنة المأمولة،.. إنه الله جلّت عظمته..

ولما وصل إلى هذه الجملة تمشت في أعضائه رعدة جارفة، وكأنه صُعق بتيار كهربائي فهو يهتز ويهتز، .. أترى يُعبّر عن بقية حديثه في هذه الهزّات؟ أم إن هذه الهزات من تأثير ذلك الموضوع، أعتقد بأن اهتزازه يجمع بين العنوانين، فهو يتم بقية الحديث في هذه الحركات اللاإرادية، لأن إرادته قد سلبتها روعة الموضوع فذاب فيه، وأصبح الموضوع نفسه يعبر عن نفسه، ولما كانت الألفاظ قاصرة عن شرحه انسحبت من الميدان لتترك المجال للأعضاء فهي تتم هذا التعبير بالاهتزاز وما أظنها بقادرة على التعبير عنه، إن الموضوع أوسع من العالم المادي، وهو وما يحويه عالمه مادي بحت، لولا إن فيه وديعة إلٰهية تسمو عن المادة وعوالمها، فهي التي تفهم وتستطيع تفهيم غيرها، والحركات رموز وإشارات لمنطقها ولكنه لا يدركها إلا من درس هذه اللغة في مدارسها الخاصة، .. فهي تتمة الموضوع، .. وهي أيضاً أثر من الموضوع نفسه، لأن ما يستعرضه في عوالم هذا الموضوع فوق طاقة المادة وعناصرها، ولذلك تراه يضطرب جزعاً وضعفاً، وحق له ان يضطرب، وإني وإن كنت لا أرى من معارض الموضوع إلا طرفاً مصغراً من العوالم التي يشاهدها الأستاذ والمدير، ولكن الذي كنت أراه كان كافياً لأن يبعث فيَّ أيضاً هزّات لا إرادية، ولذلك تمشت الرعدة إلى أعصابي ورحت أرتعد وأرتعد خوفاً ودهشة.

إنني كنت أستعرض حالة المدير وحالتي، فكنّا نهتز معاً وبعد مدة طالت في حساب الزمن هدأت الاهتزازات، واستقر المدير في جلسته، وأخذ العرق يتصبب من سائر أعضائه بالرغم من برودة الطقس، فقد كنّا في أوائل شباط/١٣٧٣ هجري، ومع ذلك أغرقه

العرق وكأنه في شهر تموز أو آب، في حمارة القيظ، قيظ «النجف» المحرق.

هدأت حركات المدير، ولكنه بقي ساكناً ساكتاً، وتمشى الهدوء منه إليَّ، فاعترتني حالة لا أستطيع عرضها بالكلام، حالة أشبه ما تكون بحالة من سئم الانتظار والكسل، فهو متحفز للوثوب أو العمل، إن طاقتي فوق ما تتحمله أعصابي، . إنني لا أستطيع ان أعمل المستحيل، . . أي شيء يبعد عن هذه الهمة الجبارة؟ إن الهمة تمشت في عقلي فصرفته عن الأشياء التافهة، تلك الأشياء التي تمر بالحياة وهي منطلقة إلى الفناء والاضمحلال، فلا يقرر العقل إتعاب نفسه لأجلها، إن الطاقة العقلية أثمن من هذه التوافه الزائلة، ولذلك فهو لا يتوجه إلا للمواضيع الخالدة، تلك المواضيع التي تمر بها الأحداث مرورها على الشمس والقمر، حيث تزول الحوادث وتبقى هذه الأجرام ثابتة في أفلاكها تهزأ بالحوادث العابرة، إن العقل يتوجه إلى الحق الذي لا يزول، يتوجه إلى صفاته، إلى ذاته، . . وان كانت وسائل العقل لا تتمكن من إدراك الذات، ولكنها إذا استمد العقل طاقته من الروح أصبح العقل روحاً، وحقق مصداق الحديث الشريف (العقل ما عبد به الرحمن)[1] وهنالك يسمو عن آفاقه إلى آفاق الروح الخالدة، فينظر بنظر الروح، ويحس بأحاسيسها، إذ تذوب مقدماته الجامدة وتذوب حتى تصبح النتائج عنده بلا مقدمات، . . وكما تمشت الهمة في عقلي تمشت في قلبي أيضاً، فوجهت غرائزه إلى المقصود نفسه. فهو يحب ذات الحق بذاته، . . لا لطمعه بجنته، ولا لخوفه من ناره.

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «العقل».

لأن القلب أدرك بأن لذة الذات فوق اللذائذ، فكل لذة غيرها تضمحل إذا قارنتها بلذة الذات، ولذلك توجه إليها القلب بحبه، فانبعث إليها بجنون جارف، فهمة القلب متوجهة إلى الحق نفسه، وكل ما تقوم به الأعضاء التي يستخدمها القلب إنما تقوم به للحق ذاته، لا للمنافع المرجوة منه، ولا للمكاره التي تخافها منه.

وتمشت الهمة من القلب إلى الحال فجردتها عن الألوان العارضة عليها من تجليات الصفات، وتعزف عن كل شيء ليستحيل شوقها إلى الذات نفسه، إن الحال ضارعتها حال «قيس العامري» التي كانت لا تحس بغير «ليلى» في الوجود، فهي لا ترى غير الحق ولا تدرك سواه، انني أحس بنفسي بأنني قد أشرفت على مقام الموحدِّين، انني لا أفهم حالي ولا حقيقتها، و...

وهنا أفاق المدير من ذهوله، وتوجه إليَّ بقوله: إنك تجتاز اختبار منطقة في السلوك إلى الحق، إنك تسير إلى المرحلة السابعة باندفاع قوي، إن هذه المرحلة تبلور النفس الإنسانية بل تحرقها لتخلق من رمادها نفساً جديدة لا تمتّ إلى مادتها بصلة ما أبداً،.. إنها نفس نورانية تعيش وهي على الأرض في السماء،.. إذ لا يمكن الوصول إلى الغرض المنشود بهذه النفوس المسمومة العفنة.

إن الغرض المنشود هو الحق، والحق منزه عن كل وصمة ونقيصة، وهذه النفوس ليست فيها إلا السيئات والنقائص،.. إن العمليات التي أجريناها على نفسك لم تستأصل بعد منها شأفة النقصان استئصالاً تاماً، بل كل ما تمكنا عليه هو ان نوقف جهاز الفساد فيها، وان نهدىء أعاصيرها وعواصفها، ولكنك في هذه المرحلة ستحترق تماماً لنخلق من رمادك وجوداً جديداً لا يمت إلى

وجوداتك السابقة بصلة ما أبداً، إننا نريد ان نُعدِم فيك عناصر الأرض فتزول جاذبيتها، وإذا زالت جاذبية الأرض من وجودك بقيت جاذبية السماء فيه بلا مزاحم، وهناك ستجذبك السماء إلى عالمها، لأنك ما دمت في الأرض لا تتمكن من الوصول إلى المقصود، فإذا تلاشت فيك عناصر التراب أصبحت جسماً أثرياً تدعوك جاذبية السماء إلى نفسها فتجيبها إجابة لا إرادية.

إن جمال السماء لا يشبه الأرض في كل شيء، إن جمال السماء روحي صرف، ولذلك لا تتمكن من ضبط مقاييس الجمال في عالمنا الأرضي، إن جمالها هو الذي يجعل الملائكة تُسبِّح بحمده وتقدسه، وهو الذي جعل الأرض تحن إليها كلما وجدت لها مناسبة في الأرض تذكرها بالسماء وجمالها الباهر،.. ولا تظن بأن جمال السماء يتمثل في نجومها الزاهرة، أو في قمرها البازغ، أو في شمسها الساطعة، أو في لونها الساحر أو في نسماتها الرقيقة، أو في غيرها من مظاهر السماء ومناظرها.

لا، لا يتمثل ذلك الجمال في هذه المرائي، ان هذه المظاهر انعكست عليها أشعة الجمال الحقيقي فأكسبتها ظلاً جاذباً رائعاً، وأما الجمال الحقيقي نفسه فهو متناء عن هذه العوالم الظاهرة، انني أريد ان تتصور ذلك الجمال، وتلتفت إلى آثاره الساحرة وتتصور أيضاً بأنك مدعو إلى لقائه، فهل تجد في نفسك الاستعداد والقابلية للوصول إليه؟ انني أترك تصور ذاك لنفسك، وأنتظر منك الجواب الوافي...

تركت غرفة المدير، واتجهت إلى غرفتي الخاصة، وانطرحت على سريري وقد ثارت تيارات أفكاري، وهاجت زوابع أخيلتي، وهي تصعد بعقلي وتصوب به، انني ريشة خفيفة ضعيفة تلاقفتها هذه

الأعاصير الكاسحة، فلا يمكنني ان أثبت في مكان ما، ولا يسعني ان أستند على طرف من أطراف هذه الآفاق اللامتناهية، انني أجاهد عبثاً في توجيه فكري ولم شعثه، إن حديث الجمال ليهز كياني كما تهز الطاقة الكهربائية جهاز الحديد الثقيل، . . ولذلك تركت نفسي للتيارات تفعل بها ما تشاء، ولكنني ركزت نظري في المركز الذي تدور عليه هذه الأمواج، إن المركز هو الجمال، فالجمال هو الذي يبعث هذه العواصف في تفكيري، فلأتوجه إليه، . . ولا بد ان يتوحد فكري في التوجه إلى هذا المركز الموحد، إن الجمال روح خفيفة رقيقة، ولكنها وهي مع ضعفها المفرط قوية جداً، كما أنها في خفتها الطائرة ثقيلة جداً على العواطف والأعصاب، . . إن الجمال عالم نوراني سماوي، عالم أدهش من النور والظلمة، وأقوى من عناصر الأرض والسماء، فما هي ماهية هذه العوالم؟ وما هو سر عظمته وقوته؟ هل هو بسيط الحقيقة؟ أو أنه مركب من عناصر قوية لطيفة؟ انني لا أصل إلى حدوده.

إن حدوده فوق مستوى تفكيري، وما لي وحدوده؟ وما أهمية تلك الحدود؟ بعدما توصلت إلى حقيقة من أوصافه، إن وصفه مرآة حقيقته، ولكم عرفنا الحقائق بالأوصاف، ان وصفه أثَّر في وجودي حتى جعلني لا أفكر إلا فيه، ما هذه الجاذبية المُستودعة فيه؟

الجاذبية إلى الحق

إن الجاذبية من خصائص الجمال فكل جذب ينتمي إليه، ولا بد ان تكون بين الجاذب والمجذوب سنخية جامعة، منها يجذب الجاذب، وبها ينجذب المجذوب، فما هي السنخية بيني وبين الجمال؟ أترى السنخية مستودعة في الاسم الذي أحمله فهو الجمال؟ وانني سيد «محمد سيد جمال»؟ أم تراها في شيء أعمق من الاسم؟ فهي مُستودعة في الروح التي تسيرني إلى ما تريد، إن الروح من عالم الجمال، ولذلك تراني لا انجذب إليه إلا إذا تجردت من المادة وعلائقها، إن الروح هي سر هذا الانجذاب، انها تحمل جنسية عالم يحكمه الجمال، فهي من رعاياه، وهي لا زالت تحن إليه، ان الجمال قد شغل أحاسيسي، وجذب أفكاري، ووحد اتجاه أخيلتي، فأنا لا أحس بغيره، ولا أفكر إلا فيه، ولا أتخيل سواه، إنني أكاد أذوب في الجمال، ما هذه الحالة التي تعتريني؟ إن دنياي خالية إلا منه، فهو الذي يشغل عوالمي الخاصة منها والعامة، انني لا أسمع إلا صداه، ولا ألمس إلا لطفه، ولا أتكلم إلا بحديثه ولا أفكر إلا فيه، إن اتجاه حياتي قد توحد فهو لا يسير إلا إلى الجمال، ولست أدري إلى أي ناحية من نواحي الجمال يتوجه؟ ولأي مصداق من مصاديقه يسير؟ إن عالمي قد شغله الحق منذ

فكرت فيه ومنذ دخلت هذه المدرسة في طريقي إليه، ولذلك أعتقد بأن الجمال الذي يجذبني هو جمال الحق، وللحق جمال يتجلى في الأكوان والآفاق، فكل شيء يروقك يصور لك جماله، انني ألمس جمال الحق في روائع الليل وبدائع النهار، ألمسه في كل ما يشغل عالمي، ولا يشغل عالمي إلا الجمال، إن هذه الجذبة اللاإرادية هي الحب، إذا الحب ليس إلا الانجذاب إلى جمال المحبوب.

والانجذاب وإن كان من خصائص القلب، لكن حبي قد صيرني قلباً، فوجودي قد استحال إلى قلب خفاق، فلذلك تراني أنجذب إلى الجمال بكل وجودي، وماذا أطلب من الجمال؟ انني لا أطلب إلا قربه، فقربه هو الذي يبيدني ويعيدني، انني لا استقر من الخلع واللبس إلا إذا اندك وجودي في وجوده، فما دامت الأثنينية في البين، وما دام هناك هو. وأنا. فإنني لا أقنع من القرب بما أصل إليه، لأنني لا أرتوي من قربه إلا متى اندك وجودي في وجوده، ولا شك بأن الاندكاك الذاتي أمر موهوم تغنت به بعض القلوب الحالمة، لذلك أسير في الاندكاك وأسير إلى أن أصل غاية مراتبه الممكنة، فلأذيب رأيي في رأيه فلا أرتئي إلاَّ ما يرتئيه، ولا يمكنني هذا الذوبان إلا إذا أفنيت صفاتي في صفاته، فلا أفعل إلا ما يريده، ولا يفعل إلا ما أريده، ولأكن مصداقاً لأنشودة الشاعر العربي:

أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أحببته أحببتني وإذا أحببتني أحببتنا

وإن كان الشطر الثاني من البيت الأول لا ينطبق مع المقصود، فإن المقصود هو أن تكون الروح واحدة تحتل بدنين، لا أن تكون روحان يحتلان بدناً واحداً، فإنني لا أشك بأن لي وجوداً شخصياً،

وله وجود شخصي، نعم نحن روح واحدة تحتل بدنين، ولكل بدن مشخصاته، ولذلك يصبح التجاوب النفسي أمراً طبيعياً، فإن الروح الواحدة هي التي تدير هذين العالمين، ولذلك ترى أحاسيسهما يتحدان في الدعوة والاستجابة.

إنني أرى نفسي تذوب في الحق رويداً رويداً فأنا لا أنفصل عنه، وهو وجودي كله، إنني لا أرى في الوجود غيره، إن الناس إذا أرادوا التقرب إليه سجدوا له حسبما أرشدتهم إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ (سورة العلق، الآية: ١٩) لكنني قريب منه أبداً، فأنا في سجود ذاتي، إن وجودي كله ساجد للحق، لأنه قريب من الحق، والقرب لا يتحقق إلا بالسجود، فما دمت قريب منه فأنا في سجود له، فسجودي ذاتي تمحوه العوارض، إنني أحبه، ولكنني أريد أن أوجه حبي حسبما يوجهني هو إليه، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٣١) فلأتبع النبي بأحكامه وسيرته، فلا أتجاوز الشريعة المحمدية، ولا الطريقة الجعفرية، وليست الطريقة الجعفرية إلا الشريعة المحمدية طبعتها الظروف بطابع «جعفر بن محمد الصادق عليه السلام»، لأنها أضمن الطرق، وأصحها في الهداية والدلالة، انني أسير عليها إليه، فأطعم لساني بذكره، لأن قلبي لا يشغله سواه، واللسان كما يقال بريد القلب، فهو يبدي ما يخفيه القلب، وها هو قلبي مشغول به، فلساني لا يلهج بغير ذكره، إنني لا أرى إلا جماله، ولا أتخطر إلا ذكرياته، ولا ألهج إلاّ بذكره، انني أنجذب حتى من نفسي، انني أكاد أموت من الحب، رب اجعل حبي خالصاً لوجهك الكريم، إن حبي يزداد سعيره، إنه يتحول من حال إلى حال أسمى منه ولأسميه الشوق.

الشوق

فإن الشوق هو الدرجة الثانية من الحب، الشوق هو حركة الروح، والروح لا تتحرك إلا إذا ثار الحب، والحب لا يثور إلا بعد استقراره وتمكنه من القلب، فإذا استولى على القلب تحركت الروح، وراحت تبعث الجسم وأعضاءه إلى المقصود، ولا يمكن للسالك أن يتوجه إلى المقصود إلا بعد أن تفنى آراؤه وأفعاله وصفاته في آراء المحبوب وأفعاله وصفاته ليحصل له استعداد القرب واللقاء، إن شوقي للحق لا يمت إلى جنته وأمتاعها وأنعامها، إنه جنتي ومتعتي ولذتي، ولو كان لقاؤه في الجحيم لاستحال الجحيم جنة لا تضاهيه الجنة بلذائذها، إن شوقي يتبلور إلى شيء آخر أعظم من الشوق، إنني قلق من سيري لا أستقر إلا عند شاطىء اللقاء الحقيقي، انني أحس بنفسي بأنها مصداق لقولي.

فهو لا ينفك من لهفته   يحسب الماء سراباً وهو ماء

إنني أرى الحق في كل شيء، ومع ذلك أطلب الحق في كل شيء فلا أراه، انني أصبحت مستوحشاً من كل شيء، لأنني أراه حاجباً دون مقصودي، إنني أطلبه وأطلبه، إنني أجده في كل شيء ولا أجده في كل شيء، فلذلك تراني أأنس بكل شيء وأستوحش من كل شيء، انني أستثقل كل شيء في هذا العالم فأهرب من كل شيء فيه،

إنني أطلب الوحدة. لأرى فيها ما لم أره في المجتمعات، إن قلقي قد تغلب على عقلي، فهو لا يصبر ولا يسكن إلا إذا بلغ مرامه وأنا لا علم لي بهذا المرام، إنه في لقاء مع حبيبه أبداً، إنه يراه في كل شيء ويسامره في كل وقت، ومع ذلك فهو يطلب القرب.

ليت شعري ما هو هذا القرب الذي يسعى إليه؟ أنا أعتقد بأنه لا يلمس حقيقة النعمة إلا من فارقها ولا تُدرك لذة القرب إلا بالبعاد، إن قلقه يستمر ويستمر حتى ليكاد أن يفنيه الفناء الحقيقي، رباه ما هذا العطش؟! إن ولعه لا يُحد، وظمأه إلى اللقاء لا مزيد عليه، إنه يشبه خليل الله إبراهيم عليه السلام في فهم الحقيقة الخفية فكلما رأى جمالاً، قال: هذا ربي، فلما أفل علم أنه ليس هو مطلوبه، إن مطلوبه لا يغيب ولا يفنى، ان بقاءه أبدي سرمدي، وهكذا هذا السالك يرى مراده في كل شيء، حتى إذا رآه يتلاشى انتبه إلى غلطته، لأن مراده لا ينقص ولا يتلاشى، ان التعريفات الإلٰهية، والإشارات النورانية تسقيه جرعة بعد جرعة من خمرة المعرفة، ولكنه لا يزال ظمؤه يشتد ويشتد، انه يطلب الجرعة الأخيرة، انه ينتظر نهاية المسيرة ونهايتها هو الإشراف على (حفيرة الجمع). على أساس اصطلاح علم المعرفة، انه لا يرتوي إلا بالتجلي التام، والظهور الكامل، وأنت تعلم أن التجلي لا يتحقق إلا بالفناء الحقيقي، إن حبه يستعر، وقلبه يلتهب ما هذا الحب الصاعق؟ إن التجليات لا تزيده إلا ظمأً ووجداً، وحتى عقله أصبح يلتهب من وجده، فهو لا يكتفي بالمعرفة العلمية إنه يطلب المعرفة الحقيقية التي لا تحصل إلا بالشهود، إن عقله استحال روحاً سماوياً تتطلع إلى السماء أبداً، حتى كأنه يريد أن يعرج إليها، إنه يسمع الأصداء البعيدة تدعوه إلى اللقاء، فهو أبداً يتطلع إليها، إن وجده يخطفه من الكونين، فهو لا يريد الدنيا للدنيا، ولا يريد الآخرة

للآخرة، إن وجده قد حال بينه وبين عالم التكوين، فهو لا يستقر في الأرض، ولا يعرج إلى السماء، إنه يريد الدنيا والآخرة والسماء والأرض لمحبوبه فقط.

إن حقيقته تغلب على ملابساته، فهي التي تسيّره، ولكنه لا يدري إلى أين تسير به، إنه يريد الحق الذي يتجلى في كل شيء، ولذلك يخلع نفسه من الملابسات لتشمله عناية الحديث القدسي الذي يبشره بقوله: «**لا تتسم حتى أعطيك اسماً من عندي**» إنه يريد أن يتسمى بعنوان من عناوين الحق، وراح يفكر ويفكر حتى ظهر له أنه يتشح برداء الحق.

وينطبع بعنوان من عناوينه، لكنه كان غافلاً عن الحقيقة في تفتيشه عن الحقيقة، إن للحب حالات تختلف شدة وضعفاً، وانه قد بلغ ـ بحسب معتقده ـ غاية ما يتوصل إليه الصب في الحب، ان حبه محرق مبيد، انني وحبيبي،.. آه ما أرق وما أقسى حبيبي،.. فهو قريب من وجودي بعيد عنه، انه يجمع النقيضين في صفاته وحركاته، انه يمنيني القرب في كل حالة وحركة، وانه يبعدني عنه في نفس تلك الحالة والحركة، انني أراه.. انني لا أراه.

رباه ما هذه الظاهرة أترى أنها من حالات نفسي، فهي التي تتطور في مظاهرها، أم ترى أنها حالات ناشئة عن تجلي الحبيب، فهو الذي يريني كل آن صورة من جماله، وحقيقة جديدة من وجوده، آه،.. إنني أراه،.. نعم انني أراه،.. ما هذه الحقيقة المتجلية؟ انني أكاد أصعق خوفاً وطرباً،.. أتراني رأيت أخيراً ما لم يره الإنسان أولاً؟.. أترى هذه الظاهرة هي التي تجلَّت لموسى عليه السلام في الجبل فدكته وخرَّ موسى صعقاً! نعم انني.. أراه أراه بكل وجودي، إن وجودي قد استحال عيناً سحرية فهو يرى كله بكله، إنني أشاهد ما لم يشاهده طرفي الطبيعي،

وأعي ما لم يعه علمي وعقلي، إنني أرى الحقيقة المجردة في نفس الحقيقة، إن الأزمنة والأمكنة قد استحالت شيئاً واحداً لا زمان له ولا مكان، إنني أبصر الحقيقة بعين الحقيقة نفسها، فهل تراني قد فقدت شخصيتي واندككت في نفس الحقيقة حتى أصبحت أبصر نفسي بنفسي، وأبصر الحق بالحق؟.. آه!!، إنني تذكرت الحديث القدسي الذي يشير إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر فيه**»[1]، إنني أبصره ببصره وأسمعه بسمعه.

إن ذلك نتيجة الحب،.. أقدسك أيها الحب وما أعظمك أيها الحق!! إنني أذبت وجودي فيك حتى عرفت وجودي فيك، وأفنيت حقيقتي بك حتى أدركت حقيقتي بك، فهل تراني كنت أفتش عن نفسي حينما أفتش عن الحقيقة؟ انني أنا،.. وأنه هو،.. رباه ما هذا الاتحاد؟.. آه إنني أدركت أنني أتحدث معه حينما أفنيت صفاتي في صفاته، إن الفناء الوصفي والفكري أثر في نفسي حتى جعلتني أحسبه نفسي، وأحسبني نفسه،.. إن تيار الحقيقة يجرفني ويجرفني، حتى أصبحت موجة منداحة في محيطها العجاج،.. فهل الموجة هي المحيط؟ لا لا،.. إنني غيره وإنه غيري، وإن كنت أحسبني هو وأحسبه أنا،.. إن التيار يدفعني إلى الأغوار فأتغلغل في أعماقه حتى لا قدرة لي على ضبط نفسي، ما هذه اللمعات البارقة؟.. وما هذه الأعاصير الجارفة؟.. إنني أرى وجودي يتطور حتى يستحيل عدماً في وجود أو وجوداً في عدم،.. إن أثر هذه اللمعات عميق في

(١) في الحديث القدسي: «ما تقرّب إليَّ عبد بشيء أفضل مما افترضت عليه، ولا يزال يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي». المنهج العبادي: للسيد حسين محمد، ص٥٠.

وجودي، . . إن أثرها يتغلغل في كل جزء جزء من كياني، . . إنني أرى كل شيء ينطوي في وجودي، وأرى وجودي ينتشر وينتشر حتى يستوعب كل شيء، فهل تضخمت أنا!؟ أو هل تضاءل الكون؟ . . إن آثار هذه البوارق الخاطفة يزلزل عقيدتي في كل شيء، حتى في وجودي، فهل أنا موجود؟ . . وهل الوجود موجود؟ . . إن كل شيء لا شيء، فلأتدبر أمري بتوجيه فكري، نعم لأتدبر عقلي، فأقول: لا شك بأني موجود. . . فكل شيء موجود، . . إنني أحس بأنني كل شيء، فهل أنا كل شيء!؟ إنني مضطرب بين الحقيقة والخيال، . . رباه ألمسني الحقيقة، ما هذه البوارق اللامعة. . إنها نار موسى، . . إنها نار القرى، . . إنها نار الحب، إنها النار التي هيمت المجوس حتى جعلتهم يسجدون لها، . . إنها، إنها، إنها الحقيقة الأزلية، . . انني أرجو بأن أسير على ضوئها إلى الحقيقة المنشودة، إن وجودي ينصهر في حرارتها فيجعلني أحس ما لم أحس به سابقاً، إنني أحس بأني قريب جداً من المبدأ. . من الحضيرة المقدسة. . من الجنة الخالدة. . من الحق الخفي، من الفجر الجلي، . . إنني أحترق وأستلذ بهذا الاحتراق، . . إن رجائي إلى القرب لا يعادله رجاء آخر، لكن ماذا أستدرك نعم لكن. لكني أخاف الاحتجاب، احتجابي عن هذه البوارق اللامعة، إن احتجابها يلازم فنائي وزوالي، . . لأن خفاءها يرمز إلى عدم أهليتي للحياة مع الحقيقة، . . إنني أخاف أن أُطرد كما طرد إبليس من الحضيرة المقدسة، إن هذه اللمعات تجذبني إليه وتعرفني به، . . إنني أسير على الآثار الصحيحة وسأصل إلى الأمل المنشود، ما ألذ حياتي!!؟ وما أشهى هذه الساعات!!؟ ما أعظم مقامي عنده!!؟ فقد اصطفاني دون لذاتي للقائه، إنني الآن عرفت قيمة هذه المدرسة وأثرها في توجيه الإنسان إلى الحق، . . إنني

أسير إليه بإرادة جبارة تزلزل الحياة وتبيد الموت، إن الإنسان كما قال علماء الفسلجة «لغز مطلسم» إن إرادته هي التي تسير الحياة وتدبر الموت،.. إنني أقوى منهما،.. إنني ألمس الحقيقة،.. فهل أشرفت على حضيرة الجمع، كما يعبر عن ذلك المقام علماء المعرفة، إنني إنني،.. وبينما كانت الأفكار تتوارد عليَّ وإذا بالمدير نفسه يدخل عليَّ، ويمد يديه لمعانقتي،.. ويهنئني على النجاح والعودة إلى المدرسة، حيث قد اجتزت الأدوار التي يلزمني اجتيازها، وطال عناقه لي حتى دخل عليَّ رفيقي وأستاذي في رحلتي الغريبة، وهو يفيض سروراً وطرباً،.. ويحتضنني بشدة مؤلمة، وأخيراً تركني ليلقي عليَّ كلمة يكرم فيها نبوغي وعبقريتي النفسية...

كان وداعنا لمدير البناية وأعضاء إدارته حافلاً بألوان العواطف والأحاسيس، وخرجت من البناية المقدسة وأنا مطمئن كل الاطمئنان على نجاحي في دراستي المُتعبة، فلسوف أتخرّج من المدرسة وأنا رجل يوجه نفسه بنفسه في الحياة، رجل يعرف تكاليفه مع الماضي والمستقبل ولقد كانت العيون التي تراقبنا باحتفال وتقدير ونحن نجتاز شوارع البناية إلى الخارج، لأنها كانت تفهم من الوضع الذي كان رفيقي الأستاذ يعاملني به إنني نجحت في دراساتي، فهي كانت تُكرم هذا النجاح بنظراتها العاطفية، وأنت تدري بأن للحظ وهو النجاح أثراً فعالاً في معاملات الناس.

وهكذا ودعنا البناية واستقبلنا الصحراء ورحنا ندرج في وهادها وسهولها وكأننا عاصفتان أثارتهما الصحراء، إن قواي تجتاح الطبيعة فتهز عناصرها، وإنني أسير وكأنني شعاع ترسله الشمس إلى حيث تريد، إنني لا أتخلف عن رفيقي في السير فهل قد بلغت ما بلغه هذا

الأستاذ القدير، أنا أقرأ ضمير رفيقي من دون أن أحتاج إلى سير ملامحه، إنني أقرؤه وكأنه كتاب رقمت سطوره بحروف كبيرة بارزة تدعو الناظر إلى قراءتها، إنه يفهم ما أفهمه، فلذلك تراه يبتسم،.. إني أنظر ابتسامته من دون أن أختلس النظر إلى شفتيه، إنه يريد أن يحادثني فلأتوجه إليه.

وما رفعت نظري إليه حتى قال لي: إنك تسير إلى المقصود، وربما ستتجاوز المنطقة التي وصلت إليها في سيري، إن استعدادك خارق للعادة، وربما أودع الله فيك القوى التي تهضم قوى هذا العصر المادي،.. إن من يختاره الله يزوده بالقوى اللازمة، إن العصر يحتاج إلى قوة أعظم من القوى العلمية، إن العلم يهدد الطبيعة بقواه، فلا بد وأن تكون لك قوة أعظم من الطبيعة لتتعادل مع قوى العلم، إن الطبيعة موجة صغيرة في محيط الحقيقة، فلا بد لك أن تستحيل تياراً يوجه الأمواج، إن التيار ينبعث من صميم الأبدية، حيث يسير بقوة توجه أمواج هذا المحيط الهائج، وأعني به محيط الأنفس والأكوان، إنك لا تتمكن من العلم حتى تستحيل تياراً، ولا تستحيل تياراً حتى تنفذ إلى صميم الأزل وتستعرض به مشاهد الخلود، وهناك تنبعث معرفتك عاصفة كاسحة تجتاح كل ما يعارض سيرها، إذ لا تعتمد حينذاك على الخرائط المستوحاة من الظن والتخمين، وإنما تطبق أعمالها على الصور القطعية التي شاهدتها في رحلتها الأزلية، إذ قد شاهدت أن كل ما يجري في الحياة ليس إلا تطبيقات لقوانين وضعتها الإرادة الأزلية، ولذلك تراه لا يخشى أحداً ولا يرجو أحداً أبداً، انه يلحظ الحق في كل شيء من الحياة، ويشاهد الله في كل مظهر الموجود، فهو يحس ويشاهد بجلال الحق وجماله الظاهر في كل جلوة من جلوات الوجود، إنه

فانٍ في هذه المظاهر والجلوات، حتى لتخاله جلوة منها، ومظهراً منه، إنه ولي من أولياء الله، قد تولاه الله وكلأه بعنايته ورعايته، فلا يكفر إلا بالحق، ولا يعيش إلا مع الحق، إنه لا يسلو عن الحق ومجاليه لحظة واحدة، انه يخشى احتجاب هذه المظاهر، فهو يستودع وجوده صوراً وصوراً من هذه المجالي، ويختزن في ضميره، جلوات وجلوات من هذه الصور، وهو يدرك أن وراء هذه المتكثرات المتجلية حقيقة واحدة وذات أحدية هي التي تطالعنا كل آن في صورة جديدة، وتجذبنا كل لحظة بجلوة جاذبة، إن هذه الجلوات تندك إذا لاحظنا الذات، إن الذات، صورة الحي القيوم، وحقيقة الواحد الأحد.

وسكت رفيقي إنه أسكت لسانه فقط، أما ضميره فهو مستمر في حديثه يخاطبني بلهجته الصامتة الناطقة، إن حديث الضمير أفصح من حديث اللسان، إن الضمير لا يزل ولا يتلكأ ولا يتعتع، إنه يستمر ويستمر في حديثه، إن حديثه أشهى على نفسي من كل حديث يبثه اللسان، ما ألذ الضمير وحديثه!!

قلت له: أستاذي الجليل إنك تحدثني بضميرك، وحديث الضمير أمتع من حديث اللسان لماذا تزعج هذه الحاسة الرقيقة بهذه الرياضة الشاقة؟ دع اللسان ومخارج الحروف فيه، وخلنا نتكلم بلغتنا الخاصة، إنك تفهمني وأنا أفهمك، إنك تقرؤني وأنا أقرؤك، فلماذا تتعب نفسك وأتعب نفسي بغربلة المعاجم لتلتقط قوالب تسع مقاصدنا المعنوية، إن حديث الضمير لا يحتاج إلى ألفاظ قد تنقص وقد تزيد على المعاني، ولذلك فهو أضمن للبيان من الجمل والمفردات، إن حديث الضمير لا يستغرق من الوقت إلا جزء مما

يستغرقه الحديث اللساني، فلماذا لا نعتز بوقتنا الثمين، فلا نصرف منه إلا ما يلزمنا صرفه، وتخزن الباقي لنصرفه في المواضيع الواجبة من الحياة، إن الوقت وإن عرّفه المناطقة بأنه «سير الزمان وظرف الكون»، لكنه قد حوره علماء المعرفة حتى فسروه بأنه ظهور حالات معينة في السالك منشؤها التجليات الغيبية له، فإن لتلك المجالي تأثيراً عظيماً في وجوده، فهي قد تتوافق مع الصور العلمية المنتعشة في نفسه، وقد تتخالف معها، ولكل من هاتين الحالتين تأثير خاص في الحال، فالصورة الموافقة تبعث في الإنسان سروراً يماثله سرور منْ طلب شيئاً في جهة خاصة فوجده، والصورة المخالفة تصدم النفس الإنسانية بأحاسيس متخالفة تسمى في اصطلاح الأخلاقيين بالتلوين، فهو قد يميل إلى الصورة العلمية، وقد يميل إلى الصورة المشهودة، فهو يتلون بتلون الصور حتى تتمكن إحدى الصورتين من نفسه، فتحتلها وتمحو الصورة الأخرى.

ويُسمَّىٰ علم المعرفة بقاء الصورة المشهودة بالتمكن اصطلاحاً، فإنه قد تمكن أن يمحو الخيال بالحقيقة، إذ تكون نسبة الصورة العلمية حينذاك إلى الصورة المشهودة بمثابة نسبة الصورة الخيالية إلى الصورة الحقيقية، ومن المعلوم أن الخيال يختفي إذا ظهرت الحقيقة، وهكذا العالم يذوب إذا تجلى الحق شهوداً، وإذا تمكن السالك من حالة تمكناً قوياً استغرق وجود الحق وقته، فاستهلك عمره، وجرف زمانه، فهو لا يعيش إلا فيه، وهو لا يموت إلا عنده وإن الموت عنده هو الحياة الخالدة،.. وسكت لأنه قد غمرتني موجة من الصفاء حتى جعلتني شفافاً كالزجاج، رقيقاً كالنسيم، لطيفاً كالنور، ما هذه الحالة؟ ألقيت سؤالي على أستاذي.

الصفاء

فأجابني: بأنها حالة الصفاء التي تمر بالإنسان عندما يتمكن من الحق، أو بعبارة أصح عندما يتمكن منه الحق، لأن الصفاء لا يحصل إلا بعد سقوط التلون وتصفية النفس من أكدار العوامل العارضة، وشوائب العلم والوهم والتخمين، والعلم لا يصفو إلا بالعمل، فإن العلم إذا لم يعمل به حامله كان عبئاً ينوء به كاهل صاحبه، وكما يصفو العلم بالعمل تصفو الحال بالواردات الإلٰهية والشواهد الربوبية التي تتجلى لصاحب الحال فتهديه إلى الحق، وإن لذة تلك الشواهد في النفس لتفوق لذائذ الدنيا والآخرة، وإذا صفت الحال بالشواهد الاسمائية تهيأ وجود السالك إلى الفناء في الذات الأحدية، حيث يفنى ظاهره في الصفات الظاهرة، فتكون أوصافه أوصافها، ويفنى باطنه في حقيقته، حيث يستحيل كتلة جبارة من الوجود طاهرة من ذلة الإمكان وخسة الفناء، . . حيث يرتدي عزة الله، . . ولله العزة جميعاً . . .

واعترتني هزة مسكرة حلقت بمشاعري إلى ما وراء هذه العوالم والأكوان، وإذا بنفسي تستحيل جنة وادعة تغني بها البلابل وتتمايل فيها الأغصان وتنساب منها وإليها الجداول والشلالات، . . ما هذه البهجة المنسابة في كيانها، ما هذا الفرح الطاغي في وجودي، فهل

هو من أثر أحاديث أستاذي أو هو نتيجة سيري إلى الكمال، إن المنطقة التي اجتازها منطقة ساحرة جداً، إنني أكاد أذوب فرحاً وسروراً، إن سروري لم يكن نتيجة أمتاع الحياة ولذائذ الدنيا، إنني أعيش في دنيا بعيدة عن دنا الناس، أعتقد بأني أعيش في دنيا الآخرة، ربما تمكن الإنسان من جلب آخرته إلى دنياه، أو من جذب دنياه إلى آخرته، إنني أجمع الدنيا والآخرة.

إنني لملمت أطراف الزمان حتى حبسته في الزمان الذي أعيش فيه، فأنا أستعرض مواكبه وأجياله من برجي العاجي، أستعرض بعين الرضا (وعين الرضا عن كل عيب كليلة) كما يقول الشاعر العربي، فأنا لا أرى في قوافل الأجيال ومواكب القرون عيباً يستحق النقد والملام، انني راض بهذا النظام الكامل، وما أنا ورضاي حتى يستحق إذا سجله في ديوان الأزل!؟ إنني موجة جرفتها تيارات هذا المحيط الهادر.

نعم انني مسرور ومسرور جداً، مسرور لأنني أرى ما لا يراه سواي، إنني أرى في مشاهد الكون عناوين بارزة لصفات الحق وأشاهد في مرائي الوجود صوراً ناطقة بجماله وجلاله، إن ظلمات الجهل تنقشع عن عيني لأرى الحقيقة بعين الشهود، وأشاهد الواقع بنور اليقين، إنني أتلاشى قليلاً قليلاً في وحدة جامعة تندك فيها العناوين والصور، إن نفسي وعقلي وقلبي ذابوا في هذه الوحدة المشهودة، أو الشهود الموحد، انني أشاهد الصفات عناوين ترمز إلى الذات، فالتفت إلى الذات فإذا بالصفات تندك فيها فلا شيء غيرها، إن الذات هو الوجه الباقي، أما الوجوه الأخر فقد ذابت كلها في هذا الوجه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ (سورة القصص، الآية:

٨٨) إنني أرى وأسمع وأفكر وأحكم، وأميز وأتعرف بروحي، إن روحي وحدها هي التي تقوم كياني، أما أحاسيسي فقد زالت وذابت في هذا الشهود الموحد، أو الوحدة المشهودة، ما أعظمك أيها الروح الخالدة.

كنت أسير مع رفيقي وأستاذي وكان فكري يسبقني في السير حتى وصلنا إلى البستان، ولم ندخل إليها، بل انحرف رفيقي عنها إلى طريق جانبي سرعان ما وصلنا منه إلى الجبل فصعدناه وكأننا حمامتان من حمام ذاك الوادي، ونزلنا منه إلى الجانب الثاني وكأننا صخرتان دحرجهما سيل عارم، وعلى شاطىء البحيرة وقف أستاذي فوقفت.

وقال لي: أما فكرت في هذه القوة الجديدة التي تلبست بها، هذه الطاقة التي خلقت منك بطلاً عالمياً في السباق؟ إنك تجتاز هذه الصعاب وكأنك تسير في طريق معبد منجم، بينما كنت قد قطعت نفس الطريق بصعوبة منهكة ومشقة مهلكة، أتتذكر كيف كنت تصعد هذا الجبل الشاهق؟ إنك لو قست صعودك إياه في الرواح وصعودك إياه في المجيء لعرفت التفاوت بين قوة الرواح وقوة العودة، أعتقد بأنك مخلوق جديد، إن قواك الجديدة لا تمت إلى كيانك القديم بأيِّ صلة، ان الحقيقة ولدتك في هذه الحياة من جديد، ولدتك لتبشر بك أبناء هذا الجيل البائس، هذا الجيل الذي يسير إلى غير غاية، لا يدري من أين جاء، ولا يدري إلى أين يسير، انه يحمل تبعات الحياة كلها ولكن بلا نتيجة تجنيها من هذا الاحتمال، انه أيأس من البهائم العاملة، فهي تكد في النهار وتستريح في الليل، أما إخوانك من أبناء هذا الجيل فهم يكدون بجوارحهم في النهار، ويكدون بأفكارهم في

الليل، إن لياليهم تنصرم في إيجاد وسائل جديدة للكد في النهار، يكدون ويكدون ليستريحوا في المستقبل، وليت شعري أين هو مستقبلهم هذا؟ ان ابن التسعين منهم يفكر في مستقبله أيضاً، إنه وحده الذي يسير إلى مستقبله من بين طبقات الكادحين، وإن كان هو لا يتوجه إلى مستقبله الحقيقي، بل توجهه إلى مستقبل قد فوتته عليه الأيام، إنه يجهد لكي يرتاح في الدنيا وهيهات أن يرى الراحة في حياة تصرمت أيامها بالكد والكدح، إنه يعتمد في راحته على قواه وقوى إخوانه الفقراء الضعفاء، وأنت تدري بأن ضم ألف فقير لا يولد غنياً واحداً وأسناد مليون ضعيف إلى مليون ضعيف لا يوجد قوة صغيرة، ولكن المسكين نسي نفسه ونسي جنسه، فهو يريد من الثور حليباً، ومن السراب ماءً، إن مستقبلنا هو العالم الذي نستقر فيه، حيث لا حوادث تزعزعه ولا انقلابات طبيعية تغيره، إنه عالم مستقر الجوانب مستقر النظام، إن أهله لا يخشون حادثاً حتى يستعدوا لملاقاته، ولا يخافون تغيراً حتى يتهيأوا له، إنهم مطمئنون آمنون وادعون إن نظامهم تديره الحياة الخالدة، فهو خالد بخلود مديره، وإن عالمهم تحرسه القوة السرمدية، فهو مصون من كل علة وزلة، إن ذلك العالم هو المستقبل الذي نسير إليه في هذا العالم، إن ذلك العالم هو الساحل الثاني من هذا العالم، وإن الموت هو البحيرة التي نجتازها إليه.

يعتقد بعض عشاق الراحة من أبناء هذا الجيل بأننا نتلاشى كتلاشي الشمعة، فلا عودة لنا بعد الموت، ولو فكر في التغيرات التي أصابته في أدوار حياته منذ كان نطفة إلى أن بلغ مبلغ الرجال، لفهم بأن له في كل دور موتاً، وله في كل تطور ولادة جديدة، وهكذا الموت فهو دور ينتهي ليبدأ منه دور جديد، إن الدور الذي

يواجهنا بعد الحياة لهو دور جميل لذيذ ينتهي بالحشر الأكبر، كما ينتهي دور الحشر الأكبر بالخلود في الجنة أو الجحيم، وفيهما تنتهي أدوار الحياة والموت، فهناك المستقبل الصحيح الذي يستقر فيه موكب الإنسانية من سيره...

وهنا قام الأستاذ وقمت خلفه نعبر البحيرة ونحن بألبستنا، وحتى الحذاء لم نخلعه من أقدامنا، اننا نسير على الماء وكأننا نسير على التراب إن قواي أعظم من قوى النبي موسى الكليم عليه السلام، فهو شق البحر ليشق له طريقاً يبساً، ونحن نسير على الماء وكأننا نسير على اليابسة، وهكذا عبرنا البحيرة إلى الجانب الثاني، عبرت البحيرة وأنا في اضطراب فكري من حالتنا التي نحن فيها، كيف تمكنا من السير على الماء وكأننا نسير على التراب، وهب أني أوعزت عبور أستاذي إلى مواد وجوده التي لا تؤثر فيها العناصر ولكن ماذا أقول بجسمي الذي تركب من هذه العناصر القابلة للفساد، ما هذه القوة؟.. وهنا قال رفيقي: بأن لله خلقاً مختاراً من خلقه، وهم الذين يعبر عنهم في حديثه القدسي: «**بأنهم أوليائي لا يعرفهم غيري**» إن هؤلاء الصفوة لا يختلفون عن غيرهم في الزي والهيئة، واختلفوا عنهم في القوة والطاقة، إنهم أصحاب سرّه، وذخائره في خلقه، فهم بشر كالناس يحسون بأحاسيسهم، وإن خالفوهم في المادة والحقيقة، إنهم وجهوا هممهم إلى إدراك الحقيقة المستحيلة، فتجاوزوا الصفات إلى الذات، وقطعوا العلائق عن غير الذات، حيث فنوا في الذات نفسها، فراحوا يذوبون شيئاً فشيئاً فيها حتى استحالوا حباً صاعقاً وهياماً محرقاً، كل ذلك والناس يحسبونهم أفراداً منهم، يعيشون في دنياهم ويموتون في دنياهم، بينما هم يعيشون في حياة بعيدة عن حياة الناس، إن هؤلاء هم أحب عباد الله إلى الله. «إنهم الأتقياء

الأخفياء» انهم مع الناس ومع الحق، مع الناس حيث تعاشر مظاهرهم الناس في الأخلاق والتقاليد، حتى يعتقد كل أحد من الناس بأنهم منهم وإليهم، ومع الحق حيث اجتازوا في سيرهم كل المراتب حتى بلغوا مرتبة الفناء في الذات، فهم علماء تجاهلوا صوناً لأنفسهم وأحوالهم عن الظروف الجاهلة، وهم أولياء تنازلوا رعاية لمقاماتهم من المذاهب الباطلة، وسكت أستاذي لأني انشغلت بالتطلع إلى معالم الوطن التي كانت تتراءى لي من بعيد، وقد صرنا نقترب منه ونقترب حتى أوشكنا أن ندخل الشارع الرئيسي في البلد.

وإذا بأستاذي يقف فجأة، وكأنه يأخذ راحة لأعصابه، أو كأنه يهيىء أعصابه لسير جديد، وهنا التفت إليَّ وقال:

النَفَس

بأن للسالك حالات يأخذ فيها راحته من سيره المجهد، ويسميها علماء المعرفة، (بالنَفَس) لأن فيه يتروح المجاهد من مشاقه وأتعابه، والتروح قد يكون في استتار عالمه الجديد عنه، أو استتاره عن العالم الجديد، وهو ما يعبرون عنه (بالقبض) فإنه إذا استترت عنه تلك العوالم تنفس كيانه الإنساني ورجع إلى عالمه الأول ليأخذ منه راحة لأعصابه وأعضائه، إن تنفسه أشبه ما يكون بتنفس المحزون لأنه حزين على فراق عالمه الجديد، وفي هذا التنفس الحزين راحة لأعصابه المجهدة، فإذا عادت حاله إلى عالمه الجديد تنفس أيضاً، ويختلف هذا التنفس عن سابقه، لأنه يصدر عن لذة وارتياح، حيث عاد الضائع إلى قومه، ورجع السالك إلى انبساطه بعدما انقبض عنه حلمه اللذيذ، إن استراحتي هذه للتنفس.

ولكن هذا التنفس ليس أحد القسمين المذكورين، إنه تنفس من نوع آخر، انه النفس المقدس الذي يتصاعد من عالم الفناء فناء الممكن في الواجب، أو فناء الإنسان في الحق، أو فناء العاشق في المعشوق، أو فناء السالك في مسلكه، بأي هذه التعابير شئت عبر عنه، فإنك لا ترمز إلا إليه، ان تنفسي هذا يصدر عن عالم لم تصل أنت إليه، إن خريطة ذلك العالم لا ترسمها الأقلام ولا تسعها

الأوراق، ولذلك أترك رسمها لكي تراها بنفسك وتصدق بأنه وجود لا يوصف وعالم يحد، وأني قد أخذت راحتي من هذا النفس فهلم بنا إلى المدرسة فإن هيئتها التعليمية تنتظر قدومك باستقبال رهيب.

الرجوع إلى المدرسة

وهكذا توجهنا إلى المدينة، وقد أخذتني حالة أشبه ما تكون بالنشوة، فقد كنت أسير وأنا على غير إرادتي واختياري، وقد استولت عليَّ أفكار مضطربة صوبت وصعدت بقواي، إلى أين توجهت؟.. وإلى أين رجعت؟.. توجهت إلى عالم لم أدركه قبل أن أراه،.. رجعت إلى عالم لا يتصل بي ولا أتصل به أبداً، انني سوف أرجع إلى إخواني الذين لايفهمونني ولا يفهمون المعرفة ومقاماتها، أرجع إلى وطن يبعد عن أحاسيسي ومداركي بعد السماء عن الأرض، لماذا تركت البناية وأهلها، وفيها ما أشتهي من المعرفة ومنْ اشتهى من العلماء، تركتهم لأرجع إلى قوم قطعت منهم علائقي حينما ربطت حياتي بهذه المدرسة، انني تركت غير الحق حينما اتصلت بالحق فأنا غريب في وطن الخلق، بعدما تجنست بسمة الحق وانتميت إلى دنياه انني غريب في حالاتي ونزعاتي عن الناس، فهمتي تتوجه إلى ناحية لم تتعارف عليها همم الناس، وآمالي ترفرف في أفق لم تشاهده هذه العيون، انني غريب عن هذا المحيط الذي يتبنى تاريخي، فهو موطن طفولتي ومسرح شبابي، ومع ذلك أنا غريب عنه لأني لا أحب مبادئه وغاياته.

والحب رمز التعارف والانتساب، فمن لا تحبه لا تعرفه، وإن كان أوصل الناس بك، ومن تحبه تعرفه وإن كان أبعد الناس عنك،

إن الحب علامة المعرفة، وما دمت لا أحب هذا المحيط فأنا لا أعرفه، إنني غريب عن هذه البلاد التي تتبناني، وإن كانت لي فيها مآلف وأحباب، فلي من المدرسة التي هذبتني موطن حبيب،ولي من الأساتذة الذين ربوني إخوان وأحباب، فلماذا أعد نفسي غريباً عن هذا الوطن وهؤلاء الناس، ولي فيه مثل هذا الموطن وهؤلاء الأحباب، فلأتوجه إلى مدرستي في وطني المعبود، ولأرجع إلى أساتذتي فهم أهلي وإخواني، وهكذا أقنعت نفسي بالرجوع، ورحت أطوي الطريق مع صديقي الأستاذ حتى دخلنا المدينة واتجهنا إلى المدرسة.

قبل أن ندخل إليها رأيت المدير يخرج منها، ويتوجه إليَّ ليحتضنني بشوق ولهفة، ويقدمني على نفسه وعلى أستاذي ورفيق سفري في الدخول إلى المدرسة، وما دخلت إليها حتى شاهدت صفوفاً من التلاميذ وقد ارتدت اللباس الخاص بالترحيب وهي تحمل شعار المدرسة الخاص بها، يتقدمها أساتذتها وهم في زيهم الرسمي، وحينما رأوني ارتفعت أصواتهم بالأناشيد الترحيبية، وفيها يباركون نجاحي بلغتهم الخاصة، وأعني بها لغة المعرفة، ولقد أثرت بعواطفي تلك المظاهرة حتى جرفني تيارها إلى عالم آخر، جرفني إلى عالم الحقيقة، ذلك العالم الذي تركت العالم ومنْ فيه شوقاً إليه، وها أنا ذا ولا زلت بعد تلك المنازل والمراحل التي قطعتها في سيري الوجداني لا زلت أسير وأسير وليس لي اطلاع بنهاية هذا السير، ولا بالنتيجة المترقبة فيه، وهل سأنال الأمل المنشود؟ وهل سأتوصل إلى حل رموز الحقيقة المعقدة، ان يومي ولا شك في ذلك غير أمسي في معارفي ومداركي، وانني اليوم أعرف ما لم أعرفه أمس، ولكن هذه المعرفة لم يكمل بعد بناؤها، فهي تحتاج إلى مواد أخر لم أنلها بعد، وإن كنت مقتنعاً بأني

سأنالها لأتمم البناء الذي شيدته في جهادي الوجداني، انني الآن في صميم التيار ولجج المحيط، قد توسط بي السير، وتمكنت من جمع أحلامي وأعمالي في حلمي وعملي هذا، فعلمي قد بلوره شهودي حتى جعله كما يشتهيه، وعملي قد شذ به حالي حتى صيره كما يريده، فها أنا ذا أستعرض الحقائق الإلٰهية في معارض الحياة، وها أنا ذا استقرىء صور الجمال والجلال في مشاهد الأرض والسماء، فكل ما في الوجود يدل عليه، كما قال الشاعر:

وفـــي كـــل شـــيء لـــه آيـــة تـــدل عـــلـــى أنـــه واحـــد

إن صفاته تدعوني إلى ذاته، إنني أستجيب لكل صفة منها استجابة عبد يدعوه مولاه، فأنا عبد لصفاته ومن عبودية الصفات أترجى بأن أصل إلى عبودية الذات، فعبد الرحمن له الأهلية التامة بأن يكون عبد الله، إن هذه الصور قد غمرتني. وهذه الحقائق قد جرفتني حتى استغرقت في الحقيقة المنشودة، فأنا غريق أمواجها الجارفة. انني لا أرى الأمواج وإنما أشاهد البحر، إن البحر وحدة لا تتجزأ، وإنما يجزؤه العقل القاصر، أما الإدراك الكامل فهو يفهم بأن الأمواج والتيارات ليست إلا حالات للبحر يحسبها الناظر منفصلة عنه في وجوداتها بينما الموج ليس إلا صورة من البحر ظهرت في شكل الموج، ما هذه السكرة الوجدانية التي استولت على مشاعري، إنني أغيب في هذه الأمواج الهادرة، إنني أغيب في البحر، لأن الأمواج عنوان ثان للبحر، إنني أغيب عن الأمواج في الأمواج، إنني لا أرى الأمواج وإنما أحس بالبحر نفسه يغطيني بوجوده، إنني في البحر، فهل أستحيل موجة فيه؟ أو أكون جزء منه؟ وهل للبحر أجزاء لأكون منها؟ إن البحر وحدة لا تتجزأ وأنا في هذه الوحدة، فهل يصح أن

يطلق عليَّ عنوان البحر، لا. لا. ما هذا الخيال الباطل، إنني أنا والبحر هو البحر، إن النشوة قد صورتني بحراً، فإذا زالت السكرة فلسوف ألمس الحقيقة بالفكرة.

وهناك أخرجني نشيد التلاميذ من جنة أحلامي فعدت إليهم، لأصافح الأساتذة، ولأجيب على تحياتهم بابتساماتي التي كنت أنثرها على الوجوه والعيون، وبعدما تم النشيد، وقف حضرة المدير ليلقي كلمة ترحيبية باسم الهيئة التعليمية في المدرسة، ثم أعقبه رفيقي في الرحلة وأستاذي في الجهاد الشيخ محمد فألقى خطاباً استعرض فيه النقاط الحساسة في الرحلة، وأشار إلى صحة جهادي وقوة روحي ونشاطي ثم طلب مني أن أشكر أحاسيس المدرسة بكلمة مناسبة للمقام، وهكذا تقدمت إلى منصة الخطابة، ورحت أوازن بين عهدي حياتي، بين عهد الانطلاق وأعني به الانطلاق عن الإنسانية، وبين عهد الالتزام بنواميس المدرسة، وراحت الجمل والعبارات تندفع من فمي وكأنها ضخات قوية من المطر يرسلها السحاب، إنني لم أكن مستعداً لهذا الموقف، ولكني أعطيت الموقف حقه، ثم عرضت صورة من أحاسيسي وعواطفي في هذه الرحلة الوجدانية. ورحت أقف على كل منطقة حسَّاسة من مناطق رحلتي، وكان لصورة البحيرة والجبل والبستان أثر مدهش في نفوس التلاميذ وأحاسيس الأساتذة، ولما أردت أن أعرض عليهم صوراً من حالاتي النفسية استولت عليَّ رعشة فرَّقت الكلمات في فمي فلم أدر ماذا قلت، وإن كل ما أحسست فيه أن العرق أخذ ينبع من مسارب بدني حتى غمرني، ولم أشعر بعد ذلك بشيء إلا أني في غرفة المدير وقد أحاطتني هيئة المدرسة، والمدير يضع رأسي في حجره، وهو يمسح العرق المتقاطر من جبيني، ولما فتحت عيني في عينيه ابتسم في وجهي.

الكتمان

وقال: إن للسالك حالات مع الحق يدركها بوجوده، ولكنه ليس له أن يصفها لغيره، إنها فوق البيان، إن ذلك الحرم لا يدخله إلا الخواص من الأمناء، ومن الأمانة حفظ السر، ولما كنت ممَّنْ وفقه الله للحج إلى تلك المواسم فاطلعت على تلك المحارم، وأردت أن تتجاوز الحد، وتفشي السر أدركتك العناية الإلٰهية بتلك الغشوة الروحية فخنقت قيثارتك الفاضحة، وحفظت مكانتك في ملكوت الولاية، وإلا لكان لك شأن غير شأنك (ليس كل ما يُعلم يُقال) كلمة حكيمة أظهر مصاديقها حالات السالك، فإنها مخطورة الظهور والبيان، إنك في مقام لا يناسب فيه التوجيه، ان ما تجنيه في نفسك ليس إلا ثمار جهادك ونتاج عملك، فعليك أن تتمكن من أحاسيسك لئلا تشذ في حال أو مقال، إن التمكن هو ضبط الأحاسيس والعواطف في المشاهد المثيرة والمواطن الحساسة، ولا يتمكن السالك من الضبط إلا إذا انقطع عن غير الحق إلى الحق حقيقة، وذلك بأن ينمحي غير الحق عن نظره، حيث يشاهد الحق في كل شيء ولا يشاهد شيئاً غيره، ولا تتأتى له حالة الانقطاع إلا متى صفت مداركه، وخلت أحاسيسه عن غير الحق، فهو لا يفكر بغيره، وهو لا يرى سواه.

وإذا تمكن الصفاء من حال السالك تمكناً كلياً دفعه إلى حضيرة الجمع، وأعني بها منطقة الذات التي تجتمع بها الصفات لتندك في وحدة جامعة، وإذا بلغ السالك هذه المنزلة استقر به النوى، وألقى عصا التسيار لأن السفر لبلوغ الوطن، فإذا بلغه فلا سفر، إن الطلب للوصول إلى المطلوب، فإذا أدرك المطلوب فلا طلب، وإذا بلغ حضيرة الجمع حصل له استعماد الفناء في الخلود حيث يعيش به، ولقد أشرفت أنت في سيرك على هذه الحضيرة المقدسة، فعليك أن تضبط أحاسيسك وتتمكن من مشاعرك لكي لا تزل في المقال أو تشذ في الحال، وإن في زللك وشذوذك من الأخطار ما لا ترفعه الوسائل والأسباب.

وسكت المدير ليتقدم إلى أحد الأساتذة فيرشدني إلى منضدتي في الصف الثالث ولقد أخذني العجب حينما رأيت منضدتي تنفرد عن مناضد إخواني من التلاميذ، إذ قدموها على المناضد بمسافة ملفتة للنظر، وقبل أن أسأل أستاذي المرشد عن سبب هذا التقديم، أجابني بأنك تسير إلى الكمال بطريق لا يتمكن غيرك من السير فيه، ولذلك أفردنا لك مكاناً في صفك ليدل مكانك على مكانتك في هذا الصف.

ولما اخترت مكاني بين التلاميذ التفت إلينا الأستاذ، وقال: إني لا أحتاج إلى تجسم وسائل التعارف بينكم، فإنكم بالتفات أحدكم إلى الآخر سوف تتفاهمون بأوسع ما تتحمله جمل التفاهم وعبارات المجاملة، لأنكم في منزلة تنكشف فيها الحقائق والواقعيات.

المكاشفة

إن المكاشفة من مميزات أصحاب هذه الدرجة، ولذلك ترى الواصل إليها يتفاهم مع صاحبه بغير لغة الكلام ومنطق التعابير، بل يقرأ كل منهما حقيقة صاحبه وكأنه يطالع في كتاب، أن المكاشفة وإن لم تكن هي الوحي المعروف، لكنه لا يبعد عن الوحي في منزلته، فالوحي يتنزل بواسطة رسول خاص يبعثه الحق، والمكاشفة انكشاف الحقيقة بلا واسطة، فالأول يكشفه بوسيلة، والثاني ينكشف له بلا وسيلة، فالمكاشفة والوحي يتصلان في العنوان الجامع، وأعني به انكشاف الواقع، ويختلف الوحي عن المكاشفة بأنه انكشاف بواسطة الرسول الإلٰهي، والمكاشفة انكشاف بلا واسطة، ولما كنتم تعيشون في هذه الدرجة كان عليكم أن تتفاهموا بالمكاشفة، فيقرأ كل منكم باطن الآخر، وليكن تكاشفكم تكاشف تحقيق أولاً، وذلك بدراسة النواحي الإلٰهية في هذه النفوس، ولا يتأتى لكم هذا التكاشف إلا بعد أن تصفوا النفوس عن غير الحق، لكي لا ترى غيره فإن الغير إذا توسط في البين أصبح حجاباً للعين، فإذا أمحت صور الغير أصبحتم ترون الحقيقة بعين الحقيقة.

ولتعلموا أيضاً بأن مكاشفة العين غير مكاشفة الحال، فالحال لا تتمكن أن تستمر في كيان صاحبها، أما العين فإنها دائمة مع

صاحبها لأنها لا تحصل إلا بفناء صاحبها في الحق، وإذا فنى الإنسان في الحق أصبح يعيش به دائماً، لأن الدوام والخلود من خصائص الحق، وإذا عاش به كانت حياة أعضائه به أيضاً، فهو لا يسمع، ولا يتكلم، ولا يسير، ولا يقف إلا بالحق، فالحق معه أبداً، وهوِ مع الحق أبداً، وبما أن فيكم من بلغ هذه الدرجة من المكاشفة كان عليه أن يكونِ المعرِّف بنفسه لكم.

وهنا حوَّل وجهه إليَّ وكأنه يُشخِّص هذا المعرف لتلاميذه فأدركني الخجل، وطفقت أستر نفسي بنفسي وهيهات أن أنستر أمام هذه النفوس الكاشفة والعيون السحرية، وأنقذني الأستاذ باسترساله إلى حديثه، حيث قال:

إن السالك إلى الحقيقة إذا اجتاز درجات المكاشفة تفتحت لعينيه كنوز الأرض وأبواب السماء، فهو يشاهد أغوارها كما نشاهد وجهها، وهو يرى عوالم السماء كما نشاهد نجومها، ويتجاوز في اكتشافاته هذه المناطق إلى مناطق لا تكشفها العين ولو بوسائل الاكتشاف، حيث يصل إلى حقائق الناس، فيبصر الضمائر، ويقرأ الخواطر، ويلمس الحقائق المستورة في حجب الأعضاء والجوارح، إنه يرى واقع الإنسان، ويشاهد حقيقته، وما أكثر ما خالفت المظاهر الحقائق، إنه يقرأ العداء في صفحات الولاء الكاذب، ويدرس الخسة من ملامح النبل، ويلمس الجهل في صورة العلم، إنه يشكل خطراً على المجتمعات لو أراد أن يفضح نواياها، ولكنه مأمون الجانب، لأن صاحب هذه النظرة لا يفشي سراً، ولا يظهر مضمراً، إنه لم يصل إلى هذه المرتبة إلا بصيانة السر، وكتمان الحقائق، ولا يسقط الحجاب إلا عمَّن يحجب الملامح عن غيره، وإلا فإن

انكشاف الواقع لا تتحمله النفوس العادية، ولم يتلاشى أصحاب موسى العشرة من تجلي الحقيقة إلا لعدم تحملهم الواقع المكشوف، إن الكشف مقدمة الشهود، فإن الواقع لا يكشف عن نفسه لأحد، إلا لكي يشاهده صاحبه، ولذلك قلنا: بأن الكشف مقدمة الشهود.

والمشاهدة قد تحصل من المعرفة التي هي أسمى من العلم، فإن العلم قد يحصل لرجل لا يعرف حقيقة معلومة، أما العارف فهو عالم وزيادة، وليست الزيادة إلا معرفته للمعلوم، وقد تكون المشاهدة بالمعاينة، ولا شك بأنها أسمى من مشاهدة المعرفة. لأن العرفان حالة قلبية مستورة، أما المشاهدة العينية فهي حالة ظاهرة محسوسة مكشوفة. أن العيان لا يحتجب عن الناظر، أما العرفان فربما يحتجب عن القلب، ولذلك صارت المشاهدة بالعين أسمى من المشاهدة بالمعرفة وإذا بلغ السالك مرتبة المشاهدة بالعين انجذب إلى الواقع بقوة لا إرادية، حيث يجذبه الواقع المشهود حتى يذيبه في المشاهدة، وهناك تنطوي مخصصاته ومشخصاته في الحقيقة المشهودة، حتى يصبح وكأنه هو هي، إذ يكون التجلي خالياً من رموز الصفات، وإشارات الأسماء، بل الذات ذات الحق تتجلى فتندك فيها النعوت والصفات والرموز والإشارات، والبحر إذا هدر ضاعت الدوائر والأمواج، وفي مثل هذه الحالة حالة الفناء في الذات يصبح الشاهد عنواناً من عناوين المشهود، إذ تندك مخصصاته في مخصصات المشهود، إن بقيت له في هذه الدرجة مخصصات مشهودة.

وسكت الأستاذ لكي يمسح العرق المتقاطر من جبينه، وهنا رفعت إليه طرفي مشعراً بأني أريد أن أسأله، فقال لي وهو يبتسم: سل ما تريد.

فقلت له: إن خلاصة محاضرتكم القيمة هي أن السالك إذا سار إلى الحق حتى وصل إليه، وذلك بظهور الشواهد والدلائل، ثم سار عليها متوجهاً إلى الذات تتبلور ملكاته وتنصهر حقيقته، وذلك بتطور قواه المعنوية وطاقته الروحية، حتى أنه يصبح قادراً على أن ينفذ إلى الضمائر، وأن يتجاوز حدود الطبيعة بقواه البشرية، وأنني في سيري الوجداني إلى الحق، وفي سيري الروحي في الحق، قد بلغت درجة مشرفة على الكمال في السير، ولا أنكر بأني قد تطورت في ملكاتي وقواي الروحية، وبأني أشعر بوجوده طاقة جبارة من القوى الخفية تتصرف في حواسي وأحاسيسي، وتبث فيها قوة لا تجدها الحواس البشرية، ولكني مع ذلك أحس بأني لا زلت ذلك الإنسان المحدود في وجوده، بينما يكون لازم محاضرتكم بأن درجة الفناء تتجاوز بالإنسان عن حدوده إلى حدود نائية عن وجوده فماذا تقصدون من ذلك؟.. وكيف لا أحس أنا بهذا التجاوز؟..

الفناء في الله

فأجابني الأستاذ بأن الفناء المقصود سوف نشرحه لكم في الدروس الآتية، وكلما أستطيع أن أقرّبه إليكم من معناه البعيد، هو أن صفات الإنسان إذا تلونت بصفات الحق اكتسبت خصائص صفات الحق فصار يبصر بعينه. ويسمع بأذنه، ويسير بقدمه، ويشير بيده، وهكذا تصبح حواسه وأحاسيسه ولها خواص صفات الحقيقة، وأن الطاقة الجبارة التي تحس بها وبنفوذها في وجودك ليست إلا صورة أخرى عن تلون صفاتك بصفات الحق، إنك في سيرك إلى الفناء نفذت إلى الحياة، إنك كنت ميتاً فأحيتك المعرفة، وربما أشارت إليك الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٢٢) إن كل ما فيك كان أشباحاً بلا أرواح فعلمك كان أعمى لا يبصر إلا ما يعرضه عليه الوهم والظن، بينما أصبح بصيراً بعدما ثبتنا فيه من الأنفاس الثلاثة.

١ ـ نفس الخوف من الحساب والعقاب.

٢ ـ نفس الرجاء بالأجر والثواب.

٣ ـ نفس حب الحقائق.

وبها اتجه علمك إليها حتى أدركها، وبها استمد من الحق

فيضه الخفي، فإن الإنسان إذا أحب الله، أحبه الله، كما تقول الآية الكريمة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٥٤).

إذا أحب الله أحداً نفث في قواه قواه، فراح يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويسير ويشير بقواه، وكما نفثنا الحياة في علمك نفثناه في قصدك وعملك، فقد كانا يسيران على غير هدى، ويتوجهان إلى غير مقصد، ففي كل آن لك قصد، وفي كل يوم لك عمل، وقصدك الجديد لا يوجد إلا بفناء قصدك القديم، لأن ظرف القصد لا يتسع إلا لقصد واحد، وعمل يومك لا يقوم إلا بانهيار عمل أمسك، وهكذا، فلما هبت عليه أنفاس الحياة لملم القصد نفسه حتى وحَّد قواه، بتوحيد اتجاهه، وجمع العمل أشتاته بجمع أسبابه، وذلك حينما ألمسناهما حقيقة تلك الاتجاهات الفاشلة، والمقاصد الباطلة، فالتوجه إلى الزائل موت وزوال، والسعي وراء الفاني فناء ودثور، ولذلك لما أدركتَ الحقيقة احتفظت ببقية طاقتك لتصرفها في الجهة الصحيحة، ورحتَ تغير قصدك، وتغير عملك، وحتى أدَّى بك الأمر إلى تغيير وجودك، إذ كان يتكىء على الفقر والضعف، فأصبح يستند على الغنى والقوة، فقد شهدت أن قيام كل شيء بالحق بعدما وعيت الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (سورة الأحقاف، الآية: ٣) فكل ما فيهما قائم بالحق، فللحق وحده قيمومية الأكوان والعوالم، فالوجود المنبسط عليهما ليس إلا ظلاً منه بسطه عليهما، ولولاه لما استقام لهما وجود، ولما قام فيهما موجود.

إن قيام كل شيء بالحياة، أما قيام الحياة فبنفسها، فإن إنارة النور وتعطر العطر ذاتي لهما، والحياة وجود طارىء على

المواضيع، ولذلك فهي ستفارقها متى قُدِّر لها المفارقة، نعم من انتسب إلى نفس الحياة يعيش أبداً، ولا ينتسب إليها إلا منْ فنى في الحق فعاش به، لأن الحق هو الذي يفيض الحياة على العوالم والأكوان، إذ الحياة أثر من آثاره وظل من ظلاله، فالذي يفنى فيه يطويه ظلال الحياة، ويخلد كأثر من آثارها في الوجود، ولمَّا وصلتم في سيركم الوجداني، إلى درجة الإشراف على الحقيقة أصبحتم ولكم قابلية الخلود في الحياة، وبعبارة أصح أصبحتم ولكم قابلية الحياة في الخلود، . وإن هذه النتيجة التي وصلتم إليها غنيمة لا تقدرها الأثمان، ولا تحدها المقاييس، . . وختم الأستاذ، محاضرته بدعوتنا إلى المثابرة على جهادنا الوجداني.

الرجوع إلى الوطن الدنيوي

خرجت من الصف بل من المدرسة، وقصدت داري التي فارقتها منذ مدة طويلة فإذا بأهلي وإخواني يتباشرون بقدومي فيحتفون بي وكأنهم يعثرون على ضائع يئسوا من العثور عليه، آه ما أشد ابتهاجهم وسرورهم برجوعي، انهم كادوا يحرقوني بعواطفهم لو كانت العواطف تحرق إنساناً، وأخيراً تمكنت من التخلص منهم، والدخول إلى غرفتي الخاصة في البيت، وطلبت من أهلي أن لا يشوّش عليَّ أحد منهم راحتي، فإني متعب جداً أحتاج إلى راحة واستجمام طويل، وهكذا أوصدت باب الغرفة على نفسي لأفكر في وضع برنامج يضمن استمرار سيري إلى الحق في مثل هذه المجتمعات المشوشة، إنني الآن لست ذلك الرجل الاجتماعي الذي كان يعيش كعضو بارز في المجالس والأندية، ولكنني لا أتمكن من سلب مقامي الاجتماعي عن نفسي في الناس، فهل أتمكن أن أعيش عند الحق مع الناس؟ بمعنى أنه هل يمكنني أن أهيىء جواً لا يحجب الناس الحق عني؟.. إنني في حيرة وارتباك،.. رباه أعنِّي على حل هذه المعضلة،.. وإذا بالجواب يغمر فكري فيرشدني إلى ما أريد تحقيقه،.. إن جاذبية الجو الذي تعيش فيه نفسي أقوى من جاذبية الأرض والسماء، فلماذا أخشى الانجذاب منه إلى الأرض

وأبنائها؟ وقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة النساء، الآية: ١٠٨).

فالناس لا يعلمون عن سيرهم شيئاً، وإنما تعارفوا مع جانبهم البشري، فهم مثلهم يعيشون عيشهم ويموتون موتهم، بينما هم قد تجاوزوا الحدود البشرية العامة إلى عالم الإنسانية، إلى عالم لا يدركه الناس، ولذلك يمكنني أن أجمع بين العالمين في محيط واحد، فأعيش عند الحق مع الناس.

وهكذا وضعت لنفسي برنامجاً يجمع بين الحق والخلق،.. ولكن الأمر الذي شوَّش عليَّ برنامجي هو درجتي في العالم الإلٰهي،.. فإن الذي يصل إلى هذه الدرجة لا بد وأن يكون أحد رجلين: رجل يعتزل الناس فلا يعاشرهم لئلا تتأثر ملكاته وأخلاقه بالمحيط الملوث، فهو يقضي عمره في السياحات الوجدانية مبتعداً عن البشر وأوضاعهم.

ورجل يعيش مع الناس فيشترك في أعمالهم وآمالهم، يشترك معهم ليخفى حقيقة منزلته من الحقيقة،.. لأن الناس يحسبونه واحداً منهم بينما هو أمة برأسه، يمتاز عن الناس بقوى جبارة من الوجدان ليس في الناس شيء منها أبداً.

فهل تكون درجتي في العالم الإلٰهي درجة الرجل الأول لابتعد عن الناس وعوالمهم؟ أو تكون درجة الرجل الثاني فأشارك الناس أحلامهم وآلامهم وأنا في مقامي الإلٰهي؟

وهنا هزتني ثورة وجدانية توصلت بها إلى أني أسير في هذه الطريقة، ولم أوجه نفسي إلى الحق لأنجو بنفسي فقط بل إنما سرت وتوجهت لتوجيه الناس وسوقهم إلى الحقيقة،.. ما هذه الأنانية التي

تحاول أن تقيدني بقيودها، فهل تراني ألتذّ بهذه الجنة وحدي؟ وهل من الإنسانية أن أترك الناس يصارعون آلامهم وانفرد وحدي؟.. إنني لا أترك الناس ولو تركني مقامي في دنيا المعرفة،.. وهكذا قررت أن أعيش مع الناس،.. وهنا رأيت القرآن الكريم يقر رأيي بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٢٢) فأنا مأمور بالإنذار بعدما وصلت إلى هذه المنزلة من التفقه في الدين،.. وهل الدين إلا ناموس الإنسانية، تلك الإنسانية التي أجهدت نفسي لتركيزها في نفسي،.. هكذا بسطت نفسي في الناس بعد أن انقبضت عنهم بسلوكي ومقاصدي...

وأول عمل قمت به هو فتحي باب الغرفة ودعوة الأهل والأخوان، إلى لقائي فيها،.. وإنما دعوتهم إلى الغرفة ولم أخرج منها إليهم،.. لكي أبيح هذا الحرم الذي اعتكفت فيه فيسقط هذا الستار الحديدي الذي ضربته على الناس فيها،.. فأول خطوة للانبساط هو رفع التكاليف بيني وبين الناس ولقد كان في أهلي من يعارضني على سلوكي الجديد، لأنه يخالف عادات الأسرة وتقاليد المحيط، فلما رآني أفتح الباب وأدعوهم إلى نفسي. كان أول من أجاب دعوتي، فدخل عليَّ، وهو يقول: الحمد لله الذي نبه وعيك وأيقظ شعورك وأرجعك إلى نفسك،.. إنك لا تشعر بنفسك وبما ترتكبه من المخالفات المعارضة لأخلاقنا وطقوسنا الخاصة والعامة..، ما هذا الاعتزال الشاذ؟ وما هذه الرهبانية المنهي عنها في الإسلام؟. وما هذه الأعمال التي تقوم بها بالرغم من مخالفتها لأحكام العرف والشرع؟..

قلت له: إن في كلامك من الإجحاف بل من التُهم المؤلمة

لعواطفي وأحاسيسي ما لا يمكنني الصبر عليها قل لي: متى خالفت الشريعة؟.. وما أبحت من محرماتها؟. أو تركت من واجباتها؟. أقطعت الصلاة اليومية؟. أأفطرت شهر رمضان؟. أمنعت الزكاة؟ أهربت من الجهاد في سبيل الله؟. وأخيراً أتجاوزت حدود الشرع في سيري وآرائي؟. إن رميك إياي بمخالفة الشريعة تهمة لا أحتملها منك،.. وأما عزلتي عن الناس وانصرافي إلى نفسي،.. فإن ذلك نتيجة الوعي واليقظة، فقد قضيت عمري وأنا أخدم كل أحد إلا نفسي،.. ولما لمست هذه الظاهرة لملمت البقية الباقية من طاقتي لأصرفها في تربية نفسي، ولما كانت تربية نفسي تتوقف على مراقبتها، ومراقبتها لا تتأتى إلا بالانصراف عن غيرها تركت الناس لأتوجه إليها بكل طاقتي، وها أنا ذا بعد ما أعتقدت بأني أديت حق نفسي رجعت إليكم، لأعيش بأحاسيسكم ومشاعركم، وأني أستمحيك العفو على الشذوذ الذي كنت تراه مني في الأخلاق، فقد كنت آنذاك أعيش ونفسي فقط لا أعني بغيرها، بل ولا أرى شيئاً غيرها في عالمي الخاص.

واني تقديساً لحقوق المودة بيني وبينك أرى من الواجب عليَّ أن أوجه نظرك أيضاً إلى نفسك، فإنك وقد تجاوزت الخمسين من عمرك، وأشرفت على عهد الانحلال والضعف، لم تعبأ بنفسك، ولم تفكر بإنقاذها، فنهارك ينقضي في الجهاد لغيرك، وليلك ينطوي في التفكير بغيرك، فمتى تتوجه إلى نفسك لتعمل لها ولتفكر فيها،.. إن نفسك أحق بالعطف من غيرها، لأنها لا تجد غيرك ملاذاً لها في الحياة، بينما يجد غيرها غيرك، فإذا لم تسعفه انصرف إلى سواك، أما نفسك فإنها لا تجد لها ملجأ غيرك في الحياة، والذي ليس له ملجأ سواك أحق بالعطف ممَّنْ له ملجأ سواك، إني أفتح لك هذه الكوة

لتشرف منها على نفسك فتستطلع شؤونها وحاجياتها في الحياة إنها مضطهدة غاية الاضطهاد، مضطهدة منك ومن انصرافك عنها إلى غيرها، وأردت أن أسترسل في حديثي وإذا بحالتي تتغير، وبعالمي تتحول طبيعته،.. وذلك هو الذي كنت أخشاه، فإني لا أحب أن أطلع الناس على درجتي في السلوك، لأن اطلاعهم يسبب انقباضهم عني واحتفاظهم بمشاكلهم عن مجلسي، وذلك ما لا أريده، فإني أحب أن أحل عقدهم النفسية، ومشاكلهم الروحية، ولا ينبسط المرء إلا مع قرينه في المجتمع.

فإذا كانت درجة صاحبه أرفع من درجته في المعرفة، وطبقته أسمى من طبقته في الاجتماع، راح يجامله في معاملاته وسلوكه، ويطوي نفسه على عقدها ومعضلاتها ولذلك ضبطت عواطفي، وخنقت منطقي، وأرجعت حالي الظاهرية إلى طبيعتها الأولية، بينما كان باطني وحالاته يعيش في العالم الذي وصلت إليه في سيري الوجداني،.. وسكت قليلاً لأرى تأثير كلامي على رفيقي...

فإذا به تأخذه البهتة وكأنه في سكرة وجدانية، وهناك أدركت معنى تلك الجملة الحكيمة الخالدة: «بأن الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب» فها هو قلب رفيقي يتأثر فتتأثر أعضاءه بتأثر قلبه، فيتغير لون وجهه، وترتعش يداه، وتضطرب مشاعره، وتذكرت حالتي عندما هزتني كلمة ألقاها عليَّ عابر سبيل وهو منطلق إلى سبيله، قد بقيت الكلمة تضطرب في مشاعري وتتعمق في أحاسيسي حتى احتلّت قلبي فخفق واضطرب، واضطربت الحواس باضطرابه، ومنه يبتدىء تاريخ سلوكي إلى الحقيقة،.. (كلنا في الهوى سوى).

وكل نفس قابلة للتهذيب، فالفطرة سالمة، والخالق لطيف

بخلقه، وإنما الذنب ذنب المخلوقين أنفسهم، فقد صُمّوا وعموا عن الفطرة وراحوا يصرفون الطاقة المستودعة عندهم من الله فيما يضرهم ولا ينفعهم، فليس الذنب ذنب الطاقة، وإنما هو ذنب المتصرف الغبي، وبذلك تنحل مشكلة الجبر، فالإنسان هو الذي يوجه هذه القوة الإلٰهية إلى المعاصي وبالتوجيه يستحق العقاب والعتاب، أما القوة نفسها فإنها آلة صماء يتصرف بها هذا المدير الأهوج الذي نسميه بالإنسان،.. وأخذت أمواج الفكر وتياراته تعبث بمشاعري وأخيلتي، حتى خلصني منها محدثي العزيز بتحية الوداع...

وبعدما انفردت بنفسي، أخذت تعرض عليَّ دروسها السلوكية درساً درساً حتى بلغت الدرس الأخير،.. وإذا بي اضطرب وانقلب خوفاً على نفسي من أن تفقد منزلتها،.. أو أن تقف عليها فلا تنطلق إلى المنازل التي هي أسمى منها، إن حديث الفراق يؤلمني، فنفس كلمة الفراق تؤثر في عواطفي تأثير كلمة الإعدام في المتهم، وحتى الأحاديث التي تفزعني من الحقيقة، وتنعى على الغافلين غفلتهم، أصبحت ممجوجة في ذوقي،.. إنني لا أحب أن أرى ولو بالخيال عالم الخوف والغفلة، إنني مغمور بجنة ألطافه ونعمه، وهل تراه يعذب بالجحيم من لا يبخل بالجنة حتى على أعدائه ومخالفيه، إنني معه أبداً ونفس هذه المعية هي الجنة الموعودة، ولكنني أحب أن أزداد اتصالاً به، أحب أن أندك فيه، أحب أن أفنى به لأبقى به.

وحينما وصلت في تفكيري إلى هذه المنطقة الحساسة استولت عليَّ غشوة أنستني نفسي، وأبعدتني عن شخصيتي وحقيقتي، ولم أفق إلا على مقرىء للقرآن الكريم وهو يردد هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّ

إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ (سورة سبأ، الآية: ٢٣)، ماذا تريد هذه الآية الكريمة؟.. وماذا تقصد من هذا السؤال؟ وما الجواب عليه؟ ومنْ هم هؤلاء؟ إنها أسئلة أرجعتني إلى نفسي فرحت أحل مشاكلها واحدة واحدة، إن المفسر العارف، يقول بأن الضمير في قلوبهم يرجع إلى الذين شاهدوا الحقيقة فبهتوا وسكروا بخمرة الشهود، فإذا زال صفاء الشهود عن قلوبهم ورجعت إليهم حالاتهم الطبيعة سألهم أصحابهم عمَّا رأوا وعمَّا سمعوا، فيجيبونهم بأنهم لم يكن إحساسهم بواسطة الباصرة والسامعة ولا بوسيلة أي حاسة من حواسهم لم يحسوا إلا بالحق الذي غمر وجودهم بوجوده، حتى أصبحوا لا يحسون إلا به، وهي نتيجة السكر الإلٰهي حسب ما يصطلح عليه علماء المعرفة.

الصحو

فالصحو هو الرجوع إلى الطبيعة وعوالمها المحسوسة، ولكن الصاحي الإلٰهي لا يرجع إلى طبيعته الأولى، بل يرجع صحوه إلى عالمه الجديد، ولذلك قالوا: بأن مقام الصحو فوق مقام السكر، لأن السكر يسبب غيبة المنتشي عن حقيقته فيما لا يعي حقيقته، أما الصحو فهو الاستقرار على مرفأ الحقيقة، وتهدئة الاضطرابات الوجدانية الناشئة عن السكر، ولذلك تمكن الصاحي من بسط عالم الحقيقة على عالم الطبيعة، حيث يعيش مع الحق في الناس، بينما النشوان راح يعتزل المجتمعات ويفارق الناس لكي لا يحتجب عن عالمه اللذيذ بهذه العوالم المؤلمة،.. وبالطبع يكون المتمكن من حياته وشؤونها أقدر من العاجز عن تدبر حياته، فالأول يعيش في هدوء واطمئنان، بينما يعيش الثاني في اضطراب وانزعاج.

إن الصحو كما يحدده العارف بالله ينتمي إلى منازل الحياة، وطبعاً يريد بالحياة الإلٰهية السرمدية، حيث يدخل السالك أودية الجمع، ويريد بالجمع جمع الصفات في أحدية الذات، حينما يلوح له سر الوجود، ويتجلى عليه معنى البقاء.

واعترتني حالة مبهمة لم أعرف حقيقتها، إنها حالة الحياة،.. لا. لا إنها حالة الممات، إنني أحيا،.. إنني أموت،.. ما هذه

الحالة المضطربة التي اجتازها أو تجتازني، إنني فيما أنا عليه رجل بلغ كل أمانيه، فقد كانت أحلامي تنحصر في إدراك الحقيقة وقد أدركتها والحمد لله، إنني أقطع أجواء لا يدركها العقل، إن العقل إنما نحتاجه للإدراك،.. فإذا أدركناه تعطل العقل،.. إنني أدرك وأدرك بأنني أدرك، إنني أعرف الحقيقة بل أحس بها في وجودي، وأي شيء ينقضي بعدها حتى احتاج إلى هذا الجهاز المتعب المسمى بالعقل.

إن المعلوم إذا صحا انمحى الموهوم، كما يعبر عنه سيد الموحدين أمير المؤمنين علي عليه السلام، «إن العقل والعلم ومبادئهما كلها أُمور موهومة تنمحي إذا أحس الإنسان بالحقيقة».

وإنني أحس بأني متصل بالحق اتصال الوصف بالموصوف والمعلول بالعلة، إن قصدي قصده، فأنا القاصد، وأنا المقصود، وإرادتي إرادته، فأنا المريد وأنا المُراد، ووجودي وجوده، وهل للصفة وجود إلا بالموصوف، إني لا أفهم ما هو معنى وجودي وجوده، وهل هذه النغمة هي التي ردَّدها «الحلاَّج» قبل ألف سنة فأوردته موارد الهلاك.

أنا لا أريد أن أهلك بجملة خرافية ينطق بها العارف الواصل ساعة سكره بجمال المحبوب، لأني وإن كنت أحس بأن ذاتي مندكة فيه لكني أدري بأني لست إلا أنا، وبأنه ليس إلا هو، فلا أنا هو ولا هو أنا، إنني أوصل من «الحلاَّج» حيث أخذته السكرة فراح يهذي ويهذر بأقواله، بينما أنا قادر على ضبط مشاعري من الزلل والهفوات، إنني وإن كنت من مصاديق الآية الكريمة ﴿... دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ (سورة النجم، الآيتان: ٨ ـ ٩)، من

العلي الأعلى لكنني أعلم بأني قريب منه جداً والقرب من الشيء لا يكون نفس ذلك الشيء أبداً، وبذلك صرت أوصل من الحلاج، فإنه فقد إدراكه بالوصل، وأنا محافظ على مداركي بالرغم من اتصالي الشديد به، فأنا أفهمه بفهم نفسي، وهو جهله بجهل نفسه، إنني وإن انفصلت عن الخلق وعوالمهم باتصالي بالحق وعالمه المقدس انفصلت عن عوالمهم الدنيوية والأخروية، فلا ألتذ بشهواتهم في الدنيا، ولا أطمع بدرجاتهم في الآخرة، إن لذائذ عالمي فوق لذائذ العالمين، فليحيا الحق، وليسقط غيره.

آه لو شاركني بعض الأعزة من إخواني هذه اللذة لأدركوا بأن اللذة في ترك اللذة، ترك لذة الدنيا وما فيها، وترك لذائذ الآخرة وما احتوته جنتها التي وعد الله بها عباده الصالحين، إن جنة السالك هو الحق، وقد دخلتها والحمد لله، فلا أطلب غيرها، إنني أنفصل حتى عن درجة اتصالي به، فإنني أدرك بأن انفصالي عن اتصالي ليس إلا للاتصال، إنني كنت متصلاً به مذ كنت منفصلاً عنه، إنه لو فارقني لحظة خاطفة لاندكّ وجودي، وتلاشت عوالمي إنني معه وهو معي، إنه أقرب إليَّ من حبل الوريد، وهنا أصابتني قشعريرة هزت كياني فرحت انتفض وكأني عصفور بللّه القطر فراح ينفض البلل عن ريشه، ولم أهدأ منها إلا بعد أن استلقيت على فراشي، فاحتضنتني الأحلام بأناملها السحرية، وحلقت بي إلى عوالم لم أحلم بها في عالم اليقظة.

أيقظني الفجر بأناشيد الحياة الساحرة، فقمت أشارك الطبيعة في استقباله، وليست صلاة الفجر إلا أنشودة راحته نستقبل بها رجوع الحياة في طلعة الفجر.

وبعدما تهيأت للخروج من البيت، قصدت المدرسة لأجلس في مكاني من الصف، وأقبل الأستاذ وهو يحيي التلاميذ ويخصني بالسؤال عن راحتي، وأنه هل استراحت أعصابي من وعثاء السفر؟ وقبل أن أجيبه على سؤاله وأشكره على تفقده قال: إننا لم نطو هذه المراحل، ولم نقتحم هذه المخاطر إلا لنعرف أنفسنا والمعرفة أضبط من العلم، لأن العلم إنما يدرك الكليات، ثم يطبقها على المصاديق المتصورة أو المنظورة، فتشخيص العلم قد يطول أو يقصر عن المعلوم، أما تشخيص المعرفة فإنه يلمسك الشيء بحدوده ومشخصاته، بحيث تضبطه من كل نواحيه وجهاته، ولذلك صارت المعرفة أضبط من العلم تشخيصاً وعرضاً، ونحن قد تركنا العلم ومداركه لقصوره عن ارواء وجداننا الظامىء، وقصدنا المعرفة لغزارة تابعها، وثروة مناجمها، ودقة تشخيصها، ولقد حصلت لكم تلك المعرفة والحمد لله فعرفتم أنفسكم وما هي عليها من الفقر والضعف، إنها لا تملك بنفسها لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإنما كل ما عندها رهائن أودعها الغني القوي بالذات عنده، فيصرفها في تكميل نفسه، وتكميل نفسه لا يحصل إلا بعد لمس نقصها وجهلها، وبمعرفتكم حقيقة النفس لمستم النقص فسرتم في طرق الكمال حتى أدركتم المبدأ بصفاته وبالطبع لا يمكننا تشخيص الصفات إلا بمنظار الشرع المقدس، فإن صفات الله توقيفية كما حدثتنا بذلك مصادر الوحي، ولا شك بأن منظار الشرع أدق، وعينه أبصر، فهو لا يشتبه في التشخيص، ولا تفوته خصوصية منه ولذلك صارت أسماء الله توقيفية.

والسالك إذا بلغ في سيره منطقة الشهود، وراح يستعرض صفات الخالق في مخلوقاته، وينظر أسماءه في مسمياته اضطربت

المرائي عليه، فلذلك يلزمه أن يضع على وعيه منظاراً لا يشتبه في التشخيص ولا يتشابه عليه التشخيص، وأي منظار أضبط من منظار منْ دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى من العلي الأعلى، ولذلك قُرّر لك أن تشخص الأوصاف بمنظاره لئلا تفوتك خصوصيته أو تلتبس عليك صوره، ولا شك بأنك لتشاهد عوالم لا تمت إلى عوالم الخلق بصلة أبداً، فلا يصح لك تشبيهها بما تسمعه أو تنظره أو تلمسه، إنها شيء آخر لا تحاكيها هذه الأشياء الخارجية فتتحير في فهمها بل تيأس من إدراك حقيقتها لأنها صفات الله، ومعرفة الصفة فرع معرفة الموصوف وبما أن الحق لا تُدرك ذاته لذلك لا تدرك صفاته.

الفناء والبقاء

أما لماذا لا تُدرك الذات فذلك ما سوف نشرحه لكم قريباً إن شاء الله تعالى، نعم ربما أمكننا أن نعي الذات وذلك حينما تفنى صفاتنا في صفاته، فنرى بعينه ونسمع بسمعه ونحيا بحياته، وصفاته ـ جلَّت أسماؤه ـ كما قرره العارف بالله عين ذاته، فإذا ذابت الصفات في صفاته، أمكننا أن نشاهد الحق بعين الحق، هكذا يقرره علماء المعرفة، ولكنني أعتقد بأن ذلك من عربدات السكر الذي يعتري السالك حينما يشرف على عين الجمع، وإلا فإن الذات التي لم يدركها أولو العزم من الرسل، وذوو الكرامة من الأولياء هيهات أن يدركها سالك تتقاذفه الطرق والمسالك، نعم إننا نرى الحق عياناً، وعميت عين لا تراه، نراه بصفاته المتجلية في كل شيء، تلك الصفات التي ترمز إلى أحدية الذات.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

فإن أرادوا من مشاهدة الذات مشاهدة صفاته، فذلك أمر ممكن لكل منْ سار فوصل، حيث يتلبس بصفاته فيشاهد الحق بعين الحق، بمعنى أنه يشاهد صفاته بصفاته، وإن أرادوا بها مشاهدة الذات بما هي هي فذلك أمر مستحيل الوقوع، فالقطرة لا تحد البحر وإن جرفتها أمواجه، والذرة لا تحيط بالطول ولو التصقت به، نعم إننا

نشاهد ذات الحق بمشاهدة صفاته،.. لأن صفاته عين ذاته، وأما شهود نفس الذات المجردة عن الصفات فذلك ما لا يؤمن به وجداني، ولا يذعن له إيماني، إننا قد نشاهد الحق بذاته وصفاته، وذلك حينما تفنى فيه حدودنا، حيث يذوب كل شيء إلا وجهه، لأن فناء الحدود لا يمكن إلا بفناء ما سواه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة الرَّحمٰن، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧).

ومعنى فناء الحدود هو فناء القوى المادية فيه، حيث لا يستجيب لداع مادي ولا يدعو جانباً مادياً، فغرائزه وحواسه لا تبعث ولا تنبعث للجهات المادية أبداً، وإذا ذابت الجهات المادية فيه، أصبح الجهاز ـ جهاز الحياة ـ يدار بواسطة الروح الخالدة التي هي وديعة الله في الإنسان، فتدور حواسه وأحاسيسه حول مركز الروح فقط، فمنها الدعوات وإليها الاستجابات، **وذلك هو معنى الفناء في الله**.

وهو معنى قول النبي ﷺ: «**المؤمن ينظر بنور الله**»[1] لأن إبصار العين بالنور، ونور الله في الإنسان هي أشعة روحه التي تنبعث إشعاعاتها من كوة التقوى، حيث يتجلى عليها الوجود الفياض من طوره، فيجذبها إليه بقوة تخور القوى الجبارة، وإذا فنى السالك في الله، أصبح بقاؤه بالله أيضاً، لأن القوى المادية التي كانت تبعث فيها الحياة قد تلاشت وهي لاتزال باقية في الحياة، ولا يمكن بقاؤها إلا بوسيلة قوة حافظة لحياتها، فما هي تلك القوة المبقية الجديدة بعد تلاشي القوة القديمة فيها، إنها هي القوة الإلٰهية المدبرة للأكوان والأنفس، تلك القوة التي ليس للفناء سبيل إليها، فبقاؤه في مثل هذه

---

(١) في الحديث الشريف: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». ميزان الحكمة: مادة «الفراسة».

الحالة بالله، ولا يتحقق هذا البقاء إلا في حضيرة الجمع على حسب تعبير علم المعرفة، حيث يبقى بوجهه الذي هو ذاته القدسية، وبجلاله الذي يخشع له كل شيء، وبإكرامه الذي هو مظهر جماله والذي هو مصدر الحياة لكل شيء.

وبهذا التعبير والتفسير للبقاء بالله لا يكون هناك إشكال على البقاء في الله بعد فناء القوى الجسمية في الإنسان إذ يكون معناه أن الذي يمد البقاء في الإنسان هو الله، وفي مثل هذه الحالة لا يتمكن من السير على خلاف منهج التقوى، لأن الباعث للحياة فيه هي التقوى فكل حاسة وغريزة فيه إنما تدور بالتقوى، فالإنسان السالك في مثل هذه المرتبة يكون مظهراً لله في الجمال والجلال، فقد خلع عن نفسه الطبيعة الجسمية وتلبس بالقوة الإلٰهية، فكان وجوده في هذا الخلع واللبس إلٰهياً مخفياً، **وهو معنى البقاء بالله**.

ولا مانع عقلي أو شرعي في هذا الخلع واللبس أو البقاء والفناء أبداً، أما ما عربد به بعض أرباب السلوك فهو من الهذيان لا يهضمه العقل ولا يقبله الشرع ولا يصل إليه الإنسان مهما ارتفعت أرقام درجاته في القرب إلى الحق، ولتوضيح غامض هذا الموضوع لا بأس بأن نعرضه في إطار يأنس به الذوق العام ويستسيغه الفهم العام، وتراه العين السالمة من الأدران.

إن الحواس والأحاسيس حياتها بالدعوات والاستجابات الخارجية، فالعين لولا دعوة المنظرالخارجي لما نظرت، والسمع ولولا دعوة الصوت الخارجي لما استمع، والعقل لولا الصور الخارجية لما دار جهازه وهكذا، وذلك هو معنى حياة الحواس والأحاسيس، فإذا فرضنا أن الجهاز الخارجي تعطل بالتقوى، فإما أن تبقى الحياة ثابتة

فيها أو لا، ولا بحث لنا في الموت، وإنما نبحث عن بقاء الحياة فيها، وكيف يمكن أن تبقى الحياة ثابتة فيها وهي متعطلة، لأن تعطلها معناه الموت، وحياتها معناه الحركة، ففكرة التعطل باطلة، لأن صاحبها حي يرزق، وعند ذلك نسأل أنفسنا عن مصدر هذه الدعوات والاستجابات بعدما تعطل الجهاز الجسمي، ووقف المحرك المادي، وهنا نجيبه بأن المحرك في هذه الحالة، والداعي والمجيب هو الروح الخالدة أو اللطيفة الإلٰهية المودوعة في الإنسان أو النفس المجردة، بأيها شئت عبَّر، وإذا كان الداعي والمجيب فيها هو العالم الإلٰهي، فإن حياتها لا بد وأن تكون بذلك العالم، ولذلك تبقى خالدة، فهو قد مات في العالم، أو بعبارة أقرب للواقع مات هذا العالم فيه، فلا تأثير ولا تأثر لهذا العالم في هذا الوجود أبداً، فهو فان بالنظر إلى الحياة المادية، وهو باق بالنظر إلى الحياة الروحية، فهو فان في الله، وهو باق بالله، وبهذا التفسير يندفع ما أُخذ على موضوع البقاء والفناء والخلع واللبس من النقود والمحاذير.

ولما ظهرت غوامض هذا الموضوع الشائك نظرنا إلى الأستاذ وإذا به ذاهل عنَّا وعن نفسه، فكأنه في نشوة من المعاني، وفي ذهول من جمال الحقائق المدهشة، ما باله ينظر إلى سقف الغرفة فهل هناك شيء يبحث عنه الأستاذ، وبعد فترة طويلة رجع الأستاذ إلى نفسه، وقال: إن للفناء والبقاء موازين ومقاييس توازن فيها حالة السالك، فإذا انطبقت عليها كان يعيش في منطقة الفناء والبقاء، وإذا لم تنطبق عليه فهو بعيد عنها لم يصل بعدُ إليها، وعليه أن لا يطمئن على نظره ونظرياته.

يقول علم المعرفة بأن ذلك الميزان وهو الذي يسميه (بالتحقيق)

هو أن يخلص السالك صفات الحق التي تلبس بها عن ملابسات شخصه وشوائب رسمه، وذلك بأن يمتحن صفاته التي ارتداها بعنوان أنها صفات الحق فيجعلها تسير بطبيعتها إلى الغرض المنشود من دون أن يوجهها هو بنفسه، فإن رآها تتوجه إلى ما يريد الحق، وذلك بأن يراجع مقاصد الحق بعدما يتوجه إليه بصفته التي هي صفة الحق، فإن انطبقت عليه فهو يعيش حقيقة في منطقة الفناء والبقاء، وإن لم تنطبق عليه فلا، وكذلك ليوجه صفاته وملكاته إلى ما ينهى عنه الحق، فإن إطاعته فهي بعد فجَّة لم تنضج، وإن خالفته فقد اتصلت بالحق حقيقة وخلعت نفسها عن شخصيته البشرية، لتعيش بالحق لا بحياته الشخصية لأنها قد فارقت حياتها الشخصية واتصلت بالحق وبقائه، هذا هو المقياس للفناء والبقاء في علم المعرفة...

ولا شك بأن الوصول إلى هذه الدرجة من أصعب الأمور، فالإنسان لا يتمكن أن يتخلص من صفاته البشرية إلا بالموت، أو بعالم يساوي الموت، وإلا فما دام الإنسان يعيش في هذه الأجواء، ويتغذى بهذه العناصر فإن التخلص من صفاته أمر أقرب إلى المستحيل، ولكن الشارع المقدس لا يدعو الإنسان إلى المستحيل، فهو يطلب لنا الوصول إلى هذه المنزلة بقوله ﷺ: «**موتوا قبل أن تموتوا**»[1] ولا شك بأن مراده من الموت في الصفات بالمعنى الذي قررناه، ومن توجيه الشارع المقدس نعرف إمكان الوصول إلى هذه الدرجة، ولكنها كما قررته لكم تحتاج إلى رياضة شاقة يتمكن بها الإنسان من خلع نفسه عن صفاته ثم تلبسه بعد الخلع التام بصفات الحق، وإذا بلغ الإنسان إلى هذه المرتبة تنكشف له الأسرار، وتطيعه

---

(١) الروح بين العلم والعقيدة: للسيد حسين محمد، ص٩١.

العناصر، وتجري بأمره الأقدار، حيث يعيش بالله، بالقوة المدبرة، بالإرادة الخالقة، بالذي إذا قال للشيء كن فيكون.

ومن يتلبس بهذه القوة لا يصعب عليه تحقيق شيء أبداً، ولو كان ذلك الشيء مستحيلاً في نظر العلم، لأن الذي يعيش في عالم الرب تحوطه قوة الرب التي تسيطر على كل شيء، وبالطبع يكون وجود مثل هذه الشخصية المدهشة معجزة خارقة في عالم الإنسانية، فتهب عليه من جهاته الأربع، وتصبح مورداً للأسئلة التي ربما رأى ذلك الإنسان محذوراً في الجواب عنها...

لهذا الجهات ولغيرها شمل الله هذه الشخصية بلطفه فأخفاها بين الناس، فهم لا يرون في مثل هذا الإنسان إلا شخصاً عادياً فيهم، وفرداً ساذجاً من مجتمعهم.

فوجوده في الناس كوجود القوة الإلٰهية في الأسباب حينما يعزو الناس التأثير إلى الأسباب بينما المؤثر هو الله، فهم يطلبون المقاصد من طرقها الطبيعية بينما الموصل الحقيقي هو الحق، وكذلك هذا الإنسان لا يرون فيه إلا رجلاً من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم بينما هو يتجاوز عالم الملائكة في منزلته من الحق، ويحسبونه فرداً من مجتمعهم لا تتعدى قواه قوى سائر أفراده، بينما قد حاز على إمكانيات لا يحدها المجتمع ولو انضم إلى أمثاله ألف مرة، وترى هذا الإنسان الإلٰهي إذا أراد توجيه فرد أو بعث مجتمع يتوسل بالطرق العادية، ويتمسك بالأدلة العرفية لكي لا يفاجىء الناس بما لا تتحمله طاقاتهم، بينما تراه في نفسه لا يرى في هذه الطرق والأدلة إلا فقاعات لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكنه يكلم الناس على موازين عقولهم.

وسكت الأستاذ قليلاً ثم قال: إننا سنختم محاضرتنا بإبداء حقيقة ظاهرة ربما غفلتم عنها، وهي أن مثل هذا السالك الإلٰهي يكون قد وصل في سيره الوجداني إلى درجة سامية من الوجود. لأنه قد اتصل بالوجود المطلق، ذلك الوجود الذي ينبعث منه الوجود، فالوجود أثر من آثاره، فهل يتساوى الأثر والمؤثر في الحقيقة كما يتساوى الضوء والنور مع أنهما علة ومعلول؟ أو تختلف حقيقة الوجودين كما تختلف حقيقة الشمس عن حقيقة أشعتها؟

إن الوسائل الإنسانية على اختلاف منازلها ومراتبها لم تحل هذه المشكلة، ولا يهمنا حلها بعدما عرفنا بأن هذا الوجود أثر من ذلك الوجود، وهب أنهما يتحدان اسماً وحقيقة، أو يختلفان ماهية، وإن اتحدا عنواناً، .. إن ذلك لا يهمنا بعدما عرفنا بأن الأثر المتصل بالمؤثر أقوى جداً من المنفصل عنه، فالنور المقترب من الشمس أقوى من الشعاع المبتعد عنها، والسالك المتصل بالعالم الإلٰهي أقوى وجوداً من غير المتصل به، ولذلك راح يرى ويسمع ويحس بما لا يدركه غيره، إن علمه من علم الحق فهو يشهد الحقائق بلا وسائل الشهود، أنه يشهدها بالعلم اللدني الذي استودعه لديه العليم الحكيم:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف، الآية: ٦٥)، كما حققنا ذلك سابقاً، فعلمه شهود بلا حجاب وانكشاف عيني، لا شهود علمي أو كشف بوسيلة الأدلة، وحتى نظره أيضاً فإنه نظر خاص لا يستعمل فيه هذه الأدلة المسماة بالعين، إنه يرى في كل جارحة من جوارحه بل انه يرى بلا جارحة، إنه ينظر من خلفه كما ينظر من أمامه، لأنه في عين الشهود، قد فني في حقيقة الوجود، .. والذي يفنى في

الشهود والوجود لا يغيب عنه شهود ولا موجود، إن وجوده متضخم جداً، وإشعاعاته شديدة القوة، فهو محيط بكل شيء، وهو نافذ في كل شيء، لأنه يتصل بالمحيط اللطيف. . .

وسكت الأستاذ، . ثم حيَّانا وانصرف، . . وهكذا بقيت وحدي وأنا في صفي مع التلاميذ، بقيت وحدي لأني انجرفت بتيار الآفاق التي أوصلني إليها أستاذي الكريم، ورحت أدرس موقفي فيها، فإذا وجودي ينجذب إليها بقوة جبارة، وهناك استحال وجودي سمعاً ماج فيه نداء ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ (سورة طه، الآية: ١٢).

الخلع

ما هذا النداء؟ وما هو الواد المقدس؟. فهل الأفق الذي تجذبني تياراته هو الواد المقدس؟ وماذا يريد هذا المنادي من قوله: إخلع نعليك،.. إنني لا أحتذي نعلاً لأخلعه، فماذا يريد من الخلع؟ هل يرمز عن النعل بخلع المشخصات الوجودية ليؤهلني إلى الاتصال بالعالم المجرد،.. إن المجرَّد لا يراه إلا المجرَّد، إنني تجرَّدت من كل شيء، تجردت من حياتي الشخصية فتركت أهلي وإخواني ووظيفتي وشخصيتي،.. والتحقت بهذه المدرسة التي راحت تسير بي في حياة جديدة حتى أوصلتني إلى هذا العالم،.. هل يريد أن يجردني حتى من هذه المدرسة، أليست المدرسة هي الطريق الموصل إليه،.. أعتقد بأنه يريد أن يجردني من المدرسة، بمعنى أن أخلع علاقتي من هذه المدرسة لأخلص له، فهو لا يريد شريكاً في العبادة أي في الحب، وهل الحب لا عبادة الأحرار والأبرار؟. إنه يريد أن يجرد إيماني به من وسائل الإيمان، وإن كانت السبب في إيماني به لأن الوسائل في نظره حجب للإيمان الصحيح،.. إنه يريد أن يجردني حتى من نفس الشهود، لأن الشهود إنما يحصل بوسيلة الآلة الشاهدة، والآلة في نظر الشاهد حجاب المشهود،.. فهو يريد أن يخلصني منها ليخلص شهودي إليه.

إن هذه الوسائط في نظره كالنعل يلزم خلعها مثله، لأنه لا محل لها في المواطن المقدسة، وكذلك يلزم للواصل إلى حضيرة الجمع أو منطقة الشهود أن يخلع عن نفسه كل الوسائل والوسائط فإنها أجنبية لا تلائم مقام القرب المقدس، أو حرم الحق الشريف.

وحينما وصلت في سيري الوجداني إلى هذه المنطقة، رأيت وجودي يتجرد عن كل شيء حتى عن الوجود نفسه يتجرد عنه لكي لا يبقى هناك إلا الحق وحده، إذ لم يبق في عوالم حياتي إلاَّ هو، فهو الذي يشغلها كلها،.. إنني الآن لا أحس إلا به، إنه هو الذي يُدبِّر عوالمي وأكواني،.. إن الزمان والمكان معمور به،.. إنني مفرد مثله، إنني أو أنه يشغل كل آفاق الحياة أو آماد الوجود،.. أنا وهو،.. إن أمري لعجيب،.. هل هذا العالم الضاج بآلاف الملايين من الصور والحقائق يخلو في لحظة واحدة إلا عني وعنه،.. فهل بعدما جردت العالم عن سواه يبقى لوجودي أثر يشير إليَّ، إنني مضطرب، إنني أكاد أخرج عن حدود المنطق.

إنني، إنني، هل أنا أنا، وهل هو هو؟ إنني لا أفهم شيئاً،.. إن هذه المنطقة حساسة وخطرة جداً، ان المنطق تتلاشى وسائله في هذا المكان فهو يكاد أن يعربد كما عربد السكارى من المتصوفة،.. إنني لا أحب أن أعيش صوفياً ينكر كل شيء، .. إنني فرد من الناس، إنني عبد الله،.. إنني رشح من البحر،.. إنني، إنني، ومع ذلك فقد تلاشى كل شيء في الوجود فلم يبق إلا أنا وإلا هو،.. فهل أنا أنا؟؟، وهل هو هو؟..

إنها منطقة الشك الذي يهوي بالإنسان إلى الإلحاد، ربِّ أعني على مقامي فإني أصبحت منك على قاب قوسين أو أدنى، إنني

فرد،.. وإنك فرد في هذه المنطقة، وأخال نفسي قد تلاشت أيضاً فلم يبق وجود إلاك،.. وهنا يهتف الإيمان بي: أن ارجع إلى نفسك، فقديماً أرشدني أئمة الهدى إلى خطر هذه المنطقة بقولهم: «إن لنا مع الله حالات نخال بأننا هو، وبأنه نحن، ولكنه هو هو، ونحن نحن»، وأن هذه الحالة وأعني بها حالة الانفراد من تلك الحالات، فإني أخال أن نفسي قد تلاشت ولم يبق إلا وجهه إنني موجود. موجود بشخصي، فأنا أنا ولا شك بأنه موجود بعالمه المجهول، فهو هو، كل ما هنالك أن حجب العلم والمنطق والمحيط والعادات والتقاليد كلها قد ارتفعت، ولم يبق هناك إلا الواقع المشهود والحق الموجود، فأنا معه فقط، وهو معي فعلاً، أكاد أراه وألمسه، وإن كنت لا أراه ولا ألمسه إن هذا الفراغ يكاد أن ينجني، وهل بقي لي عقل ليمشي إليه الجنون، إنني قد تركت العقل وعوالمه جانباً حينما بلغت درجة الشهود فالعقل إنما نحتاجه كوسيلة إلى الواقع، فإذا أدركنا الواقع فأي حاجة لنا بالعقل؟ إن هذا الفراغ يكاد يصرعني، فأكاد أنكر نفسي، فأخالها قد تلاشت ولم يبق إلا وجهه، ومع ذلك فإني أحس بنفسي وبأني موجود، فالفراغ يشغلني كما يشغله، فهو... وأنا... هو... هو... أنا أنا.

وهنا رجعت إلى وعيي وإذا بالأستاذ يهزني بشدة، ويقول لي: أفق أفق، إنك وصلت إلى منطقة دقيقة تحتاج إلى الإفاقة، إحذر من السكر فإنه يهوي بك إلى أعماق هاوية لا قرار لها، أفق والتفت إلى نفسك، إنك في منطقة الحق، إنك في حضيرة الجمع، أوتدري ما هي حضيرة الجمع؟

حضيرة الجمع

إنها منطقة تجمعك بالحق، ولا يمكن الجمع معه إلا بإسقاط التفرقة بينك وبينه، ولا يمكن إسقاطها إلا بفنائك فيه، بحيث تندك فيه اندكاكاً وجودياً، وهذا المعنى وإن لم يتحقق لأحد إلا بالفناء الحقيقي، حيث تفنى الذات، وتذوب العناصر، وترجع الوديعة إلى بارئها لتتصل بالحق وتجتمع معه، ولكن الاندكاك الوصفي أيضاً له خصائص الاندكاك الذاتي، فإن عروض الصفة لا بد وأن يكون على الموصوف، ولا بد أن يكون بين الصفة والموصوف توافق طبعي، ليقبل الموصوف الصفة ولتنطبق الصفة على الموصوف، وإلا فإن عروض الحرارة على الثلج، أو عروض البرودة على النار من المستحيلات الأولية، ولما كانت صفات الحق لا تعرض إلا على ذات الحق، لذلك يلزم السالك أن تستحيل ذاته في الحق حتى تعرض عليه صفاته، وإلا فإن صفات الحق لا تعرض على ذات تخالف الحق في ماهيتها، إن هذا المعنى مما يعرض على السالك الوارد إلى حضيرة الجمع.

لكنه لو تأمل جيداً لعرف بأن هذا المعنى مما يأباه المنطق وينفيه الإيمان، إن هذا السالك لما صهر صفاته في بوتقة الرياضات الإلهية، حتى أصبحت تحاكي صفات الحق في الخصائص والآثار.

وحتى صارت ملكاته لا تستجيب إلا للدواعي الإلٰهية، فقد تخيل أنه ارتدى صفات الحق نفسها، أي حلَّت فيه صفات الحق، ولما كانت صفات الحق لا تحل إلا في ذات الحق، فلا بد وأن تكون ذاته أيضاً منصهرة في ذات الحق، وعلى هذا البيان يكون السالك هو الحق، لأن صفاته صفاته، ولا تعرض صفات الحق إلا لذات الحق، فتكون ذاته أيضاً ذات الحق، فهو الحق.

هذا ما تصوره له العربدة الصوفية، ولكن المسكين قد غفل عن أن العبد إذا صهر صفاته في صفات الحق، حتى أصبحت ملكاته ملكاته في الدعوات والاستجابات، فإنه لا يلزم هذا الانصهار الوصفي انصهار في الذات أيضاً، لتتبدل حقيقته، بحيث تتحول ماهية ذات العبد إلى ماهية ذات الحق.

إن الحق لا يزال بماهيته المجهولة، وله صفاته وآثاره، وإن العبد لا يزال بماهيته العبدية التي خلع عليها صفات تحاكي صفات الحق في الآثار، ولو توجه جيداً إلى ذاته وصفاته لشاهد أن صفاته بحدودها غير صفات الحق بحدودها، ان الحديدة المحماة، وإن حاكت النار بلونها وأثرها إلا أن النار لا تزال ناراً والحديدة لا تزال حديدة، وكذلك السالك الذي يتلبس بصفات الحق، فتصبح دعواته واستجاباته دعوات الحق واستجاباته، حتى توهم أنه الحق، إن صفات هذا السالك لا تزال صفاته، وصفات الحق لا تزال صفاته، لكل منهما حدودهما المشخصة لها، إلاَّ أن تشابه آثارهما أدى إلى شبهة الوحدة.

رق الزجاج ورقت الخمر   فتشابها وتشاكل الأمر

فكأنه خمر ولا قدح   وكأنه قدح ولا خمر

ولكننا لو دققنا النظر جيداً لرأينا القدح لا يزال قدحاً، والخمر لا يزال خمراً،.. إنكم أيُّها الواصلون إلى حضيرة الجمع، الرافعون الحجب والملابسات بينكم وبينه، حتى أصبحتم تشاهدون الحق بعين الحق، لا تغركم هذه الظاهرة التي تجعلكم تتصورون أنفسكم آلهة، إنما الله إلٰه واحد لا شريك له، إن السير إلى الحق يشرفكم على وحدة الحق في ذاته وصفاته، فأنتم أنتم، وهو هو. لا شريك له.

إن حضيرة الجمع هي الغاية التي سرنا إليها في سلوكنا الوجداني فلا مقام أعلى منه، وهل هناك مقام أعلى من مقام الأحدية؟..

وهنا أخذت الأستاذ رعشة حادة راح يرتجف منها، وكأنه يلاقي أعاصير الشتاء وهو عريان فوقفنا خاشعين أمام حالته، بل سرى إلينا الرجفان، لأننا رحنا نشاهد ما لا يطيق كياننا شهوده، أني لا أرى إلا وجوداً واحداً لا يقبل الإثنينية، ومع ذلك أحس بأني موجود مستقل عنه، فأنا غيره في الوجود، وإن سميت وجوده وجوداً بحسب الاصطلاح، إلا أن الأحدية التي تخصه تنفي عنه المشاركة في الوجود، إن وجوده فوق وجود الموجودات، إن وجود الموجودات رشحات ضئيلة من فيضه الجارف، إن الشعاع الموجود في قعر البئر أثر ضئيل من ضوء الشمس مع أن الشمس أحدية الذات لا تقبل الإثنينية، فلا يخال هذا الضوء الضئيل بأنه يشاطر الشمس في الذات أو في الصفات، وإن كان ينسب إليها حينما ينسب نفسه إلى أصله، لكن هذه النسبة لا تجعله هي، ولا تجعلها هو.

إن هذه الحقيقة المستغربة قد هزت كياني فأخذت أرتجف

وأرتجف، ولم أسكن إلا على صوت الأستاذ وهو يقول: إننا سنختتم هذه المحاضرات فقد أنهينا سيرنا فيها، ولم يبق لنا إلا أن نعرف حقيقة هذه الذات الأحدية التي قاسينا ما قاسيناه من الجهود المبيدة في سبيل الوصول إليها، إن التوحيد غاية الغايات كما كان مبدأ المبادىء، فما هو التوحيد؟. ذلك ما أشرحه لكم في بقايا سطور هذا الكتاب...

التوحيد

إن التوحيد الحقيقي هو ما يصل إليه الوجدان في سيره إلى الحق، أما ما تثبته الأدلة العلمية وتحده المقاييس العقلية فهو جحود وإلحاد، لأن العلم لا يركز إلا أمراً يصل إليه، والعقل لا يثبت إلا شيئاً يعيه، وحقيقة الله (جلَّت حقيقته) لا تدركها البصائر، ولا تشير لها الأمائر، وغاية ما وصلت إليه العقول هو تقسيم الوجود إلى حادث، وقديم. ولقد أدركتم في سيركم الوجداني بأن الوجود لا يتصف بالحدوث، بل هو قديم ذاتاً وإنما الأكوان والأنفس تجليات القديم وظهوره في صورها المختلفة ومشاهدها المتعاقبة، وهو معنى لا يصل إليه العقل، وإنما يدركه الوجدان إذا تحرر من قيود الرسوم وأغلال العلوم، حينما يرى الكل شهوداً ويشاهد الوجود عين الحق (جلَّت عظمته) هذا هو التوجيه.

ولا نريد أن ننكر فضل العقل وجهود العلم في بناء التوحيد، وإنما نريد أن نقول:

بأن العقل والعلم إنما يمهدان الطريق لإدراك التوحيد الحقيقي، فالإنسان إذا أدرك مقام الصانع ومنزلته في إيجاد العوالم والأكوان بالأدلة العلمية، والعلل العقلية، يتهيأ وجوده إلى السير للحق، ليشاهد عظمة الحق ومكانته من الأنفس والأكوان، ومتى تجلَّت له الشواهد

الإلٰهية والإشارات الاسمائية، راح يسير فيها نحو الذات الجامعة التي يعبر عنها علم المعرفة (بعين الجمع) وهنا يدرك حقيقة التوحيد، وبأنها ناموس موحد لا أجزاء ولا جزيئات له، حيث يشهد أن المظاهر البارزة والمستقرة في العوالم والأكوان ليست إلا تجلياته في الصور والأشكال الكونية، وهناك يؤمن بأن هذه الحقيقة لا يدركها العقل ولا يفهمها العلم، وإنما يتذوقها الوجدان في سيره وسلوكه إلى الحق.

إن للتوحيد مراتب ثلاثة، ولكل مرتبة طائفة تطوف حول حرمه الأقدس:

الأولى: التوحيد العقلي، ويتحقق التوحيد العقلي بالنظر في الشواهد الكونية والعوالم الخلقية، حيث يستدل بها العقل على وجوده مكون قدير وخالق مدبر، وهناك يفهم معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ (سورة الأنبياء، الآية: ٢٢) إذ لو تعددت اليد العاملة في بناء هذه الأكوان المنظمة، لتخالفت في البناء ولتضاربت في الآراء، لأن لكل مهندس خريطته وهندسته، ولما كان النظام القائم في الأكوان والعوالم كاملاً من جميع الجهات، نستدل منه على وحدة الصانع وقدرته وكماله، والإسلام يحدد هذا التوحيد بسورة خاصة من سور القرآن الكريم عنوانها «بالتوحيد» وهي دستور إلٰهي قرره الله على نبيه بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (سورة التوحيد، الآيات: ١ ـ ٤).

كما يجعل من الشهادة بالتوحيد مادة أولى للقانون الإسلامي، فلا يقبل انتساب أحد إلى الإسلام إلا أن يشهد أن لا إلٰه إلا الله، فإن شهد بها شملته المخصصات الإسلامية، من مراعاة ذمته، وحقن دمه، وصحة معاملته ومناكحته، وهذا هو التوحيد الإسلامي.

والإسلام نفسه يوجه المسلم إلى التوحيد العقلي والوجداني، وذلك بتوجيه نظره إلى نظام العالم الكبير، وما احتوى من دقائق الصنعة ورقائق الحكمة، وما اشتمل عليه من ضبط وأحكام يحار فيه الفكر، ولا شك بأنه إذا نظر فوعى قلبه وعقله يصل إلى منطقة التوحيد العقلي، فيؤمن به ضميره وعقله وقلبه، وهو ما يريده الإسلام من أبنائه.

الثانية: التوحيد الوجداني، ويتحقق التوحيد الوجداني، بإسقاط الأسباب والعلل عن التأثير في المُسبّبات والمعلولات، ولا شك بأن الوصول إلى هذه الدرجة يتوقف على الاجتياز من الدرجة الأولى، وأعني بها التوحيد العقلي، فإنه إذا أمن عقله، واستسلم قلبه، تيقظ وجدانه، فراح يتجاوز حدود العقل والعاطفة إلى مناطق الحقيقة، وهناك يعرف أن المؤثر واحد، وأن الأسباب ليست إلا آلات بيده، فهو المؤثّر والمُسبّب، وهناك يترك العقل ومبادئه وغاياته، ويطرح العلم ومناظراته وملابساته، ولا شك بأن التجاوز عن العلم والعقل لا يتحقق إلا إذا بلغ درجة الشهود، إذ تنكشف له شواهد الجمال والجلال في العوالم والأكوان، وهي تشير إلى الحقيقة الجامعة، والذات الأحدية، وهناك يترك الوسائط العالمية المنحطة، إلى عالم علوي مستقل بذاته، حيث يشير إلى المقصود بلا دليل خارجي، إذ يكون حينذاك هو المقصود بنفسه، حيث تغمره أنوار التوحيد، حتى لا يرى غيرها ليستدل بها عليها، وهناك يفهم مقصود الإمام الثالث، أبي الشهداء في دعائه يوم عرفة حيث يقول:

«إلٰهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر

إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعُدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً».

إن هذه الجمل النيرة ترشد الضمائر الواعية إلى ما يقصده العرفان وينشده الوجدان، إنها تصل بالسالك إلى حضيرة الجمع، تصل به بعدما يجتاز الآثار في سيره، فيعرف بأن ما يظهر في الأنفس والأكوان ليس إلا إشارات ترمز إلى الحقيقة الجامعة، وأن القوى المودعة في العلل والأسباب ليست إلا قوة واحدة أخفاها فيها لحكم سامية.

منها عدم استعداد المدارك لفهم هذه الحقيقة، ولذلك رضي منهم أن ينسبوها إلى العلل الطبيعية والحركات الفلكية، إذا المُسبّب الحقيقي محتجب في الأسباب، كما أن الناس أيضاً محتجبون في الرسوم الخلقية والهيئات البشرية، لذلك لا يرون إلا الرسوم والهيئات، والذي يعيش في الظلام تعميه أشعة الشمس إذا فاجأته دفعة واحدة، نعم إن منْ ألف النور، وعاش في الضياء واعتاد النظر إليه، يحصل له استعداد السير إلى مشرق النور، ومطلع الشمس، فهو لا يرى في الأسباب إلا آلات جامدة يوجهها الحكيم الخبير البصير إلى حيث مستقرها المقرر لها في عالم الأزل فهو لا يجد في مظاهر العوالم وخفاياها إلا تجليات الحق في أسمائه وصفاته، فهو يستمد الحياة من منطقة الواحدية كما يعبر عنه علم المعرفة، وهي التي تحدثنا عنها في مواضيعنا المتأخرة، حينما أشرفنا بالسالك على عالم الفناء في الذات الأحدية من كوى الصفات، فراح يرقب حضيرة الجمع بمجهر الأسماء.

الثالثة: التوحيد الخالص، والتوحيد الخالص يختص بذاته القدسية، فليس لغيره نصيب فيه، لأنه لا يتحقق إلا بفناء الخلق كلهم، وبقاء الحق وحده، وإذا اكتسح الفناء العام كل شيء لا يبقى هناك ما يرقب منه السالك، بل لا يبقى هناك سالك ولا مسلك ولا سلوك، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (سورة القصص، الآية: ٨٨)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ (سورة الرَّحمٰن، الآية: ٢٧)، فليست هناك عبارة تشرحه، ولا إشارة ترمز إليه، فكيف يعيه العقل، أو يحن له القلب، وإليه تشير جملة الدعاء المأثور عنهم عليهم السلام: **«يا من لا يعرف ما هو إلا هو»**.

كما أن فهم هذه الحقيقة ووعيها من أصعب المباحث الوجدانية، ولذلك لم يصل إليها، وإلى أن حقيقة الحق لا يدركها إلاَّ الحق، فلم يصل إليها إلا الأصفياء من أوليائه، وأعني بهم منْ بلغوا درجة الفناء في حضيرة الجمع بالحق، حيث عاشوا فيها، وأدركوا في ذلك الفناء والبقاء، أن مقام الأحدية لا يدركه إلا هو، وربما توهم بعض السكارى بخمرة الفناء بأنه هو القديم بالذات ولا أدري كيف وعى هذه الحقيقة حتى تمكن من عرضها في هذا الحد، ومن المعلوم أن حقيقته لا تظهر إلا بالفناء التام، والاندكاك التام، حيث لا يبقى إلا وجهه، . . وإلى هذا الحرم حج أهل الرياضات وتتابعت منهم الإشارات وهم كلما أمعنوا في السير أدركوا قصورهم عن الوصول إليه، فإن التوحيد الخالص لا يتحقق إلا بفناء الرسوم كلها، حيث تصفو فيه الأحدية عن الكثرة العددية، ومعنى الإشارة بقاء التعدد، ومع التعدد لا مجال لظهور ذلك التوحيد.

فهذا القسم من التوحيد لا يعيه إلا ذاته المقدسة، وإليه تشير

عبارة سيد الموحدين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في جوابه عن الحقيقة حينما سأله عنها كميل بن زياد بقوله: ما الحقيقة: «**هو كشف سبحات الجلال من غير إشارة**»[1].

ومعنى هذه الجملة تنزيه الذات من التعدد الأسمائي.

ويؤكدها بقوله عليه السلام: «**صحو المعلوم مع محو الموهوم**» فإن معناها فناء الرسوم كلها في أحدية الذات.

وأما قوله عليه السلام: «**جذب الأحدية**» فإنها عبارة لا تفسر إلا بالإشارة، فإن الأحدية لا تجذب إلا بعد الفناء العام، وفي الفناء العام لا نفهم حقيقة تلك الجذبة الجبارة.

وأما قوله عليه السلام: «نور يشرق من صبح الأزل فيشرق على هياكل التوحيد آثاره» فإنه في مقام تقريب معنى المفارقة بعد الجمع، فإشراق نور الجمع ووجود آثاره على هياكل التوحيد، لا يتحقق إلا أن يكون هناك نور.. وهياكل، وآثار.. وإن هذا المقام لا يدركه إلا خاصة الخاصة من أوليائه.

وهنا ختم الأستاذ محاضرته، وقال لنا: أودعكم واستودعكم هذا العلم الجليل لتُبلّغوا رسالته هذا الجيل الجاهل، فعسى أن يوفقه

---

(١) في الرواية: «أن كميل بن زياد سأل الإمام علي عليه السلام قائلاً: ما الحقيقة؟ قال عليه السلام: ما لك والحقيقة؟ فقال كميل: أولست صاحب سرّك؟ قال عليه السلام: بلى ولكن يرشح عليك ما يطفح مني إليك، فقال كميل: أومثلك يخيّب سائلاً؟ فقال عليه السلام: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة قال كميل: زدني بياناً. فقال عليه السلام: محو الموهوم وصحو المعلوم. قال كميل: زدني بياناً. فقال عليه السلام: هتك الستر لغلبة السرّ، قال كميل: زدني بيانا. فقال عليه السلام: نور يشرق من صبح الأزل فيلوح على هياكل التوحيد آثاره. فقال كميل: زدني بياناً. فقال عليه السلام: إطف السراج فقد طلع الصبح». روضات الجنات: ج٦، ص٦٠.

الله إلى الوعي، فيسير في طرق الإنسانية الصحيحة، فيتلافى هذا العصر ما أبادته العصور الهدامة، والله من ورائكم محيط.

محمد جمال الهاشمي
النجف الأشرف

الفهرس

تقديم ٥

نبذة مختصرة عن حياة المُؤلّف ١١

رجاء ١٣

المقدمة: هكذا عرفت نفسي ١٥

الحياة المادية ١٩

الإنسانية ٢١

من أنت؟ ٢٤

من أنا؟؟ ٢٦

اليقظة ٢٩

التخلية من الرذائل ٣٢

الندم على ما مضى ٣٤

تطهير النفس من الرذائل ٣٧

الصراع بين العقل والجهل ٣٩

أحلام اليقظة ٤٤

التفكُّر ٤٥

في قفص الاتهام ٥٣
محكمة الضمير ٥٧
الالتجاء إلى اللّٰه تعالى ٦٥
في مدرسة الأحداث ٦٧
ذكريات الطفولة ٧٠
اختبار الإنسان لنفسه ٧٤
مخالفة الهوى ٧٧
الإيمان بالله تعالى ٧٩
في هدير العاصفة ٨٢
الحزن ٨٥
الخوف ٨٧
الإشفاق ٨٩
الخشوع ٩٠
في الصف الأول ٩١
الكفاف في المعيشة ٩٦
الرضا ١٠١
الرجاء ١٠٣
عروج الروح ١٠٥
حقيقة الإنسان ١٠٧
جلد الإنسان ١١٠
عين الإنسان ١١٤

الدورة الدموية ١٢٠
القلب ١٢٣
الأوعية الدموية ١٢٦
مدارس علم النفس ١٣١
الروح ١٣٤
في الصف الثاني ١٣٨
أين الإنسانية؟ ١٤١
الصبر ١٤٤
الرضا ١٥١
السعادة والشقاء ١٥٧
الشكر ١٥٩
الراحة والتعب ١٦١
الحياء ١٦٤
العبودية ١٧٢
الإرادة ١٧٤
الصدق ١٧٦
الكلام ١٨٠
الإيثار ١٨٤
الأخلاق ١٩٢
التواضع ٢٠١
الفتوة ٢٠٥

الانبساط ٢٠٩
القصد ٢١٤
العزم ٢١٥
الإرادة ٢١٦
الأدب ٢٢٠
اليقين ٢٢٣
الذكر ٢٣٠
الفقر والغنى ٢٣٢
الولاية والضنائن ٢٣٤
الإحسان ٢٣٦
العلم ٢٤٠
الحكمة ٢٤٣
البصيرة ٢٤٥
الفراسة ٢٤٩
الإلهام ٢٥١
الله خالق الكون ٢٥٤
الجاذبية إلى الحق ٢٦٤
الشوق ٢٦٧
الصفاء ٢٧٦
النَفْسَ ٢٨٢
الرجوع إلى المدرسة ٢٨٤

الكتمان ٢٨٨
المكاشفة ٢٩٠
الفناء في الله ٢٩٤
الرجوع إلى الوطن الدنيوي ٢٩٧
الصحو ٣٠٤
الفناء والبقاء ٣٠٩
الخلع ٣١٧
حضيرة الجمع ٣٢٠
التوحيد ٣٢٤
الفهرس ٣٣١